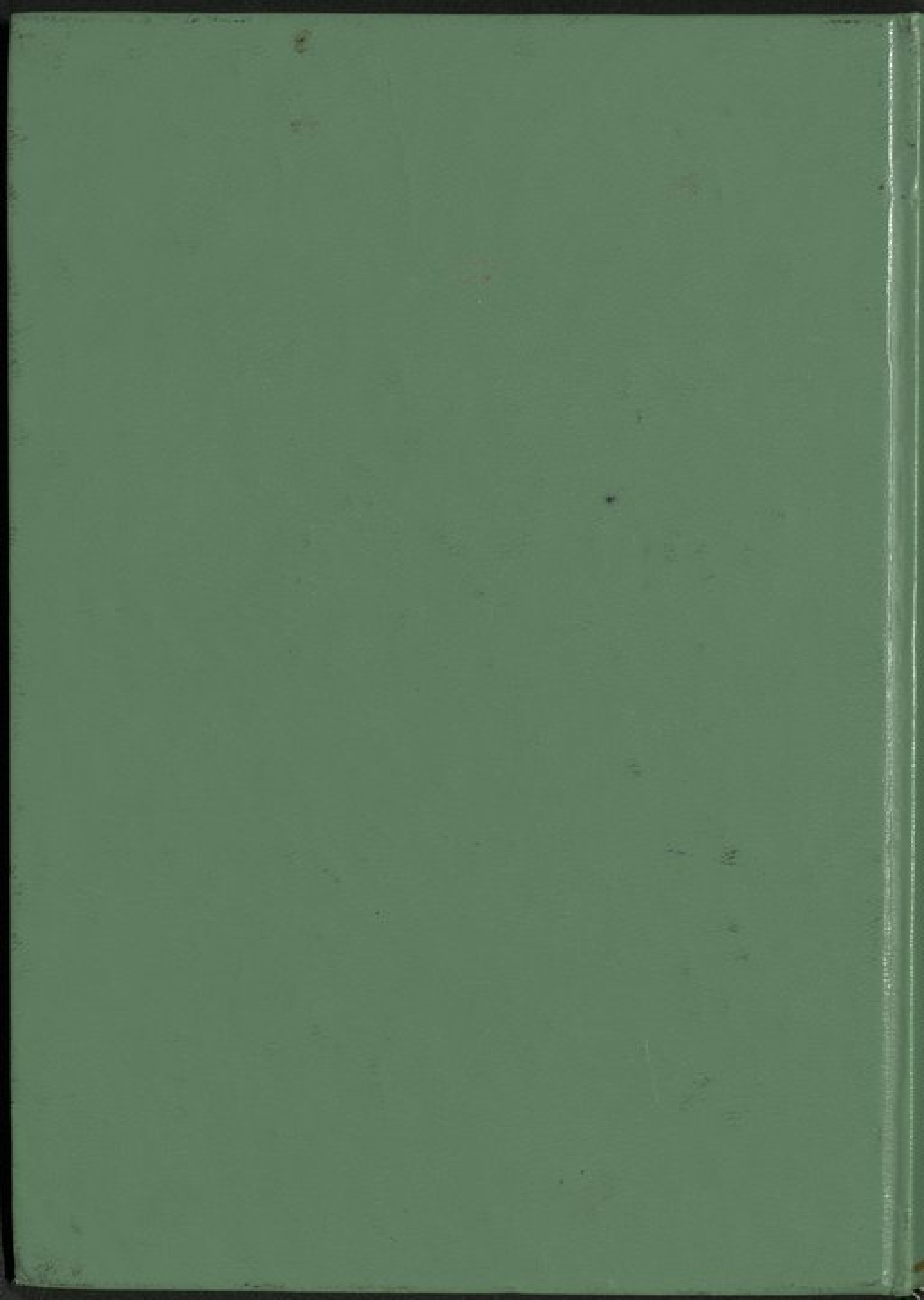
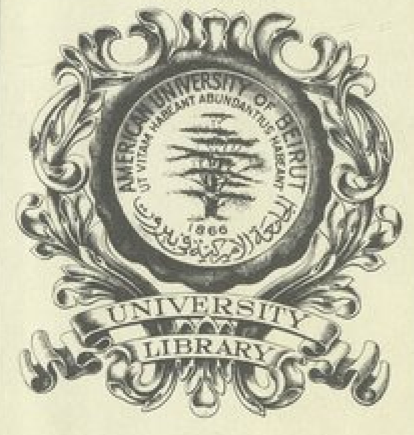
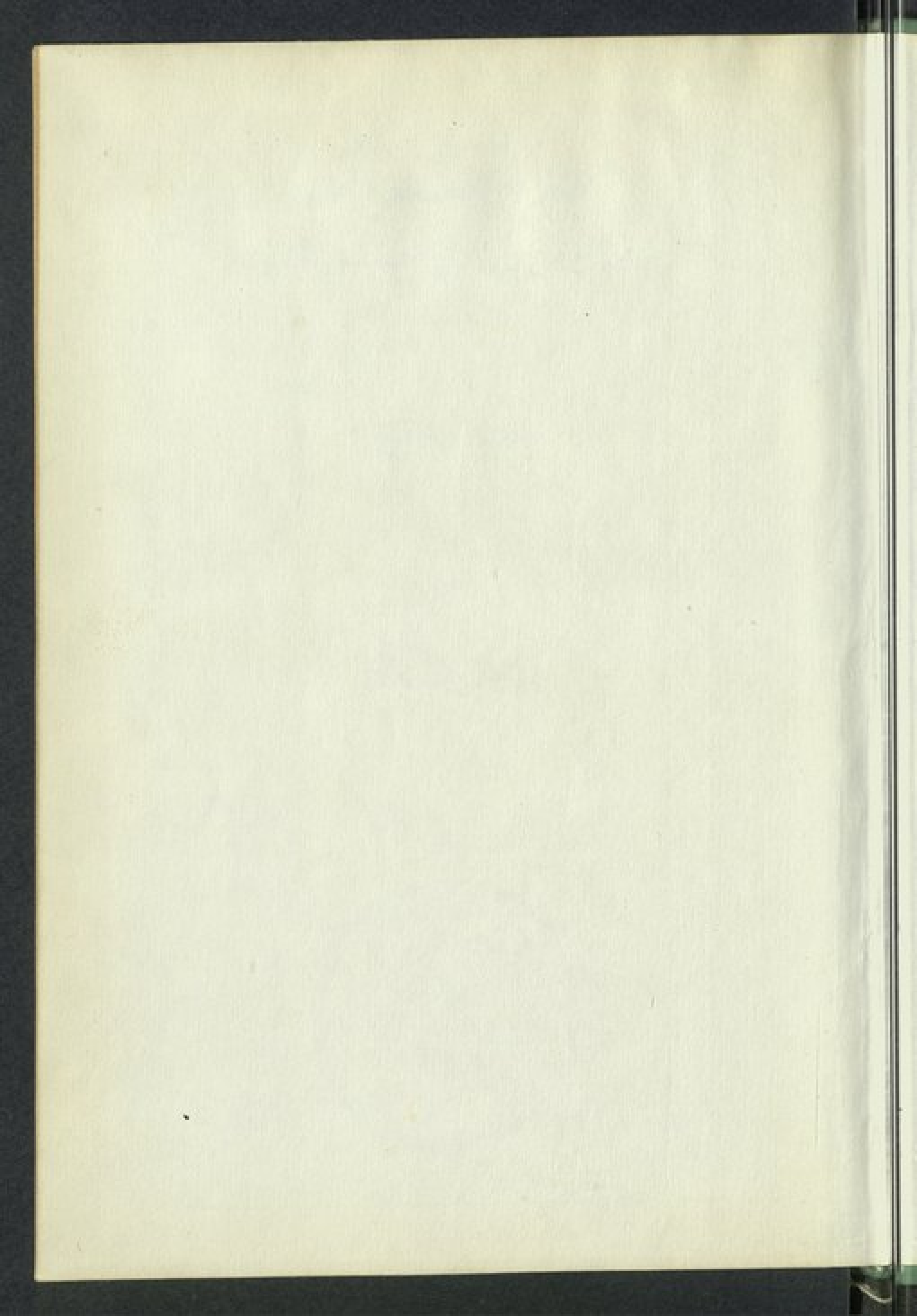
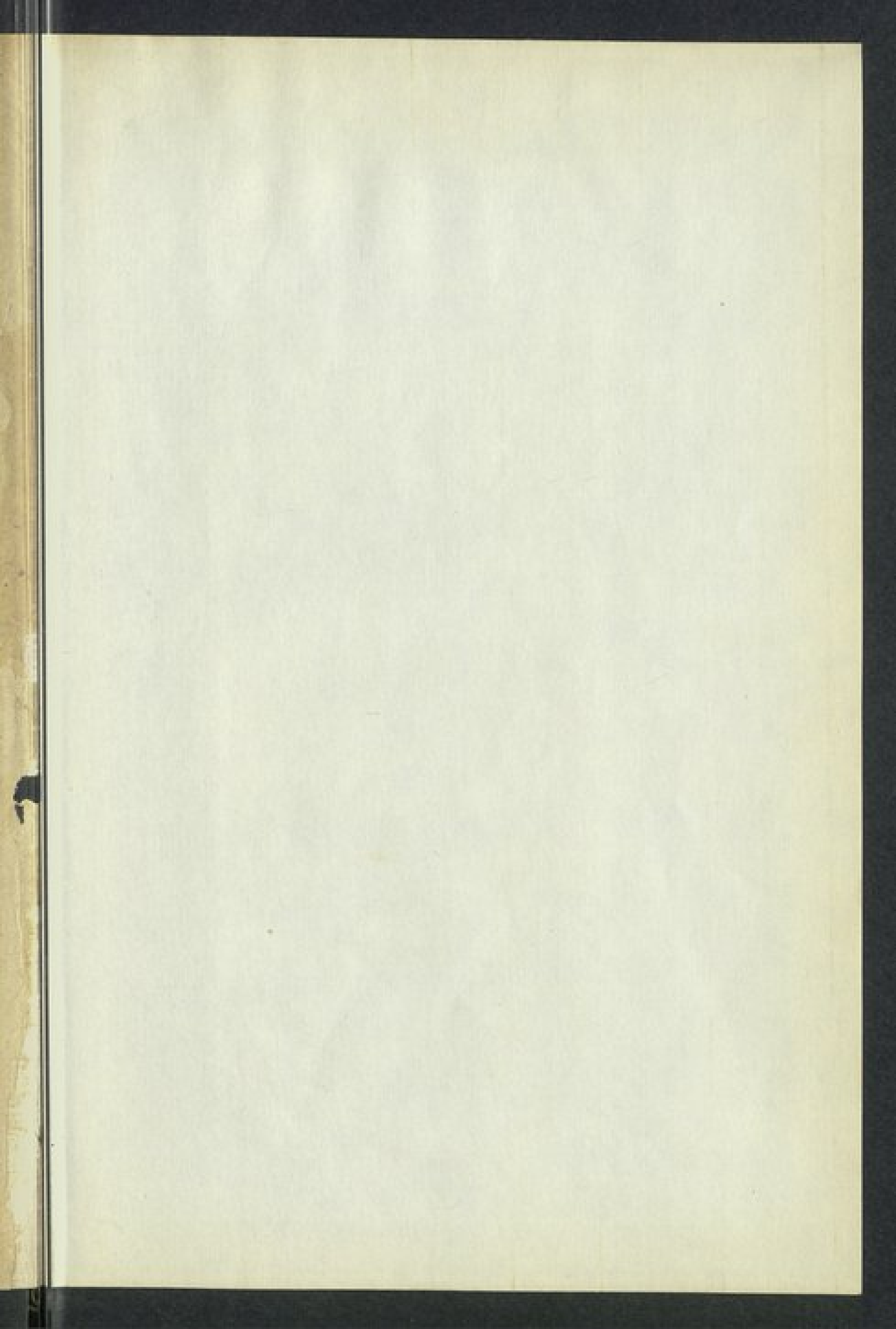



AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
UNIVERSITY
LIBRARY





مصر والشراكسة

صفحات من تاريخ مصر الحديث

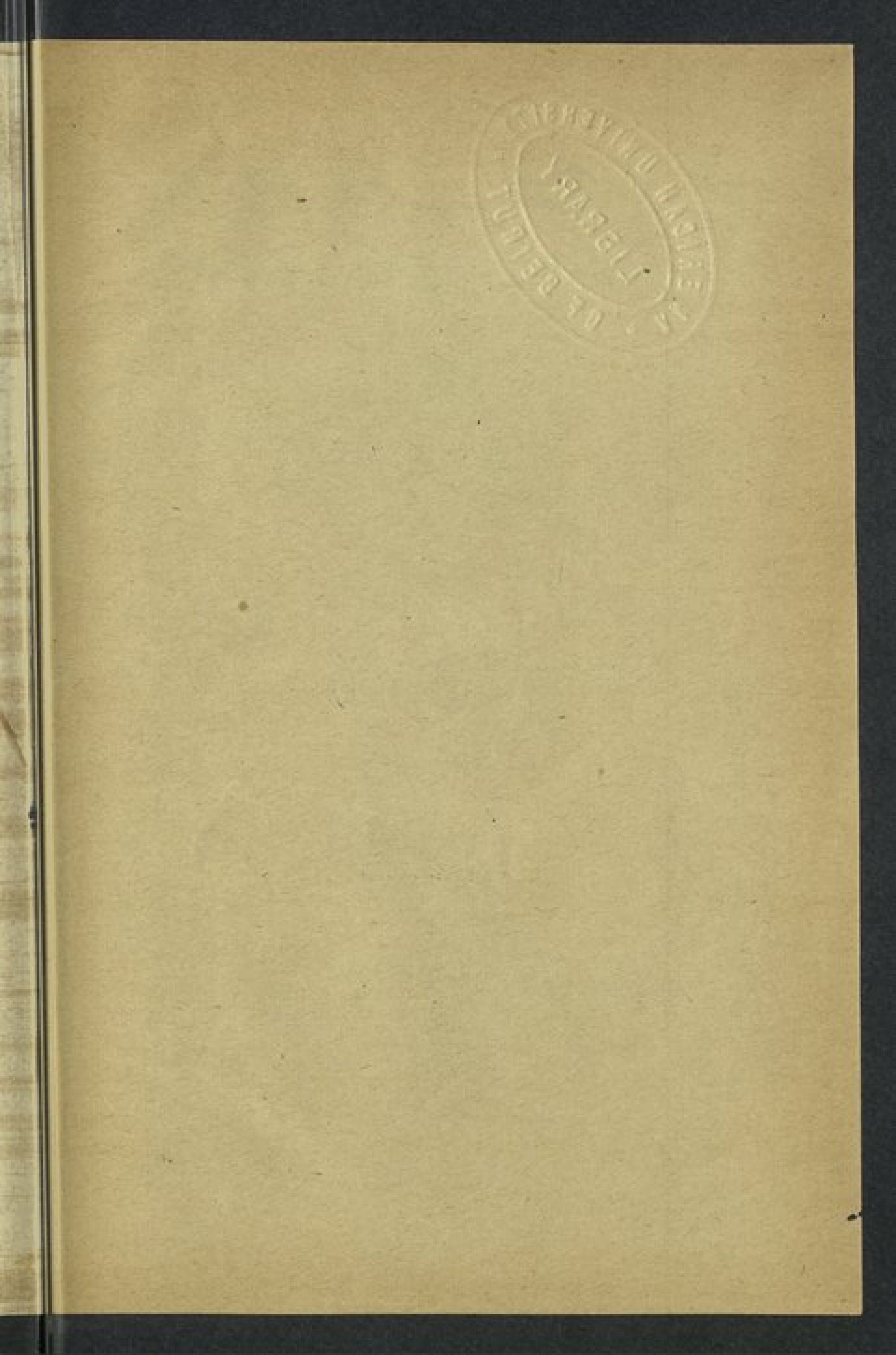
بحث وتحقيق

بقلم

راسم رشدي



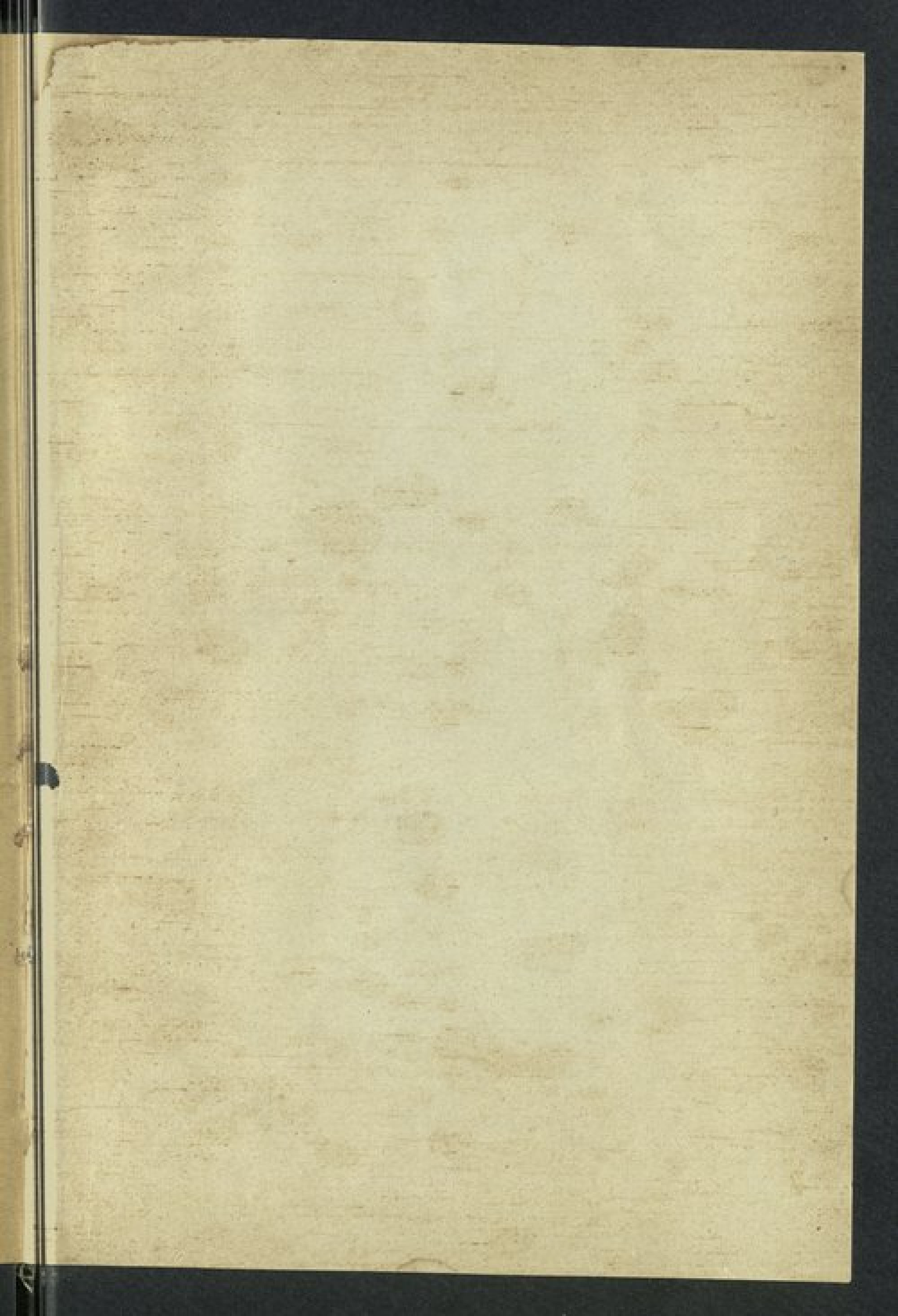
القاهرة ١٩٤٨ الثمن ٢٥ ص





شركسية بالملابس الوطنيـــة

(أنظر صفحة ١٢)



أهم مراجع الكتاب

١ — المصادر العربية :

بدائع الزهور فى وقائع الدهور — لأبي البركات محمد بن أحمد بن إياس .
صبح الأعشى — للقلقشندى .
شذرات الذهب فى أخبار من ذهب — لابن العماد الحنبلى .
عجائب الآثار فى التراجم والأخبار — للشيخ عبد الرحمن الجبرتى .
نهاية الأرب فى فنون الأدب — للنويرى .
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة — لابن تغرى بردى .
الخطط — للمقريزى .
تاريخ مصر الحديث } للمرحوم جورجي زيدان .
تاريخ التمدن الاسلامى }
مصر فى العصور الوسطى — للدكتور على ابراهيم حسن .

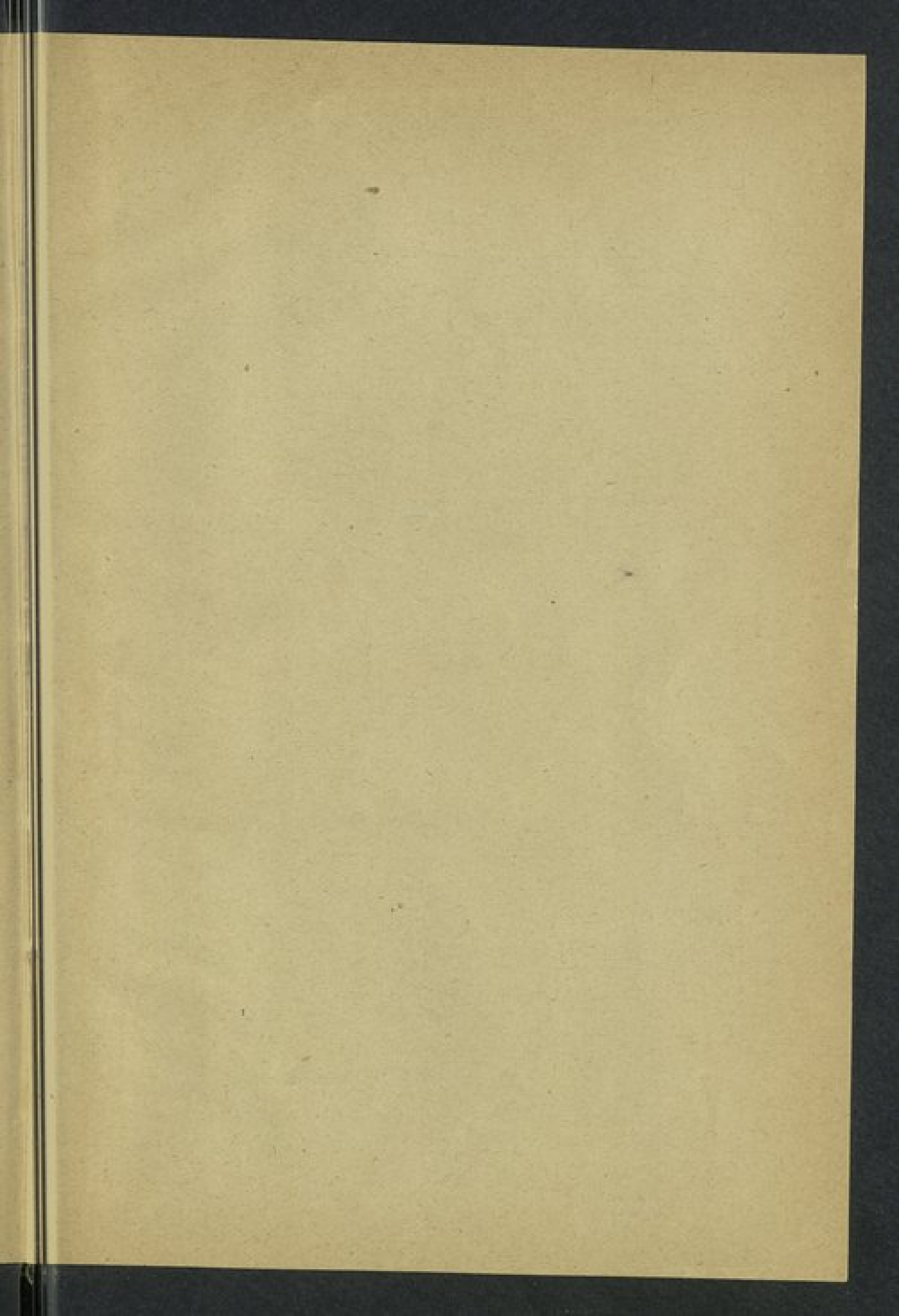
٢ — المصادر الإفرنجية :

The Memluke or Slave Dynasty of Egypt— Sir William Muir.

History of Egypt in the Middle Ages — Lane-Poole.

Histoire de la Nation Egyptienne—Gabriel Hanotaux.

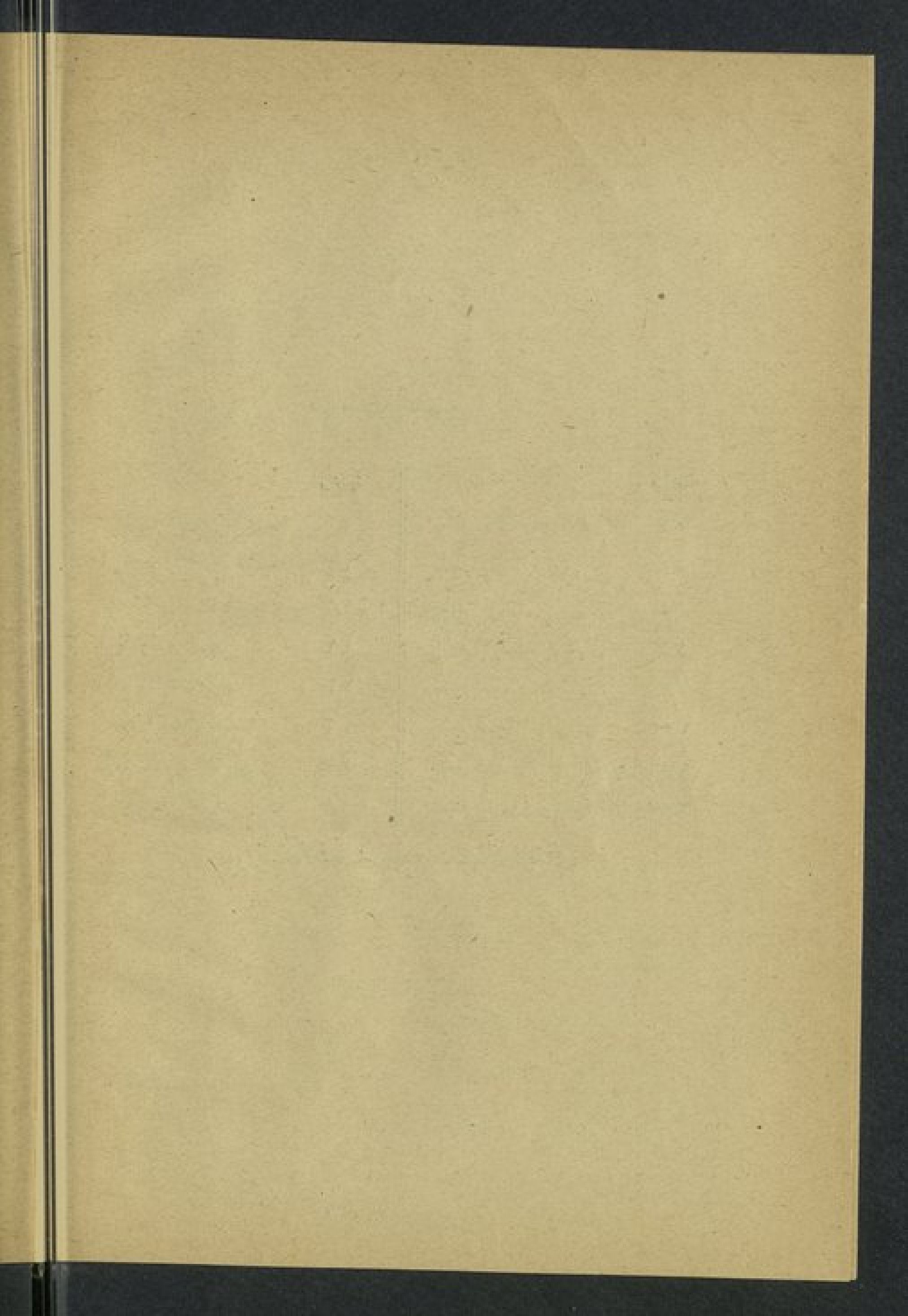
La Civilization Caucasienne—Arthur Byhan.



محتويات الكتاب

صفحة

فهرست الصور



هذا الكتاب

لعله لم يظلم عصر من عصور التاريخ كما ظلم عصر الدولة الشركسية فى مصر . ولعله لم يظلم أحد كما ظلم ملوكها . فامتلأت كتب المؤرخين بالمطاعن والاتهامات ، وتبارى الكتاب فى تضخيم مساوىء ذلك العصر وعيوبه بدون ترو أو إقامة أى وزن للعلم والحقيقة . فكانت نتيجة ذلك التخبط والتجنى أن رسموا لعصر الشراكسة فى مصر صورة قاتمة ، وجعلوه أظلم العصور التى مرت بالبلاد .

والباحث المدقق المنصف ، يستطيع أن يدرك بغير كبير عناء ، أن كثيراً من الكتابات عن الشراكسة وملوكهم قد صدرت عن هوى ، ورغبة فى إشباع شهوة ، ولم تكن كلها وليدة البحث العلمى الصادق المنزه عن الأغراض . إذ تجد تعمد الإيذاء وشهوة السب واضحين فى تلك المؤلفات . وفى الوقت الذى أنصف فيـــه بعض مؤرخى الأفرنج هؤلاء الملوك العظام ، ودافعوا عن بعض تصرفاتهم ، لانجد أحداً من كتابنا الأفاضل من تكون قد أخذته الغيرة على العلم والحقيقة ، يحاول تبرئة أولئك الأسياد مما لصق بهم ، واتهموا به ظلماً وعدواناً ...

إلا أنه لايفوتنى هنا ، وأنا أقرر ذلك ، أن أنوه بجهود اثنين من المؤلفين المصريين الصادقة ، فى هذا الصدد . أولهما سعادة الدكتور الفاضل عبد الوهاب عزام بك ، فى كتابه «مجالس السلطان الغورى» ،

وثانيهما حضرة الأستاذ الفاضل محمود رزق سليم المدرس بكلية اللغة العربية ، الذى يقول فى مقدمة كتابه «عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى» إنه قد هاله «ما ناله هذا العصر من صد وجفاء ، وما رمى به حيناً من أنه عصر ظلمة وتأخر وانحطاط وتقليد ، مع أنه جليل الخطر ، عظيم الأثر ....»

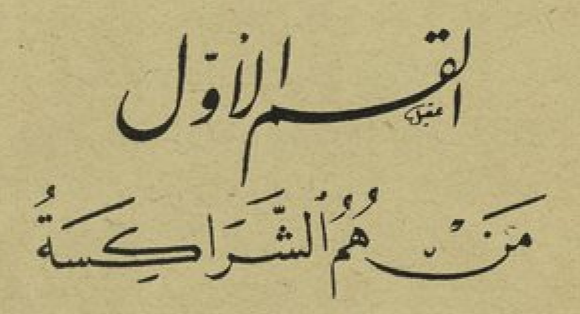
إزاء كل ذلك ، لم يكن هناك بد من إصدار مؤلف نزيه يفند مزاعم أولئك المتجنين ، ويقرع الحجة بالحجة ، ويرجع الفضل إلى أهله ، فعولت على كتابة هذا الكتاب ، وأنا أدرى أى موضوع شائك قد اخترته ، وأى مجهود يتطلبنى إزالة الوصمات والاتهامات التى لحقت بذلك العصر وملوكه . ولكن ، كل شىء يهون فى سبيل العلم ونشر الحقيقة ، وإنصاف قوم وفروا وقتهم وجهدهم لخدمة بلادهم ، ونشر العلم والمعارف والعمران فيها ، وبذلوا دمهم رخيصاً فى سبيل نشر لوائها ، وإعلاء كلمتها ، وتثبيت سلطانها .

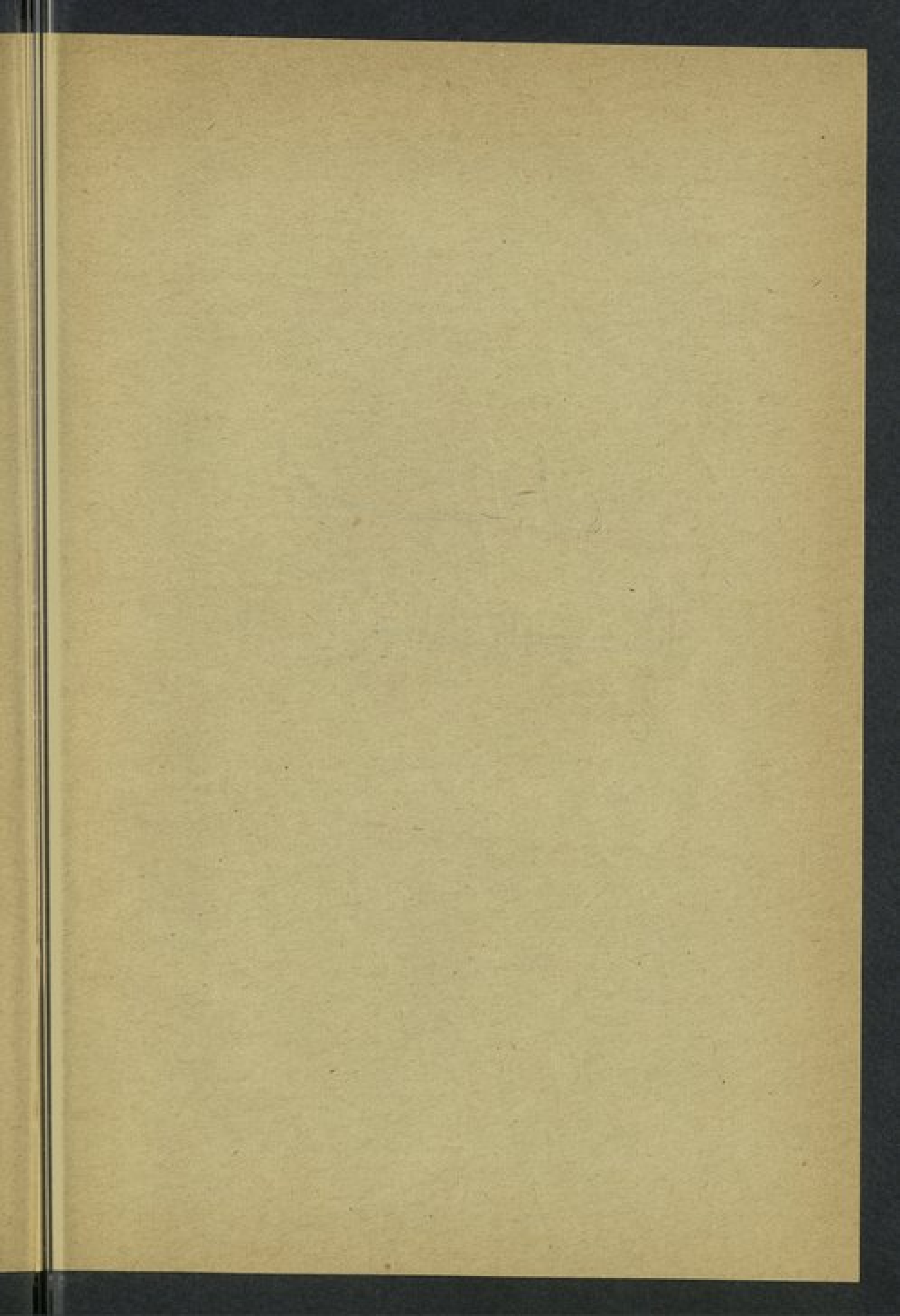
وقد رأيت ، تكملة للبحث ، أن أصدر الكتاب بفصل يتحدث عن الشعب الذى انحدر من أصلابه أولئك الملوك ، وشىء عن منبته ، ومدنيته الأصلية ، وعاداته وأخلاقه ، وتاريخه القديم ، لأن ذلك من شأنه أن يقرب إلى أذهاننا تفهم بعض أعمالهم وتصرفاتهم ، ودراسة تاريخ ملوكهم فى مصر .

وبالله المستعان .

راسم رشدى

القاهرة : أول نوفمبر سنة ١٩٤٧


القسم الأول
من هم الشراكسة



الفصل الأول

من هم الشراكسة؟

أصلهم :

الشراكسة من العنصر القوقازى الأبيض ، ومنشؤهم بلاد القوقاز ، فى البلاد المعروفة باسمهم [1] . وهى بلاد جبلية باردة ، تغطيها الثلوج أكثر شهور الشتاء ، وفى بعض المناطق أكثر شهور السنة . وفيها السهول الخصبة والمروج الخضراء اليانعة ، وفيها الأحراج الكثيفة التى يصعب فى بعض الأحيان اختراقها لشدة كثافتها . والخلاصة أنها من أجمل بقاع الأرض وأخصبها، وهواؤها صحى جميل ، ومن ذلك كانت أجسام الشراكسة والشعوب القوقازية بوجه عام كاملة النمو ، رياضية التركيب ، جميلة المنظر .

والشراكسة من الشعوب العريقة فى القدم . وقد جاء ذكرهم فى كتب اليونان القدماء بأسماء مختلفة مثل سركس وكركت وكركس .

---

(١) يطلق الشراكسة على أنفسهم لفظة الأديغة — بالغين المخففة — ومعناها الإنسان الكامل . وأما اسمهم الذى عرفوا به بين الشعوب ، أى الشراكسة أوالجراكسة ، أو الشركس ، فقد اختلف المؤرخون فى أصله .

فمن قائل إن الذى أطلقه عليهم هم التتر ، وقال غيرهم الروس ، وقال آخرون الفرس والعرب . ولهم فى ذلك تخريجات شتى ، ليس هذا مجال سردها .

وكانت لهم معاملات تجارية مع الفراعنة ، واليونانيين القدماء ، والرومان .

وقد اختلف المؤرخون والرواة فى أصلهم من حيث تقسيم الأجناس البشرية . فمن قائل إنهم من أنسال الحيثيين القدماء ، الذين أنشأوا امبراطورية مترامية الأطراف فى آسيا الصغرى . وقال غيرهم إنهم من سلالة السومريين ، وأرجع البعض الآخر أصولهم إلى قبائل الألمان القوطية . وقد رد الأستاذ جورجي زيدان أصولهم إلى قبائل القرغز التترية ، فى سيبريا[١] . ولكنه لم يقم بعد دليل على يقطع بصحة إحدى هذه النظريات أو سواها .

وفى رأى المؤلف أن مثل هذا البحث يقتضينا سنوات من أعمال الحفر والتنقيب والدراسة العلمية فى بلاد القوقاز نفسها ، قبل أن يستطيع أحد أن يقطع برأى ما فى هذا الموضوع . ولكن ماأجمع عليه علماء اللغات والآثار الذين زاروا بلاد الشراكسة ونقبوا فى آثارهم فى القرنين الثامن والتاسع عشر مثل الأستاذ جورج مونتادون والأستاذ أرثر بيهان[٢] والرحالة فرشفيلد، أن الشراكسة

---

(١) تاريخ مصر الحديث للمرحوم جورجي زيدان — جزء ٢

(٢) قسم البرفسور آرثر بيهان الألمانى فى كتابه «مدنية القوقاز» المطبوع عام ١٩٣٨ الشعوب القوقازية من حيث الأجناس والسلالات إلى ثلاثة أقسام رئيسية ، وهى :

١ — الجنس القوقازى الأبيض ، ومنبت هذا الجنس بلاد القوقاز نفسها، =

من الشعوب القوقازية العريقة ، وسكناهم فى بلادهم الحالية يرجع إلى قرون عديدة قبل الميلاد ، وأنهم من الشعوب الآرية (.الاندو أوروبية) . وهم يستدلون على هذا التعليل بفحص البشرة والعظام، وتحليل اللغة الشركسية ، ومن بعض الآثار التى وجدوها فى بلادهم ويرجع تاريخها إلى ما قبل المسيح بقرون طويلة(٢) .

صفاتهم الخلقية والاجتماعية :

لعل أهم ماتحلى به الشراكسة قديماً وحديثاً الشجاعة المنقطعة النظير ، والكرم المتناهى . ومن أمثالهم القديمة « دار لاضيف فيها لابورك فيها». وهم قوم صادقون ، صريحون إلى أبعدحدودالصراحة، لا يعرف الكذب ولا الرياء سبيلا إلى نفوسهم .

وقد أجمع الرحالة الذين زاروا بلادهم على أنهم من أرقى الشعوب

= ومنه الشراكسة ، والكرج ، والأسانين (القوشحة) .

٢ — الجنس الإندو — أوربى ومنبته شمالىالهند ، ومنهالشيشن واللازجى والأوار .

٣ — الجنس التترى أو التركى ، ومنه : الداغستانيون ، والأذربيجانيون ، والتتر ، والقالموق ، والنوغواى ، وغيرهم . ومنبت هذه السلالة بلاد التركستان وسهول آسيا الوسطى والشرقية .

(٢) يستعمل الشراكسة المقيمون فى روسيا الآن الحروف اللاتينية مع بعض التعديل ، وقد وضعها أصلان بتش نامتوق ، وكان أول استعمالها عام١٩٣١ . وكانوا قبل ذلك التاريخ يكتبون بالحروف العربية ، أو الروسية . كما أن اللغة الشركسية تدرس الآن رسمياً بالمدارس،ويتلق بها الطلبة دروسهم،حتى سن العاشرة.

تقدماً وحضارة . وللمرأة عندهم منزلة رفيعة . فلا تكلف عملا شاقاً ولا يصح ارتكاب جريمة فى حضرة آنسة أو سيدة . كما أنه لو التجأ قاتل أو فار إلى سيدة فهو آمن مادام تحت سقف بيتها .

ويقوم المجتمع الشركسى على احترام الأكبر سناً . فالوالدون تجب لهم الطاعة العمياء . وقد بلغ من احترام الشراكسة لكبرائهم أنهم كانوا يقفون إجلالا إذا ماذكر اسم أحدهم حتى ولو لم يكن حاضراً . وإذا دخل شيخ مسن على أمير وجب على الأمير أن يقف له احتراماً ، ولا يجلس الأمير إلا إذا أذن له الشيخ بالجلوس .

والشراكسة مغرمون بنظافة بيوتهم وترتيبها وتحليتها بالنقوش والأسلحة والطنافس . وقد قال عنهم الرحالة فرشفيلد فى كتابه « رحلة القوقاز » إنهم من أنظف الشعوب التى وقعت عليها عيناه ، ومنازلهم فى حالة دائمة من النظافة والترتيب .

وقد اشتهرت نساء الشراكسة منذ القدم بالجمال المتناهى ، وصفاء البشرة ، وحسن القوام . ولذلك كن قبلة كل راغب فى الزواج من الشعوب المجاورة ، وخصوصاً تركيا . كما اشتهر رجالهم بوسامة الطلعة والذكاء الفطرى (١) .

وبالرغم من سماح الدين الإسلامى الذى يدينون به بتعدد الزوجات

---

(١) تاريخ مصر الحديث للأستاذ جورجي زيدان جزء ٢ .

والطلاق ، إلا أن الشراكسة لم يبيحوا لأنفسهم استعمال هاتين الحريتين . فحددوا الزواج بواحدة ولم يلجأوا إلى الطلاق إلا فى الحالات القصوى النادرة .

ويتخير الشراكسة زوجاتهم عادة بعيداً عن ذوى قرباهم . فهم لايتزوجون بنات الخؤولة أو العمومة إلا فى النادر جداً ، وهم يعتبرون أولئك بمثابة أخوات لهم ومن عائلة واحدة .

وتبيح التقاليد الشركسية للفتاة أن تخالط من تشاء من الشبان الأكفاء ، وكانت لها «مضافة» خاصة تستقبل فيها زوارها . فإذا ما وقع خيارها على أحد الشبان ، تقدم الشاب لخطوبتها من والدها . وتجرى مراسيم العرس بعد ذلك على الطريقة الإسلامية ، وتقام الأفراح مدة سبعة أيام ، يكون العريس خلالها ضيفاً على أحد أصدقائه .

ولا تسمح التقاليد الشركسية مطلقاً بسكنى الصهر مع الزوجة ووالدها فى بيت واحد . كما أن الزوج لايدخل على زوجته نهاراً ، ولا يتناولان طعامهما معاً فى حالة وجود أحد والديه بالمنزل ، إذ كان يتناوله حينئذ مع ضيوفه أو منفرداً فى غرفة الاستقبال .

وكان من عادة الشراكسة أنه عندما يولد لأحدهم مولود، يعهدون فى أمر رضاعته وتربيته لإحدى العائلات ، التى تتولى كافة شؤونه حتى بلوغه التاسعة أو العاشرة من عمره . ويعاد الولد بعد هذه السن

إلى أهله فى مظاهر الترحيب . وتبذل للعائلة التى تربى عندها الطفل أجزل الهدايا . وهذه العادة كانت متبعة بنوع خاص عند الأعيان والنبلاء .

ولا يسمح للأولاد عندالشراكسة بأن يجلسوا فى حضرة والديهم ولا أن يظهروا أمامهم من غير داع أو سبب ، كما كان يحرم على الوالد ملاطفة ابنه وتقبيله ، خصوصاً إذا كان ذلك فى حضرة الجد أو الجدة. ولا ينادى الولد والده بياوالدى أو ماشابه ذلك ، وإنما يكون هذا اللقب من حق الجد إذا كان موجوداً ، باعتباره رأس العائلة ، والمهيمن على شؤونها . وأما الزوجة ، فكانت إذا أرادت أن تشير إلى زوجها أثناء الحديث ، لم تذكر اسمه ، بل أشارت إليه بقولها : أخوكم أو صهركم أو نسيبكم . كذلك الزوج لايذكرزوجته باسمها بل يشير إليها : باختكم .

ومن مفاخرهم القديمة صيانة الأعراض والمحافظة على الشرف والكرامة ، ولهم فى ذلك قول مأثور : «الأرواح رخيصة فى سبيل الشرف » .

وكانت البنت قبل زواجها تعتبر ريحانة الدار وقرة عيون والديها . وإذا كان لها شقيق فكان الواجب يفرض عليه أن يتكفل هو بنفسه باستحضار كل ما يلزمها من ملابس وأدوات الموسيق

والزينة ، ويكون دائما فى خدمتها ويعتبر ذلك شرفاً عظيما له[١].

ومن عاداتهم الجميلة التى تتجلى فيها شدة احترامهم لنسائهم أنه إذا صادف مرور فارس مهما علت درجته وكبر مقامه فى طريق ورأى سيدة سائرة فعليه أن يترجل ويسير بجانبها ماشياً حتى تأذن له باستئناف الركوب . وإذا وقع ذلك خارج القرية ، فيتعين على الفارس أن يرافق السيدة حتى يوصلها بأمان إلى مداخل القرية .

ولو رأى رجل امرأة أو أمة أمام دارها تكسر حطباً (مثلا) فكان يتحتم عليه أن يقوم بالعمل مكانها .

ولم يسمع عن الشراكسة أن رجلا ضرب امرأته أوسبها بألفاظ قاسية قط .

ومكان السيدات فى المجالس كان مقدما دائماً على الرجال ، ولا يجلس الرجل إلا إذا أذنت له بذلك السيدة أو الآنسة[٢].

لباسهم :

وأما لباسهم فقد اشتهر بين كافة شعوب القوقاز حتى أخذه عنهم

---

(١) تاريخ القوقاز للمرحوم عزت باشا الجركسى أمير اللواء بالجيش العثمانى سابقاً . ترجمه إلى العربية المرحوم عبد الحميدبك غالب ، وطبعه بالقاهرة عام ١٩٤٠ .

قارن هذا الوصف بما كان جارياً فى معاملة النساء والبنات عند بعض الشعوب الشرقية والغربية !

(٢) جاءت هذه المعلومات فى كتاب « تاريخ القوقاز » المذكور ، وقد حققناها وتأكدنا من صحتها بحذافيرها .



شركسي بملابسه القومية
(من حرس جلالة الملك عبد الله)
(ملك المملكة الأردنية الهاشمية)

أكثرها ، ويمتاز بطابعه الحربى الرزين . ويتألف من بنطلون و(صاكوه) من الصوف مفتوح من الامام ، يلبس تحته قميص ذو ياقة مرتفعة ، موشاة بالتطريز الدقيق عند العنق . وعلى جانبى الصاكو جيوب للرصاص ، موشاة بالعاج والفضة . وكانوا يتمنطقون بحزام من الجلد ، تتدلى منه القامة (الخنجر الشركسى) ، والسيف والطبنجة . وكانوا يلبسون الأحذية المرتفعة (الجزمة السوارى) ، لركوب الخيل والخوض فى الثلج والمياه ، ويضعون فيها الكرباج الشركسى المشهور . وكانوا يضعون على رؤوسهم غطاء من الجلد يعرف (بالقلبق) ، وقد أخذه عنهم الأرمن والأتراك وبعض رجال الشعوب الشرقية الأخرى .

وأما نساؤهم ، فكن يلبسن الثياب الحريرية الفضفاضة ، والأحزمة الموشاة بالفضة والذهب . ويضعن على رؤوسهن غطاء

من الحرير الرقيق وتحته قبعة مستديرة من الجلد المبطن بالحرير . وكانت الأكمام تتدلى إلى ما تحت أصابع اليد ، وفى نهايتها توشية دقيقة بالقصب ، وأحياناً بالفضة والذهب .

ومما اشتهر عن نساء الشراكسة ، أنهن كن يصنعن كل هذه الملابس بأيديهن ، ويفاخر بعضهن بعضا بدقة صنعها .

دينهم ومعتقداتهم القديمة :

كان الشراكسة القدماء يعبدون آلهة متعددة ، ويقيمون لها الطقوس الدينية فى العراء أو تحت إحدى الأشجار المقدسة . ومن آلهتهم القديمة : إله الحرب وإله الحصاد وإله الريح وإله الحب وإله البحر وإله الصواعق وغيرها .

وفى عهد جوستنيان إمبراطور الرومان انتشرت الديانة المسيحية فى بلاد الشراكسة ، وجاءها كثير من الرهبان والقساوسة الذين أسسوا الكنائس والأديرة . وما زالت بقايا بعض هذه الكنائس قائمة فى بلاد الشراكسة .

وكان أول ظهور الإسلام فى القوقاز عام ٦٠٠ للميلاد على يد المجاهدين العرب ، إلا أن عدد من أسلم كان محدوداً . وفى القرن العاشر أسلم الداغستانيون ، وهم من الشعوب القوقازية ، وتبعهم الكرج وبعض القبائل الشركسية . وبعد استيلاء العثمانيين على

القسطنطينية قويت شوكة الإسلام ، وأرسل الأتراك رسلهم الى شعوب القوقاز للتبشير بالدين الجديد ، كما جاء القوقاز رسل من خانات القرم المسلمين يدعونهم إلى الإســـلام ، فآمن به عدد من الشراكسة . وما إن وافى القرن التاسع عشر حتى كانوا كلهم مسلمين ، باستثناء بعض القبائل البعيدة ، التى بقيت على وثنيتها القديمة المشوبة ببعض التعاليم المسيحية .

قبائلهم ونظامهم الاجتماعى :

كانت تتألف الأمة الشركسية من عدة قبائل كبيرة ، أهمها حسب ترتيب الحروف الهجائية هى : الأبزاخ ، الأبازة ، البسلنى ، البزادوغ ، الحاتقواى، الناتخواج، القبردى ، الشابسوغ، والأوبيخ . وتتكلم هذه القبائل لغة واحدة ، ولو أنها تختلف بعض الاختلاف فى اللهجات ومخارج الأصوات .

وكان المجتمع الشركسى يتألف من أربع طبقات هى :

(١) الأمراء — وهم حكام البلاد فى السلم وقادتها أثناء الحرب (٢) النبلاء — وهم الحكام الحقيقيون وبيدهم تنفيذ الأحكام ومراعاة تطبيق القوانين والعادات الشركسية . (٣) الشعب — وهم طبقة الأحرار والزراع والصناع . (٤) الأتباع — وهم فى الغالب أسرى الحرب ، وإليهم كانت توكل خدمة الأمراء والنبلاء .

وتنتقل الألقاب الرفيعة وراثة من كبير العائلة لأولاده . إلا أنه كان يصح أن يرفع إلى مراتب الأمراء والنبلاء من قاموا بأعمال جليلة أو أظهروا ذكاء وعبقرية خاصة ، أو امتازوا فى المعارك بشجاعة نادرة .

وقد انحل هذا النظام تدريجاً ، حتى انهار نهائياً خلال القرن التاسع عشر للميلاد .

مدنيتهم القديمة :

الشراكسة زراع ماهرون . وقد ساعدهم على ذلك خصب أراضيهم ووفرة المياه . وقد زار بلادهم الرحالة الانجليزى « جيمس بل » عام ١٨٢٦ فوصف حقولهم بأنها تضارع فى تنظيمها وغلتها أحسن حقول يوركشاير بانجلترا . وقد وصف هذا الرحالة كذلك طرقهم الزراعية ، ونظم الزراعات الجبلية ، ومنشآت الرى الهندسية ، مما يعد برهاناً على تقدم أية أمة ، ورقيها الزراعى .

وقد اعتنى الشراكسة القدماء — كذلك — بتربية المواشى ، والنحل ، كما اهتموا ببعض الصناعات الزراعية مثل عمل الجبن والزبدة من الألبان ، واستخراج النبيذ الجيد من العنب . وكانوا يشربون النبيذ بكثرة لتدفئة أجسامهم ووقايتهم من برد بلادهم الشديد.

وقد اشتهر الشراكسة منذ القدم بإتقانهم للصناعات المعدنية ، وصياغة الحلى من الذهب والفضة. والشراكسة ماهرون فى صناعة

النقوش الدقيقة والرسوم الجميلة على الفضة ، وكانوا يوشون بها ملابسهم وأسلحتهم وسروج خيلهم وأحذيتهم .

وبعد اكتشاف البارود ، كانوا يصنعونه بأيديهم من زبل الأغنام . كما كانوا يصنعون الطبنجات والسيوف من الفولاذ .

وقد أثبتت البعثات الأثرية فى بلاد الشراكسة أنهم أول من اخترع إبرة الخياطة من الحديد والبرنز وأمشاط الشعر (١) .

والشراكسة من أول الشعوب التى اكتشفت البرنز واستعملته فى بعض الصناعات المعدنية ، وهناك قول بأنهم أول من اكتشفه (٢) وقد عثر فى بلاد الشراكسة على أوان مصنوعة من البرنز يرجع تاريخها إلى القرن العاشر قبل الميلاد (٣) .

وكان الشراكسة القدماء يستعملون الصحاف والملاعق المصنوعة من الخشب ، أو الخزف الملون ، ثم أخذوا يصنعونها من النحاس والحديد .

وكان الشراكسة يصنعون الكراسى والمناضد بثلاث أرجل فقط ، كما كانوا يصنعون أسرتهم من الخشب . ويرجع استعمالهم للأسرة الخشبية إلى ما قبل خمسمائة عام .

---

(١) تاريخ القوقاز — للمرحوم عزت باشا — ص ٢٤١

(٢) راجع: Antiquity Magazine—Vol. 12 — Sept. 1938

(٣) راجع كتاب : Urgeschichte Kaukasiens
ومؤلفه العالم الألماني Franz Hancär — Berlin 1937

وكانوا يقيمون فى منازل مبنية بالطوب والأخشاب ، لعدم توفر الأحجار فى بلادهم . وسقفها محدودب على شكل السرج (ويقال إن بناء القباب مأخوذ عن السقف الشركسى) ، مقام على أعمدة فى وسط البيت . وكان يتألف المنزل عادة من ٤ إلى ٨ غرف ، ويلحق به إسطبل للخيل والماشية ، ومخزن للحبوب ، ومضافة مسورة فسيحة . وأما بيوت الخلاء فكانت تقام فى مكان منعزل عن المنزل .

وكانت نساء الشراكسة تستعمل حزاماً من الجلد لتنحيف الخصر ، ويقال إن الكورسيه الحديث منشؤه ذلك المشد الذى شاع استعماله فى بلاد الشراكسة وعند بعض الأمم القوقازية الأخرى .

وقد اشتهرت نساء الشراكسة بصناعة المصنوعات القطنية والصوفية كما برعن فى صنع بعض الأدوات من الجلد ، وصناعة القصب والتطريز . وكل من شاهد ملابسهن شهد لهن بالذوق والدقة البالغين .

والشراكسة محبون للموسيقى والغناء . ولهم آلات موسيقية كثيرة أهمها الإكورديون والكمان والمزمار . وقد اشتهرت موسيقاهم فى أنحاء القوقاز وروسيا حتى أخذ عنهم الأخيرون بعض الألحان وسجلوها فى نوتات محفوظة .

وأما فى علم الفلك ، فقد قسموا السنة إلى اثنى عشر شهراً . والشهر إلى أربعة أسابيع ، والأسبوع إلى سبعة أيام . وكانوا يسمون الأشهر بأسماء خاصة لها معان تترجم حالة الجو فى ذلك الشهر .



كان من عادة الشراكسة القدماء إذا تقدم شاب لخطوبة فتاة ، وعارض والدها فى إتمام الزواج لعدم التكافؤ أو غيره من الأسباب ،أن يتفق الشاب مع بعض أصدقائه لخطف الفتاة ، فيأخذونها الى بيت أحد الكبراء ، وعلى هذا الكبير أن يبلغ والد الفتاة بالأمر . فيجتمع كبراء الطرفين ويتفقون على إتمام الزواج حسب المراسيم الشرعية المعتادة .

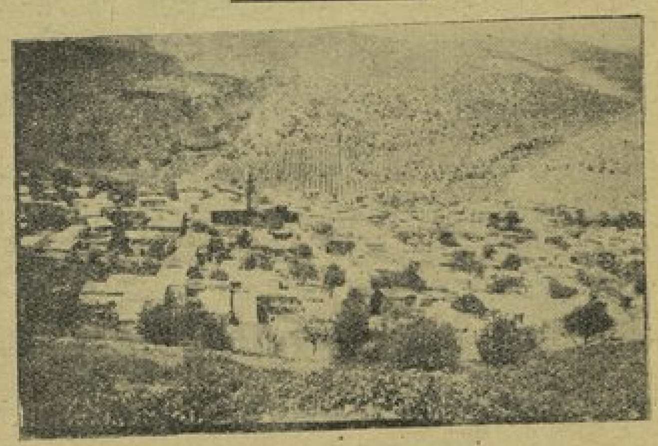
وهذه صورة فارس شركسى ومعه فتاته المخطوفة .

فمثلا ، كانوا يسمون يناير شهر البرد الشديد . ومارس شهر أول الربيع ، وسبتمبر شهر الحصاد ، ونوفمبر شهر التخزين ، الخ .

وكانوا يعتبرون يوم الأربعاء يوماً مشؤوماً ولا يشتغلون فيه، ويسمونه «يوم الوقاية» . ويسمون الأحد «يوم الله» وهو يوم مقدس عندهم ، وبقي كذلك حتى بعد اعتناقهم الإسلام .

وكانت للأجرام السماوية عندهم أسماء مختلفة . وكانوا يطلقون على النجم القطبي اسم «غوازه» ومعناه الدليل، لأنهم كانوا يهتدون به فى سيرهم ليلا .

أما أسلحتهم فكانت عبارة عن الخنجر والسيف والحربة ، ولما ظهرت الأسلحة النارية استعملوها ببراعة فائقة . وكانوا يستوردون الرصاص من انجلترا وتركيا. أما البارود فكانوا يصنعونه فى بلادهم .



قرية «وادى السير» من قرى الشراكسة فى شرق الأردن .

الفصل الثاني

تاريخهم السياسى القديم

تمهيد :

لم يؤسس الشراكسة ملكا وطيد الأركان على ماهو مألوف فى فى البلاد الأخرى ، بل كان نظام الحكم جارياً على طريقة حكم النبلاء (الإقطاع) . ويرأس الحكم فى كل قبيلة أمير تنتخبه مدى الحياة .

وكانت حياتهم منذ القدم سلسلة لاتنقطع من الحروب . فقد كانت بلادهم لخصبها الزراعى والمعدنى هدفاً لكل طامع ، كما أنها — بسبب موقعها الجغرافى بين قارتى آسيا وأوروبا — كانت ممراً للشعوب الزاحفة من الشرق إلى الغرب وبالعكس . ومن ذلك نشأت عند الشراكسة غريزة القتال دفاعاً عن النفس ، وطار صيتهم فى الآفاق لشجاعتهم وصمودهم فى وجه الغزاة منذ فجر التاريخ .

وكانت أول محاولة جدية لغزو بلادهم من قبل ملوك خيوة ، عام ٥٨١ للميلاد . وانتهت هذه الحروب بأن أسر الشراكسة ملك خيوة ، وقطعوا رأسه ووضعوا حوله إطاراً كتب عليه : « هذا جزاء الغاصب لبلاد غيره » .

حروبهم مع التتر :

وجاءت المحاولة الثانية من قبل التتر . إذ أخذ هؤلاء فى مهاجمة القوقاز من الشمال والشمال الشرقى منذ القرن التاسع للميلاد وقامت بين الطرفين حروب متعددة .

الحاج سلطان مراد
من الشخصيات الشيشانية البارزة
فى شرق الأردن ، بالملابس القومية

وقد تمكن التتر بقيادة تيمورلنك من إخضاع كافة الولايات الروسية ، وأحرقوا مدينة موسكو ، وقتلوا من أهلها زهاء المائة ألف نسمة . وأخذ التتر أسرى كثيرين من الشعوب المغلوبة ، وكان بين هؤلاء عدد من الشراكسة وبعض الشعوب القوقازية الأخرى . فقتلوا بعضهم ، وساقوا معهم البعض الآخر ، وهؤلاء انتهوا إلى مصائر شتى .

ومنذ أواخر القرن الثالث عشر للميلاد ، أخذت الولايات الروسية تتحرر الواحدة إثر أخرى ، إلى أن ارتقى عرش موسكو إيفان (يوحنا) الرهيب عام ١٥٢٣ م .

وكان إيفان ملكا طموحاً أراد أن يؤسس إمبراطورية روسية مترامية الأطراف ، فأخضع بعض الولايات المجاورة ، وحالف الولايات الأخرى . وفى عام ١٥٣٩ تزوج إيفان من أميرة شركسية اسمها «ماريا» ، وبذلك وطد علاقته مع الشراكسة ،الذين رغبوا فى ذلك الحلف لكى يستعينوا به فى صد عدوان التتر .

علاقاتهم بروسيا :

وفى العام ١٥٦٦ تمكن يوحنا من احتلال استراخان ، وطرد منها جيوش التتر ، وأقام عليها حاكما أحد أصهاره من الشراكسة . إلا أن هذه المحالفة بين الشراكسة ويوحنا تراخت خيوطها بعد ذلك بعامين ، إذ اتهم يوحنا زوجته الشركسية « ماريا » بمحاولة اغتيال زوجته الأولى ، بأن دست لها السم ، فقتلها ، وسجن أخويها اللذين كانا يعملان فى بلاطه الامبراطورى . وبذلك وجد التتر الفرصة سانحة مرة أخرى لمعاودة الهجوم . فزحفوا على استراخان بقوات كبيرة ، واتجهت قوات أخرى نحو شمال القوقاز آتية من شبه جزيرة القرم ، إلا أن الشراكسة انتصروا هذه المرة بالرغم من خسائرهم الفادحة بالمادة والأرواح .

وقد وجد خانات القرم (وهم من التتر) أن سياسة القوة لم تعد تجدى مع الشراكسة ، خصوصاً بعد أن شعروا بأن روسيا تؤيدهم ، حماية لمصالحها الخاصة ضد العدو المشـــترك ، فعمدوا بعد ذلك

التاريخ ، إلى استعمال الأساليب السياسية اللينة ، وأوعز لهم سلاطين الترك باستانبول بإرسال بعثات دينية تبشيرية لمحاولة إقناع الشراكسة باعتناق الإسلام (إذ كانوا إلى ذلك الحين مازالوا نصارى). وحضر إلى بلاد الشراكسة خان القرم نفسه عام ١٦١٨ م للتفاوض معهم وعقد الصلح . إلا أن الشراكسة لم يتأثروا بهذه المحاولات . ونشبت الحرب بين الطرفين من جديد .

حروبهم مع روسيا :

وفى عام ١٦٨٢ م ارتقى بطرس الأكبر عرش روسيا . وكان اول شىء عمله أن أعلن حمايته على بلاد القوقاز ، وأوعز إلى سفرائه بأن يذيعوا أن الشراكسة روس ، ولذلك فهو يفرض حمايته عليهم .

ولكن الشراكسة شعروا بأنهم حاربوا التتر ليقعوا فى قبضة الروس وأن بطرس الأكبر كان لا يهدف إلى حمايتهم بقدر ما كان يهدف لإنشاء إمبراطورية روسية ضخمة يتربع على عرشها ، وذلك يتطلب حتما الاستيلاء على القوقاز واحتلاله حربياً . فناوأ الشراكسة هذه السياسة الجديدة ، وكانت بعض قبائلهم قد اعتنقت الدين الإسلامى (القبردى هم أول من اعتنق الإسلام) فساعد هذا الأمر على إذكاء نار الكفاح ضد الروس كما ساعد على ذلك أيضاً أن قبائل الداغستان كلها كانت مسلمة .

وبعد وفاة بطرس ، ارتقت عرش روسيا زوجته كاترين ،

واستمرت هذه فى تنفيذ سياسة زوجها فى التوسع والفتح . فحرضت قوادها القوزاق على مهاجمة الشراكسة ومناوشتهم ، واستمرت هذه المناوشات زمنا إلى أن كشفت روسيا عن نياتها رسميا عام ١٧٧٣ إذ أرسلت أول حملة رسمية لإخضاع القوقاز بقيادة الجنرال فوكشانى والجنرال سوفوروف وكانت روسيا مشتبكة فى هذه الأثناء فى حرب مع تركيا . وفى عام ١٧٨٣ أتمت روسيا إخضاع القرم ، وفى العام التالى طلبت تركيا الصلح ، وعقدت معاهدة ٢١ يوليو .

إلا أنه فى عام ١٧٨٧ أرسل هرقل ملك جورجيا إلى كاترين يطلب حماية روسيا ، فأرسلت تركيا إنذاراً إلى كاترين تطلب فيه سحب هذه الحماية ، وألقت بالسفير الروسى فى السجن . فقامت الحرب مرة أخرى بين الدولتين ، وتقهقرت الجيوش الروسية عن أكثر الأماكن التى احتلتها فى الحرب السابقة . وفى هذه الأثناء أعلنت السويد الحرب على روسيا تؤيدها بروسيا وبريطانيا . وانتهت هذه الحروب بمعاهدة ١٤ أغسطس سنة ١٧٩٠ التى أعادت الحالة إلى ما كانت عليه عند إعلان الحرب .

وفى سنة ١٧٩١ احتل الروس قلعة « أنابة » وأخذوا الشيخ منصور ، قائد القلعة ، أسيراً ونفوه إلى سلوفكس حيث قضى آخر أيامه.

وفى ١٧ نوفمبر سنة ١٧٩٦ ماتت كاترين بعد حكم حلىء بالحروب وإهراق الدماء .

وبعد وفاة كاترين ، استمرت الحملات المتفرقة ضد القوقاز ،

واصطلى الشراكسة وسائر شعوب شمال القوقاز نيران هذه الحروب . حتى عام ١٨٥٤ ، إذ أعلنت كل من فرنسا وبريطانيا الحرب على روسيا وتلتهما النمسا . وفى يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٨٥٤ غزت قوات هذه الدول المتحالفة القرم بقوة قدرها ٥٦ ألف مقاتل . وفى هذه الحروب هلكت قوات كبيرة من الفريقين .

وفى ٣٠ مارس عام ١٨٥٦ عقدت الهدنة ، وبموجبها انسحبت روسيا من أكثر البلاد التى احتلتها فى أوربا ، ووافقت على تدمير القلاع المقامة على شواطىء البحر الأسود وضمان حرية الملاحة فى هذا البحر .

إلا أن روسيا لكى تعوض عن خسارتها فى الميدان الأوروبى ، اتجهت مرة أخرى نحو شعوب القوقاز المستضعفة فهاجمتها مرة أخرى واحتلت مدينة قارس (Kars) فى القوقاز يوم ٢٨ نوفمبر عام ١٨٥٦ أى بعد إعلان الهدنة مع الحلفاء ببضعة أشهر . واستمرت قواتها تزحف جنوباً ، وشعوب القوقاز تقاتل هذا الغزو بتصميم وعزم لم يشهد لهما التاريخ مثيلا . إلا أن العدو كان يتدفق من الشمال بكثرة عددية هائلة ، واستعداد حربى تام ، فتوالت الهزائم على الشراكسة وسائر شعوب القوقاز .

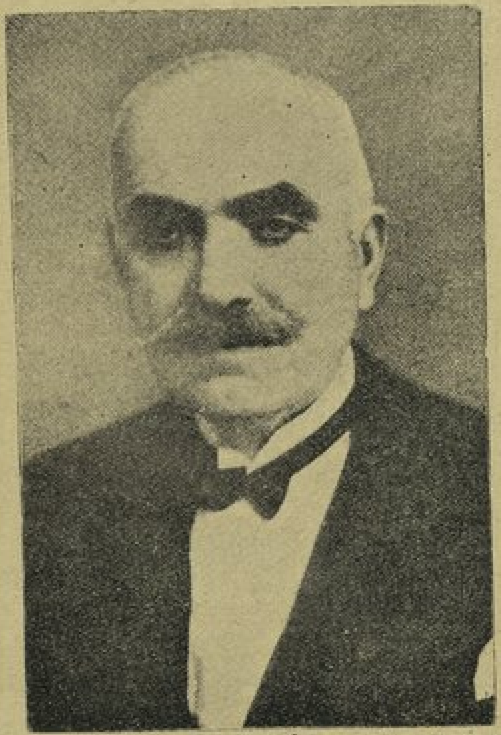
الهجرة :

وفى العام ١٨٦١ زار القيصر اسكندر الثانى جبهة القوقاز ، فقابله

بعض زعماء الشراكسة وطلبوا منه إيقاف القتال . فعرض عليهم القيصر شروطاً تتلخص فيما يلى :

أولا — أن يترك الشراكسة أوطانهم وجبالهم ويقيموا فى الأراضى التى تعينها لهم الحكومة الروسية .

ثانياً — تنتقل الإدارة المدنية إلى حكومة الإمبراطور ، الذى يعين حاكما روسيا للقوقاز له لقب نائب الملك .



الجنرال ميخائيل باشا رئيس أول جمهورية مستقلة فى شمال القوقاز
(١٩١٨ — ١٩٢٢)

رفض الشراكسة هذه الشروط التعسفية وعز على أنفسهم أن يعيشوا أذلاء فى بلادهم وهم الذين تعودوا الحرية وقاتلوا القرون والأعوام فى سبيلها ، فهاجروا إلى تركيا ، وبلاد الشرق الأدنى ، وشجعتهم الحكومة التركية على ذلك ، كما نقل الروس بعض القبائل قسراً على السفن



الزعيم القوقازى المشهور الإمام الشيخ شامل

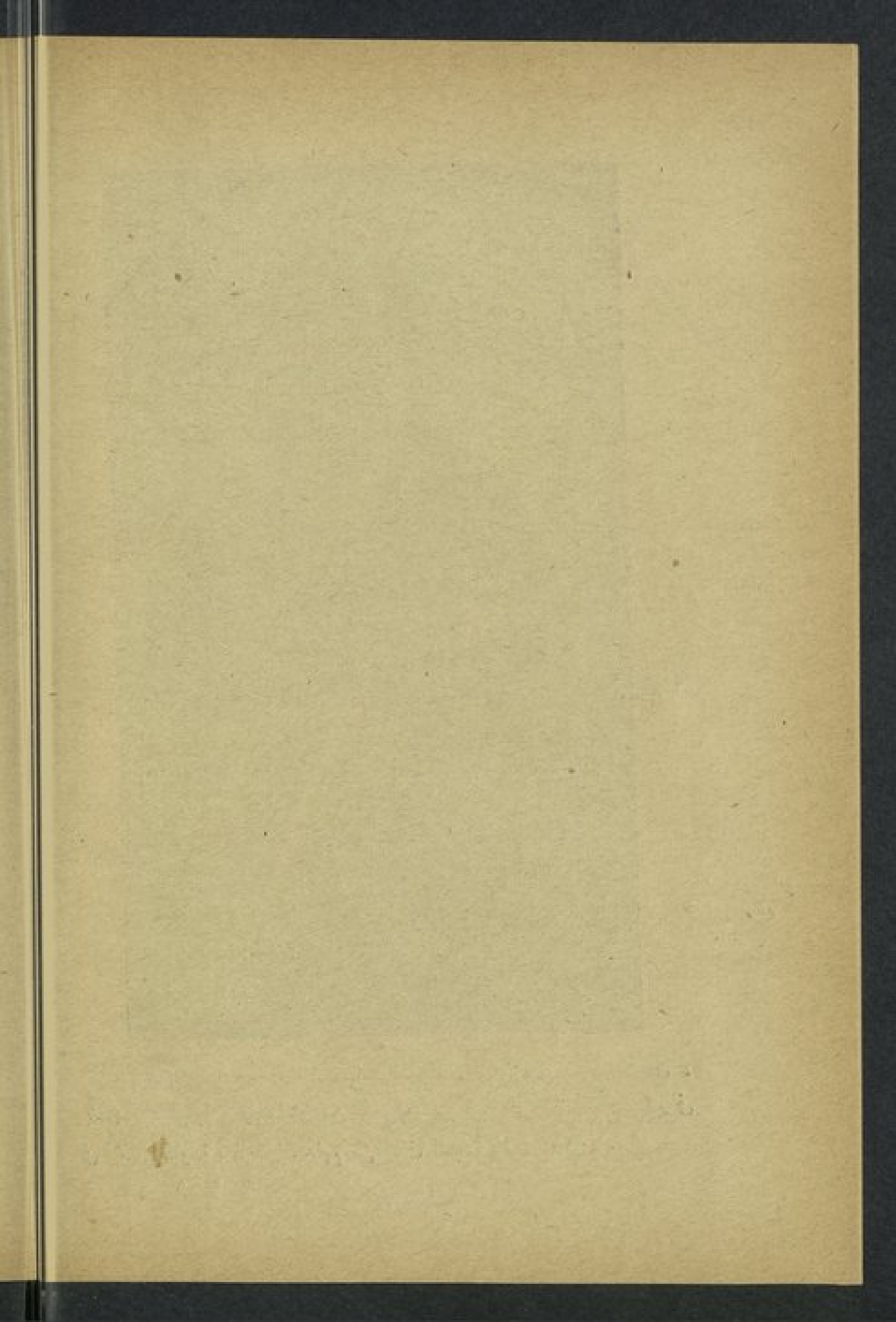
إلى خارج الحدود القوقازية ولم يبق فى القوقاز إلا جزء ضئيل من مجموع الشعب الشركسى لا يزيد على المليون ، وتحولت بلادهم

إلى أطلال وخرائب كنتيجة لهذه الحروب الطاحنة التى دامت أكثر من مائة عام .

وفى أثناء هذه الحروب توحدت الأمم القوقازية فى قتالها ضد الغزاة تحت قيادة الإمام الشيخ شامل الداغستانى الذى أوجد نظاماً إداريا موحداً وحكومة مركزية قوية ، وأنشأ الكتاتيب والمدارس لتعليم القرآن والقراءة والكتابة ومبادئ العلوم ، كما أنشأ المصانع لصنع الأسلحة والبارود . وكان يساعده فى حملاته شراكسة الكوبان تحت إمرة (كراندوق بك) . وكان الشيخ شامل يقود جنوده إلى المعارك بنفسه ، وانتصر فى عدة مواقع إلى أن أسره الروس ونفوه عام ١٨٥٩ بعد أن ناضلهم أكثر من عشرين عاما ، فجاء إلى الحجاز مع ولديه شافع وغازى وتوفى فيه عام ١٨٩١ . وبأسره انتهت الحروب النظامية فى القوقاز .

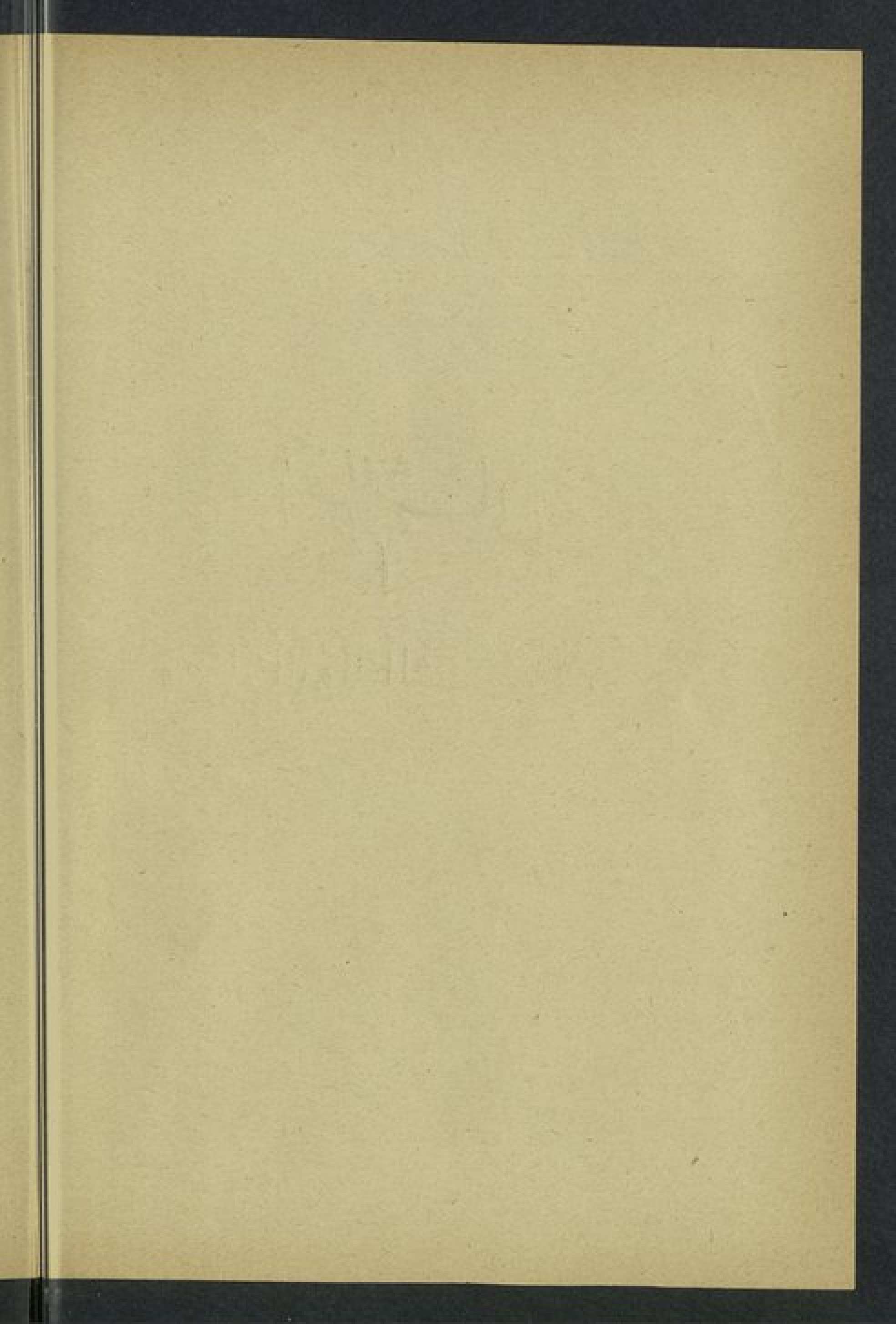


رشيد بك شمالوف من الشخصيات الشيشانيـة البارزة فى شرق الأردن ، بالملابس القومية . والشيشان من الشعوب الشركسية التى كان لها أثر كبير فى فى أعمال المقاومة ، لما عرف عنهم من صدق العزيمة وقوة الشكيمة .



القسم الثاني

قيام الدولة الشركسية في مصر



الفصل الأول

كيف جاء الشراكسة إلى مصر ؟

كيف جاء الشراكسة إلى مصر ؟

هل كانوا أرقاء ، بيعوا في أسواق القاهرة بيع العبيد ؟

وإذا كانوا كذلك ، فكيف تسنى لهم ارتقاء العرش ، وحكم هذه البلاد مدة قرون ؟

لقد نعت المؤرخون — أو أكثرهم — الشراكسة الذين حكموا مصر بالمماليك ، دلالة على أنهم كانوا عبيداً أرقاء ، اشتروا بالمال . وقد استعمل المؤرخون الأجانب لفظة « العبيد » Slaves مثل السر وليم موير فى كتابه «عصر العبيد — أو المماليك — فى مصر» . وفى هذا الوصف كثير من التجنى وسوء التخريج ، كما سنبين ذلك تفصيلا فيما بعد .

يقول الدكتور على ابراهيم حسن فى كتابه «دراسات فى تاريخ المماليك البحرية» ، أنه «يرجع ظهور المماليك فى العالم الإسلامى إلى ما قبل قيام دولتهم بأمد طويل . وربما كان أول من استخدمهم هو الخليفة المأمون العباسى (٨١٣ — ٨٣٣م) ، إذ كان فى بلاطه بعض المماليك المعتوقين. ثم الخليفة المعتصم العباسى (٨٣٣—٨٤٣م) حينما استخدم فريقاً من التركمان لتدعيم سلطته» . وقال أيضا : «وقد

أخذ بمبدأ استخدام المماليك ولاة مصر الإسلامية من الطولونيين إلى الأخشيديين ثم الفاطميين . ذلك أن احمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية قد أكثر من شراء مماليك الديلم سكان جنوب بحر قزوين وبلغت عدتهم أكثر من أربعة وعشرين ألف غلام من الأتراك وأربعين ألف من السود وسبعة آلاف من الأحرار المرتزقة . وكان طولون أبو أحمد من الترك الذين كانوا يقيمون بين تركستان وسيبريا وقد أسر فى بعض الحروب فأهداه نوح بن أسد السامانى إلى الخليفة المامون العباسى نحو سنة ٢٠٠ هجرية فى جملة من الرقيق والهدايا كما كان الشأن فى بلاد ماوراء النهر . ثم تأسست الدولة الأخشيدية (٩٣٥ — ٩٦٩ م) فجعل محمد بن طغج الأخشيد جيشه من الأتراك ومن الديلم . وقد بلغت عدة ذلك الجيش بمصر والشام أربعمائة ألف جندى عدا حرسه الخاص الذى بلغ عدده ثمانية آلاف مملوك . ولما جاء الفاطميون إلى مصر (٩٦٩ م) كانوا فى حاجة إلى جيش كبير يوطد أركان دولتهم ويسهل عليهم ما اعتزموه من مد سلطانهم إلى بلاد الشرق . وكان جيشهم بادىء الأمر مكوناً من المغاربة فأضافوا إليه فى مصر غير أولئك من أتراك وأكراد وغز وديلم ومصامدة (نسبة إلى مصمودة قبيلة من البربر بالمغرب) . ولما انتقلت السلطة إلى الأيوبيين (١١٧١ م) نهجوا نفس تلك السبيل وأكثروا من شراء المماليك الترك وبنيت لهم الشكنات بجزيرة الروضة ، وأطلق

عليهم اسم المماليك البحرية . وأتيح لهم بعد ذلك أن يتولوا الحكم في مصر .

« وكانت الغالبية العظمى لجماعات المماليك الذين جلبهم الأيوبيون وسلاطين المماليك من بعدهم فى مصر من شبه جزيرة القرم وبلاد القوقاز والقفجاق وآسيا الصغرى وفارس وتركستان وبلاد ما وراء النهر ، فكانوا خليطاً من الأتراك والشراكسة والروم والروس والأكراد فضلا عن أقلية من مختلف البلاد الأوروبية » .

وقال : « ولم تكن تجارة المماليك مقصورة على الشرق الاوسط ومصر ، بل امتد نطاقها إلى اوروبا حيث قامت تجارة المماليك بصورة واضحة . ويقال إن التجار الأوروبيين كانوا يجلبون إلى مصر كل عام نحو ألفين تقريباً من المغول والشراكسة والروم والألبانيين والصقالبة والصرب ، كما كان الترك يرسلون بعض أسراهم المجر إلى أسواق الرقيق فى مصر ليشتريهم المماليك » .

وفى الصفحة ٣٤ من الكتاب المذكور يقول الدكتور على ابراهيم حسن مايلى : « وقد أنشأ السلطان قلاوون فرقة جديدة من المماليك من الأرمن والجركس وأطلق عليها اسم « البرجية » نسبة إلى ابراج قلعة الجبل التى أقاموا بها . وعرفت تلك الطائفة باسم « الشراكسة » أيضاً وبلغ عددها ثلاثة آلاف وسبعمائة مملوك »(١).

---

(١) وفى كتاب تاريخ مصر الحديث للمرحوم جورجى زيدان أن عددهم بلغ نحواً من ١٢ ألفاً .

والسلطان قلاوون المذكور من سلاطين الدولة البحرية (الأتراك)، وقد حكم من سنة ١٢٧٩ — ١٢٨٩ للميلاد.

يتبين مما تقدم، أن (المماليك) الذين استخدمهم العباسيون ومن بعدهم الطولونيون والأخشيديون والفاطميون كانوا من الترك والتتر والأكراد وغيرهم. وأول ذكر للشراكسة كان فى العصر الأيوبى وعصر السلطان قلاوون وفرقته الجديدة التى أنشأها من الأرمن والجركس، خلال الأعوام المذكورة من حكمه.

والسؤال الذى يتبادر إلى الذهن الآن هو: كيف حصل السلطان قلاوون وخلفاؤه من بعده على هؤلاء (المماليك) الجدد؟ هل اشتروهم بالمال من سوق النخاسة؟ هل كانوا من الجنود المرتزقة؟ أم استقدموهم من بلادهم للخدمة فى الجيش؟

ويجيب على هذ السؤال النويرى فى كتابه «نهاية الأرب» بقوله: «وفى سنة ٧١١هـ عادت رسل الملك الناصر محمد بن قلاوون من عند الملك طقطاى (ملك بلاد القفجق والجركس بالقوقاز) فاعترضهم الفرنج فى ربيع الأول وأسروهم جميعهم، وكانوا هم واتباعهم وعلماؤهم نحو ستين نفراً، ومروا بهم على البلاد الساحلية وقصدوا بيعهم ووصلوا إلى طرابلس الشام وعرضوهم للبيع واشتطوا فى الثمن وحلفوا أن لا يأخذوا فى ثمنهم إلا ستين ألف دينار عينا، فلم يشترهم أحد. ثم توجهوا بهم إلى اياس وعرضوهم على صاحب «سيس»

(قرية بالسواحل الشامية) بهذا الثمن فامتنع ان يبتاعهم ، ثم توجهوا بهم إلى جزيرة المصطكى .

« فبلغ السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ذلك ، فأمر بالقبض على تجار الفرنج الذين بثغر الاسكندرية والحوطة على أموالهم . والتزم أن لا يطلقهم ولا يفرج عن أموالهم إلا بعد حضور رسله . فخرج شكران الجنوى التاجر متوجها إلى جزيرة المصطكى وخلصهم وأرسلهم إلى الديار المصرية . وكان وصولهم إلى مصر بين يدى السلطان فى سادس عشر ربيع الأول سنة ٧١٢ هـ » .

وجاء فى الكتاب المذكور أيضاً ما يلى : « وفى سنة ٧١٣ هـ . وصلت رسل أوزبك خان إلى أبواب مولانا السلطان الملك الناصر سلطان الديار المصرية والبلاد الشامية وكان وصولهم فى ذى الحجة سنة ٧٤٣ هـ ، وصحبتهم من التقادم لمولانا السلطان ما لم تجر بمثله عادة . وكان فى جملة رسالته انه يهنىء مولانا السلطان الملك الناصر باتصال الإسلام من الصين إلى أقصى بلاد المغرب ، وقال انه قد بقى فى مملكته طائفة على غير دين الإسلام . فلما ملك ، خيرهم بين الدخول فى دين الاسلام أو الحرب فامتنعوا وقاتلوا ، فأوقع بهم وهزمهم وجهز إلى مولانا السلطان عدة من سباياهم » .

وهذا النص يدلنا على معنى صريح واضح : وهو أن الملك قلاوون تعمد إرسال رسله إلى بلاد القوقاز وبلاد القفجق — وتشمل حوض الفولجا والبلاد الواقعة حول بحر قزوين — لإقناع أهل

تلك البلاد — وهم من جنسه — بالانضمام إلى جيشه والتطوع فى خدمته . إذ أنه لو أراد الشراء لما تكلف إرسال الرسل والسفراء إلى تلك البلاد النائية ، ولما حاول الاتصال بمليكها وملاطفته .

ولو عدنا إلى القسم السابق من الكتاب ، لوجدنا أن الشراكسة كانوا خلال هذه الأعوام فى حروب مستمرة مع التتر . وقد جرت عادة العصر أن يتصرف الغالب بالأسرى وسبايا الحرب كما يشاء سواء بالقتل أو البيع أو الخدمة ، وهذا يطابق تماماً ما جاء فى الاقتباس السابق عن نهاية الأرب للنويرى ، (وقد جاء مثل هذا الكلام فى عقد الجمان للعينى) من أن الملك اوزبك خان أرسل بعض السبايا هدية إلى الملك قلاوون ، وكان هؤلاء السبايا خليطاً من الشعوب القوقازية والتركية ، وبينهم عدد من الشراكسة .

ويؤيد هذا المعنى ماجاء فى كتاب المسالك لابن العمرى إذ قال : « وهم (أى التتر) مع استيلائهم على جيوش الجركس والروس والماجار والآص يختلس تلك الطوائف أولاد هؤلاء ويبيعونهم من التجار » .

ولم يفت هذا المعنى ابن خلدون « المؤرخ العربى الشهير ، فقد كتب فى تاريخه الجزء الخامس أنه كان « يخرج بهم التجار إلى مصر ارسالا كالقطا نحو الموارد ، فيستعرضهم أهل الملك منهم ويتنافسون فى أثمانهم بما يخرج عن القيمة لا بقصد الاستعباد إنما

هو اكثاف للعصبية ونزوع إلى العصبة الحامية ، يصطفون من كل منهم بما يؤنسونه من شيم قومهم وعشائرهم ثم ينزلونهم فى غرف الملك ويأخذونهم بالمخالصة ومعاهد التربية ومدارسة القرآن وممارسة التعليم حتى يشتدوا فى ذلك ثم يعرضونهم على الرمى والثقافة وركض الخيل فى الميادين والمطاعنة بالرماح والمماصعة بالسيوف حتى تشتد منهم السواعد وتستحكم فيهم الملكات ويستيقنوا منهم المدافعة عنهم والاستماتة دونهم ، فاذا بلغوا إلى هذا الحد ضاعفوا أرزاقهم ووفروا من أقطاعهم وفرضوا عليهم استجادة السلاح وارتباط الخيول والاستكثار من أجناسهم لمثل هذا القصد . وربما عمروا بهم خطط الملك ودرجوهم فى مراتب الدولة فيسترشح من استرشح منهم لاقتعاد كرسى السلطان والقيام بأمور المسلمين عناية من الله سابقة ولطائف فى خلقه سارية . فلا يزال نشو منهم يردف نشواً وجيل يعقب جيلا والإسلام يبتهج بما يحصل من الغنا ، والدولة ترف أغصانها فى نضرة الشباب » .

فهل يتبين القارىء من هذا الكلام معنى الرق كما رمى اليه المؤلفون والمؤرخون ؟! لقد استبعد المؤرخ الكبير ابن خلدون فى عبارته السابقة قصد الاستعباد من استجلاب الشراكسة إلى مصر فيبقى أن الشراكسة قد أتوا مصر بإحدى حالتين كما بينا : الأولى — بدعوة من السلاطين المصريين للخدمة فى الجيش تعضيداً لقوتهم ، ولحاجتهم لتغذية جيوشهم بدم جديد قوى . والثانية — أنهم كانوا أسرى

حرب بيد التتر الذين غزوا بلادهم وسبوا فتياتهم ونساءهم[١]، فافتداهم سلاطين مصر بحكم الرابطة الدينية والجنسية التي كانت تجمع بينهم، إذ كان أكثر سلاطين مصر البحرية يمتون إلى شعوب القوقاز بصلة.

وقد اختلط الأمر على أكثر المؤرخين، فسموا الفدية «شراء»، ونعتوا هؤلاء الأسرى والسبايا بالمماليك — أو العبيد، مع أن الشرع الإسلامى الذى يدينون به، لايجيز تلك التسمية. كما لا يجيز الرق على مسلم.

وقد حدد ابن خلدون فى الجزء الخامس من كتابه «تاريخ ابن خلدون» الذين كانوا يستعرضون أولئك الأسرى والمجلوبين الجدد بأنهم كانوا «أهل الملك»، وأضاف أن ذلك لم يكن بقصد الاستعباد، «انما هو اكثاف للعصبية واعداد للإمارة والقيادة والسلطنة».

وهذا يؤكد قولنا بأن سلاطين مصر كانوا (يفتدون) أولئك الأسرى، ويعدونهم لأعلى مراتب الملك والصدارة. وقد ورد مثل هذا الكلام فى خطط المقريزى و «المنهل الصافى» ليوسف ابن تغرى، فى ترجمة الملك قلاوون، إذ يقولان انه كان مغرما بجمع المال وافتداء «المماليك» أى فكاكهم من الأسر.

وفى كتاب حسن المحاضرة للسيوطى قوله: «وفى سنة ٧١٩ هـ رسم السلطان الملك الناصر بإبطال الرقيق، وأن لايباع مملوك لكاتب ولا لعامى». فهل يعقل أن الذين أبطلوا الرق، يعمدون إلى استرقاق بنى جلدتهم؟

* * *

ولعله من المتناقضات فى الكلام عن «المماليك» اتهامهم بالعبودية

ثم القول بأنهم « عاشوا أثناء حكمهم لمصر كطائفة منفصلة عما حوالها واحتفظوا بشخصيتهم ولم يختلطوا بأى عنصر من عناصر السكان المصرية ، سواء فى ذلك الأقباط والمسلمين ، ولم يسمحوا لسكان مصر أو أى جزء من أجزاء ممتلكاتهم بالانخراط فى صفوفهم ولم يتزوجوا منهم إلا فيما ندر . وقصروا أعمال الجندية على أشخاصهم وذهبوا إلى مدى أبعد من ذلك ، حيث اشترطوا الا ينخرط فى سلك المماليك الحربية الا ما يستوردونه من جديد . أما أهل مصر فكانوا فى عصر المماليك يتولون وظائف القلم ، ولم يكن لهم نصيب فى الجيش العامل ، اللهم إلا فى بعض الاعمال غير العسكرية كأعمال الأئمة والصناع والاتباع .

« وبذلك يمكن القول بأن مماليك مصر لم يختلطوا بأهلها بل ظلوا بمعزل عنهم محتفظين بجنسيتهم وعاداتهم . وهذه العزلة والترفع انفرد بها المماليك حتى صارا من أخص مميزاتهم . ولم يكن زواج بعض المماليك من بنات القضاة وكبراء المسلمين فى القاهرة داعياً إلى تغيير عادة العزلة فيهم وحثهم على الاختلاط بغيرهم . ولعل هذا كان ترفعاً منهم على أهل البلاد المحكومين، ومحافظة على الأرستقراطية التى تؤهل للعرش بدون نظر إلى اختلاف أصول أفرادها وما مروا به من رق وعبودية » . (١)

---

(١) الدكتور على ابراهيم حسن فى كتابه دراسات فى تاريخ المماليك البحرية

ولست أدرى كيف يكون من كانت لهم هذه الصفات « مماليكاً » ، وكيف يمكن أن نوفق بين القول بأنهم كانوا عبيداً أرقاء بينما هم لم يسمحوا لأنفسهم بالتزاوج مع أهل البلاد أو الاختلاط بهم . وكيف أمكنهم أن يفعلوا ذلك « محافظة على الأرستقراطية » إذا هم كانوا ، كما وصفهم الكاتب المذكور ، وغيره ، — من العبيد والأرقاء ؟ . .

هل حدث مثل هذا فى تاريخ الرق فى أى بلد من بلاد العالم ؟ !

وهل استطاع الرقيق يوماً من الأيام أن يعزل نفسه مثل تلك العزلة التامة ، ويعيش فى أرستقراطيه مهيبة ، كما كان يعيش الشراكسة وملوكهم ؟!

هل كان يمكن أن يكونوا رقيقاً بالمعنى الذى رمى إليه المؤلفون والكتاب ، وهم الذين لم يسمحوا المصريين أو سكان أى جزء من أجزاء مملكتهم بالانخراط فى صفوفهم والامتزاج معهم ؟!

° ° °

ولو عدنا إلى كتاب « تاريخ المماليك » للسر وليم موير ، لوجدناه يعطينا سبباً آخر لمجيئهم إلى مصر . ففى ذلك الكتاب يقول المؤلف إنهم « استدعوا » (Summoned) لتأييد الخلافة العباسية وحمايتها من طبقة العبيد التى كانت آخذة فى القوة والانتشار ، وكانت هذه الطبقة تتألف من أجناس مختلفة من البربر والسودانيين والأكراد والتتر وغيرهم . فدخلوا جيوش الخلافة العباسية جنوداً أحراراً مرتزقة . ويؤيد هذا الكلام المقريزى فى كتابه (الخطط) جزء ١ ، كما

يؤيده الأستاذ احمد حافظ عوض بك فى كتابه «فتح مصر الحديث» صفحة ٦ حيث قال : «إنه لم يكن الرق الذى ينسبونه إلى المماليك إلا كلمة لا معنى لها» .

وقد فصل ابن خلدون كيفية استيلاء المغول على اللان والقبجق فى الصفحة ١١٤ من المجلد الخامس من تاريخه «العبر» ، وكذلك ابن الأثير فى «الكامل» جزء ١٢ ص ١٥٩ ، بما خلاصته أن الأيوبيين كانوا يأبون السماح بدخول المنهزمين عن المغول من الغز والتركمان إلى بلادهم . ولكن أصحاب الحكم فى الدولة الأيوبية كانوا قد فتحوا باب الدخول إلى مملكتهم على مصراعيه للقوقازيين من اللان والقبجق وغيرهما ممن يشملهم اسم الجركس .

وفى ذلك يقول صاحب «المزارات الإسلامية والآثار العربية» جزء ٤ : «فإذا علمت أن أصل الأيوبيين من دوين قرب تفليس بالقوقاز ، وأن رئيس الفرقة الأسدية فى الدولة الأيوبية هو أياز كوج القوقاسى ، كما إن رئيس الفرقة الصلاحية هو فخر الدين أياز الجركسى القوقاسى أيضاً ، علمت سر السماح لهم دون الآخرين ، لأن آل أيوب كانوا على علم من مبلغ بسالة القوقاسيين وأمانتهم حتى جعلوا قيادة أسد الدين شيركوه وقيادة جنود صلاح الدين بيد قائدين قوقاسيين . وهذا ما دعاهم إلى الاستكثار منهم» .

وهناك سبب آخر يؤيد حجتنا أيما تأييد . فلو سلمنا جدلا بأن

الشراكسة كانوا أرقاء يجلبون من بلادهم لبيعهم فى أسواق النخاسة ، فما هو الداعى لأن يختار النخاسون مصر بالذات من دون بلاد العالم لتصريف بضاعتهم البشرية ؟ يرد الدكتور على ابراهيم حسن على هذا السؤال فى كتابه « دراسات فى تاريخ المماليك البحرية » بقوله إن تجارة المماليك لم تكن مقصورة على بلاد الشرق الأوسط ومصر ، بل امتد نطاقها إلى أوروبا حيث قامت تجارة المماليك بصورة واضحة . فهل يستطيع الدكتور حسن أو غيره من الكتاب الأفاضل أن يبينوا لنا كيف ظهر هؤلاء الأرقاء فى مصر إذن وبرزوا على أهلها حتى استولوا على مقاليد السلطنة ، ولم يظهر لهم أى أثر ما فى أوروبا ؟ وهل هناك مستند على يؤكد حقيقة أن (مماليك) الترك والشراكسة بيعوا فى أوروبا ، واقتناهم أهلها ؟ إن هذا الأمر لم يدعيه بعد أحد من العلماء والمؤرخين الثقات ، وعلى ذلك فإنه يجب أن يكون هناك تفسير على منطق لاختيار مصر لإحضار تلك الأجناس بالذات إليها . وقد يجيب البعض على ذلك بقوله إن ذلك عائد إلى أن القاهرة كانت من أهم أسواق الرقيق فى العالم . فإذا كانت كذلك ، فلماذا اقتصر (شراؤهم) على السلاطين من دون سائر طبقات الشعب ؟ ! ألا يدعونا جواب هذا السؤال الى إقرار النتيجة المنطقية الوحيدة ، التى ذكرناها سابقاً ، وهى أن الشراكسة لم يكونوا رقيقاً فى يوم من الأيام بل كانوا أسرى حرب يفتديهم زملاؤهم بالمال ويعتقونهم ، وأن لفظ (المماليك) أطلق عليهم خطأ من قبل بعض المؤرخين

الذين عاصروهم ، فغلبت عليهم تلك الصفة وهم منها براء ، وجرت عليها أقلام الكتاب بعد ذلك حتى عصرنا هذا بلا ترو ولا تمحيص ؟!

بل إن المؤلم أن هؤلاء الكتاب لم يكتفوا بذلك ، بل حاولوا الحط من قدر سلاطينهم وأمرائهم فى أكثر كتاباتهم بأن عرضوا بأصلهم « الوضيع » ، و « ما مروا به من رق وعبودية » ، فأضافوا بذلك إلى جانب الخطأ العلمى الذى ارتكبوه خطأ آخر مقصوداً ، هدفهم منه التشهير والحط من قدر أولئك الرجال الذين كانوا يوما من الأيام سادة هذه البلاد وحكامها .

وإنك لو راجعت تاريخ الجبرتى لوجدته يستعمل لفظة الملوك بدل « المماليك » عند الكلام عن سلاطين الشراكسة ، وفى كلامه عن البكوات (بعد الفتح العثمانى) كان يشير إليهم بقوله « الأمراء المصرية » . وهذا عين الصواب ، من مؤرخ مشهور عرف بالدقة والنزاهة .

وختاماً لهذا الفصل ، ننقل فيما يلى كلمة كتبها الأستاذ العلامة الشيخ محمد زاهد بن الحسن الكوثرى وكيل مشيخة الاسلام فى تركيا سابقاً ، تعليقاً على موضوع جلب الشراكسة إلى مصر فى الجزء الرابع من كتاب « المزارات الاسلامية والآثار العربية » لمؤلفه الأستاذ حسن قاسم . قال :

« والظاهر مما تقدم أن جلب هؤلاء الجراكسة إلى مصر كان للتجنيد وحراسة البلاد لا للخدمة . والمملوك هو الأبيض كما نص

عليه الخفاجي فى شفاء العليل ، والعبد هو الزنجي أو الحبشي . وأنت ترى كثيراً من الأجانب يسمون دولة القوقاسيين بمصر « دولة المماليك » وسايرهم أناس من الوطنيين وأحفادهم فى هذه التسمية . أما الأجانب فلهم أغراض فى هذا التلقيب حيث كانوا يحملون بين ضلوعهم أضغان حروب حالت دون وصولهم إلى آمالهم فى استملاك الشرق — وأما من سايرهم من الذين سبق ذكرهم فى هذه التسمية فقد آذى نفسه قبل إيذائهم لأن من يكون تحت حكم المماليك يكون أنزل منزلة منهم . فيكون من لقبهم بذلك اللقب ، انتقاصاً لهم من الذين كانوا هم وآباؤهم تحت حكمهم ، قد سب نفسه قبل أن يسبهم . على أنه لم يتول «مملوك» الملك أصلا بمبايعة أهل الحل والعقد قبل فكاك رقبته ، فيكون إطلاق « المماليك » على ملوكهم كذباً صريحاً بالنظر إلى حالتهم عند توليهم الملك . والمجاز باعتبار ما كان إنما يصح فى بعضهم لو قامت قرينة تصرف عن الحقيقة ونكتة ترجح المجاز غير قصد الشتيمة التى لاتبيحها الشريعة الاسلامية ولا يستسيغها الخلق الكريم . وأما حكاية سعي العز بن عبد السلام فلم تكن إلا فى أشخاص معينين من الاتراك استخدموا فى وظائف حكومية قبل فكاك رقبتهم فى عهد المظفر قطز الخوارزمى ،فيكون «العز» قد مهد السبيل لإعتاقهم على تقدير صحة الحكاية ،على أن راوى الحكاية عنه يقول : إنه كان يأمر الريح فتقف وتهيج ، فمن الذى يستطيع أن يعاكس رأى مثله كائناً ما كان رأيه ؟! نعم إنه قد يوجد

بينهم من مسه الرق فى أوائل حاله، لكن قد علم الباحثون أن بيعهم فى الأوائل ، انما كان باستيلاء كفار المغول على بلادهم .

« وأسير الحرب إذا بيع كما هو الجارى فى تلك العصور ، لايدل هذا على أنه غير أصيل ، بل يدل على أنه وطنى صميم ، عانى كل شقاء فى سبيل الدفاع عن بلاده . وقد استمر ملوكهم بمصر على إخلاصهم لبنى قومهم فى الأسر فى مختلف الدول ، واستجلابهم إلى مصر بدفع أثمان باهظة للمستحوذين عليهم فداء ، فليسمهم أصحاب القلوب القاسية « مماليكا » لهذا السبب إن شاءوا !!

« وبعد أن استقر ملكهم بمصر ، كانوا يسعون فى جلب الصغار من بنى قومهم القوقاسيين ببعث تجار يجلبونهم من هناك ، وما كان يخطر ببال الجالب ولا ببال المجلوب يوما أن ذلك لأجل الاستعباد.

« نعم، لاينكر أن أناساً من الظلمة ، ولاسيما فى جهات (القرم) التى كانت تحت حكم المغول (التتر) إذ ذاك ، كانوا يخطفون الأولاد الاحرار كلما سنحت لهم فرصة ويبيعونهم بيع الأسرى ، فيجلبون إلى مصر، وينالون العز بعد الذل كما وقع لسيدنا يوسف عليه السلام. وليس فى هذا وصمة للمخطوف المسكين ، بل المجرم كل الإجرام هو الخاطف المتوحش .

« وأختتم الكلام هنا بذكر أنموذج عن كيفية جلب الجراكسة إلى مصر فى عهد الدولة البرجية ، وقد قاله أبو حامد المقدسى فى

واخر كتابه «دول الاسلام الشريفة» (١) نقلا عن بعض أساتذة الطباق (٢) ، قال :

«ومولانا السلطان الآن يسمع بان فلانا وصل من جركس فيرسل نائبه إلى بلاد حلب لملاقاته بفرس بسرج ذهب وكنبوش وكاملية طرش ، ويقف النائب فى خدمته وكذا كل من مر عليه ، بل ومن حين وصوله يعمل خاصكياً قبل أن يقلع قماش الأجلاب ، فما يرى نفسه إلا ملكا لامملوكا» . ا.هـ.

هذا كلام صريح يؤيد ماذهبنا اليه فى هذا الفصل ، وأرجو أن أكون قد وفقت فى إزالة هـذه الوصمة التى ألحقت بهؤلاء الملوك العظام ظلما وبغيا .

---

(١) هو أبو حامد محمد بن خليل بن يوسف المقدسى ، توفى بالقاهرة سنة ٨٨٨هـ وكتابه من المخطوطات النادرة .

(٢) أكبر كلية حربية في مصر فى ذلك العصر .

الفصل الثاني

قيام الدولة الشركسية فى مصر

(٧٨٤ — ٩٢٣ هـ أو ١٣٨٢ — ١٥١٧ م)

نظرة إلى الوراء :

فتح العرب مصر سنة ١٩ هـ (٦٤٠ م) أثناء خلافة عمر بن الخطاب ، على يد القائد عمرو بن العاص . وكانت قبل ذلك التاريخ إيالة رومانية . وأصبحت منذ ذلك الحين تابعة للخلافة الاسلامية العربية . وقد تتابع على مصر ولاة يحكمونها باسم الخلفاء ، حتى عام ٢٦٩ هـ ، حين استقل بإدارتها وحكمها أحمد بن طولون ، المعين والياً عليها من قبل الخليفة العباسى ببغداد . وبذلك تأسست فى مصر الدولة الطولونية .

إلا أن هذه الدولة لم تدم طويلا ، إذ سرعان ما عادت مصر إلى قبضة الخلفاء العباسيين (عام ٢٩٣ هـ) . وظل الحال كذلك حتى عام ٣٢٤ هـ (٩٣٥ م) حين ولى عليها الأمير محمد بن طغج الاخشيد (وهو تركى) ، فاستقل بإدارة البلاد ، وضمت الى إمارته مكة والمدينة . وجاء بعده كافور ، وبعد موته انحلت الدولة الجديدة ودبت الفتنة فى البلاد ، إلى أن فتحها جوهر الصقلى عام ٣٥٨ هـ زاحفا من بلاد المغرب حيث كان للفاطميين (وهم يدعون الانتساب

إلى فاطمة الزهراء ومذهبهم من الشيعة) دولة قائمة عاصمتها (القيروان). وبعد فتحها انتقل اليها ملوك الفاطميين ، وجعلوا القاهرة عاصمة ملكهم وسموها بالمعزية نسبة إلى المعز لدين الله الفاطمى مؤسس الدولة الجديدة . وهم الذين أسسوا الجامع الأزهر لنشر الدعوة الفاطمية ، ومن ملوكهم الحاكم بأمر الله الذى ادعى الألوهية (٣٨٦ — ٤١١ هـ أو ٩٩٦ — ١٠٢٠ م) ، واختلف الرواة فى قصة موته أو اختفائه . ويدعى الدروز أن الحاكم هو المهدى المنتظر، ويقولون إنه سيعود متى زالت المفاسد واختفت الشرور من العالم .

وقد دبت الفوضى فى أواخر أيام هذه الدولة ، إلى أن استولى على مقاليد الحكم صلاح الدين الأيوبى الكردى معيناً من قبل الخليفة العباسى للقضاء على الفاطميين ومذهب الشيعة . وقد منحه الخليفة العباسى إثر توفيقه فى القضاء على الفاطميين ثم الصليبيين لقب «سلطان» وبذلك تأسست فى مصر دولة جديدة هى الدولة الأيوبية (٥٦٧ — ٦٤٨ هـ أو ١١٧١ — ١٢٥٠ م) .

ومن ملوك هذه الدولة السلطان الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧ — ٦٤٧ هـ أو ١٢٤٠ — ١٢٤٩ م) . وفى أيامه تمردت فرق من الجيش ، فاستجلب عدداً كبيراً من الأتراك ، وأحلهم فى أرفع منزلة . وقد تزوج واحدة منهم هى شجرة الدر[1]. وهى التى تولت العرش بعد قتل ابن زوجها ، توران شاه ، وحكمت مدة ثمانين يوماً تخللتها

---

(١) وفى بعض الروايات أن شجرة الدر أرمنية الأصل ، كما إن بعض الروايات الأخرى تنسبها الى أصل شركسى .

مؤامرات ودسائس كثيرة . فتزوجت من « أيبك » التركمانى وعينته قائداً للجيش ، ثم تنازلت له عن العرش . وبعد تنازلها حاول أن يتزوج بغيرها فدبرت قتله ، وحاولت أن تتزوج غيره وتقيمه على الملك ، ولكنها فشلت هذه المرة ، وتعين سلطانا على بن أيبك ولم يكن عمره يتجاوز الحادية عشرة . وأول شىء عمله أن أمر بقتل شجرة الدر انتقاماً لأبيه ، فماتت ضرباً بالقباقيب .

وباعتلاء أيبك العرش (سنة ٦٤٨ هـ — ١٢٥٠ م) تأسست فى مصر دولة الأتراك البحرية — وهى المعروفة فى التاريخ باسم « دولة المماليك البحرية » . ويعتبر بعض المؤرخين تاريخ اعتلاء شجرة الدر العرش بداءة هذا العصر .

***

استمر ملوك هذه الدولة يبسطون سلطانهم على مصر مدة ١٣٦ عاماً ، وظهر من بينهم سلاطين عظام ، مثل الظاهر ركن الدين بيبرس (٦٥٨ — ٦٧٦ هـ أو ١٢٦٠ — ١٢٧٩ م) ، الذى اجتمعت فيه صفات العدل والشجاعة وحسن السياسة . وبعض المؤرخين يعده مؤسس هذه الدولة الفعلى ، اذ نظم الحكم ، وشؤون المال والإدارة ، وبسط الأمن ، كما حارب الصليبيين وغلبهم فى جميع المواقع ، وقاد بنفسه جيوشه لمحاربة التتار عند اغارتها على بلاد الشام . واليه يعود الفضل كذلك فى إعادة انشاء الأسطول المصرى وتقويته(١) .

---

(١) وصفه الأستاذ جورجى زيدان فى كتابه (تاريخ مصر الحديث) بقوله : « وكان ملكا جليلا عجولا طويل القامة مليح الشكل سريع الحركة فارساً مقداماً » .

وقد تضاربت الآراء فى أصل هذا الملك العظيم . فمن قائل إنه من القبجاق (١) ، والترك (٢) ، وقال آخرون إنه شركسى من القوقاز (٣) .

ومن سلاطين هذه الدولة العظام أيضاً ، السلطان المنصور سيف الدين قلاوون ، وقد شتت هذا السلطان شمل الصليبيين فى فلسطين واستولى على ما كان قد بقى فى أيديهم ، عام ٦٨٦ هـ ، عدا مدينة عكا التى استولى عليها ابنه الأشرف خليل عام ٦٩١ هـ بعد وفاة أبيه . كما حارب التتار أيضاً ، وصد تقدمهم فى سوريا . ومن آثاره الباقية جامعه الشهير ومقامه وكلاهما داخلان فى بناء البيمارستان القائم بجوار خان الخليلى . كما شيد كثيراً من المدارس والمساجد والملاجىء.

وفى عهد الملك قلاوون وفد على مصر كثير من الشراكسة كما تقدم فى الفصل السابق ، وهو الذى أنشأ منهم الفرقة الشركسية التى عرفت أيضاً بالبرجية (٤) . وأنشأ لهم كذلك «طباق القلعة» حيث

---

(١) عصر سلاطين المماليك للأستاذ محمود رزق سليم — القاهرة ١٩٤٧

(٢) تاريخ المماليك للسر وليم موير ، وغيره

(٣) المزارات الإسلامية والآثار العربية جزء ٤ ص ٤٠٦

(٤) فى المقريزى أنهم دعوا بالبرجية لسكناهم أبراج القلعة . إلا أن الأستاذ العلامة الشيخ زاهد الكوثري فى تعليق له على أحد فصول كتاب (المزارات الإسلامية والآثار العربية) تأليف الأستاذ حسن قاسم ، جزء ٤ ، يقول ان السلطان قلاوون سماهم (بالبرجية) باعتبار أن قلاوون شركسى من قبيلة (برج) ، فنسبهم إليه .

كانوا يتدربون على الأعمال العسكرية ، ويلقنون أساليب الحكم ، وغير ذلك من العلوم .

وتعاقب على العرش بعد قلاوون عشرون سلطانا ، آخرهم الصالح زين الدين حاجى بن شعبان ، عام ٧٨٣ هـ (١٣٨١ م) . وكان فى الحادية عشرة من عمره ، فعين برقوق الشركسى أتابكا — أى قائداً للجيوش — وقام بادارة الملك باسم السلطان حاجى مدة عام ونصف . ثم انعقد رأى القضاة والأمراء على وجوب خلع الملك الصالح حاجى ، وتولية الملك مكانه من يستطيع أن يقوم بأعبائه . فاجتمعوا وخاطبهم بدر الدين بن فضل الله القاضى قائلا : «ياأمير المؤمنين وياسادتى القضاة إن أحوال المملكة قد فسدت ، وزاد فساد العربان فى البلاد ، وخامر غالب النواب فى البلاد الشامية وخرجوا عن الطاعة ، والأحوال غير مستقيمة ، وإن الوقت قد ضاق ومحتاجون إلى اقامة سلطان كبير تجتمع فيه الكلمة ويسكن الاضطراب»[1] . وعلى أثر ذلك بويع برقوق بالسلطنة ، وبذلك انتهى عصر هذه الدولة ، وقامت الدولة الشركسية فى مصر ، وذلك فى ١٩ رمضان عام ٧٨٤ هـ .

---

(١) تاريخ مصر فى العصور الوسطى ، للدكتور على ابراهيم حسن .

الملك الظاهر برقوق

(٧٨٤ — ٨٠١ هـ أو ١٣٨٢ — ١٣٩٨ م)

صفاته :

اسمه الكامل : برقوق بن أنس بن عبدالله الشركسى . وقد سمى برقوقا لنتوء فى عينيه .

وقد وصفه صاحب شذرات الذهب (١) بقوله : « كان شهماً شجاعاً ذكيا خبيراً بالأمور عارفا بالفروسية خصوصا اللعب بالرمح ، يحب الفقراء ويتواضع لهم ويتصدق كثيراً ولاسيما إذا مرض. وكان جهورى الصوت كبير اللحية واسع العينين محبا لجمع المال ، طماعا جداً . وله آثار كثيرة » .

أعماله:

وبعد مبايعته ، لقبه الخليفة (٢) والعلماء بالملك الظاهر ، وهو لقب أعظم من حكم مصر من السلالة السابقة ، ونعنى به ركن الدين الظاهر بيبرس .

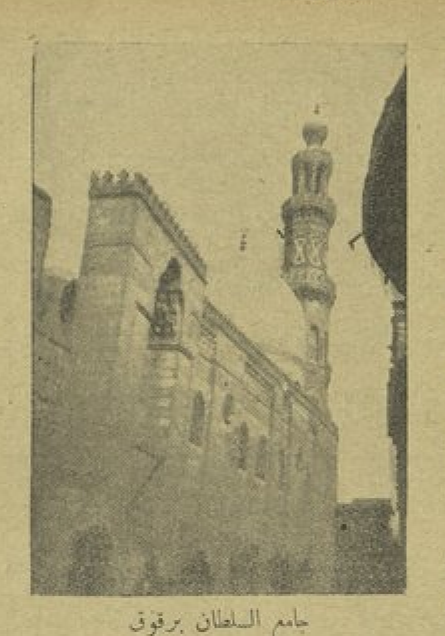
وكان تيمورلنك إذ ذاك يزحف بجيوشه الجرارة صوب سوريا ومصر ، فذهب اليه برقوق بجيش عظيم وهزم تيمورلنك فى ناحية سيواس ، فتمكن بذلك من إيقاف زحف التتار على الأراضى

---

(١) هو المؤرخ أبو الفلاح عبدالحى بن العماد . والاقتباس المذكور من جزء ٧ ص ٦ و ٧ .

(٢) هو الخليفة العباسى المتوكل بالله محمد بن المعتضد. وكانت مبايعته فى الواقع صورية لأنه لم يكن للخلفاء فى ذلك العصر أى نفوذ سياسى.

السورية. إلا أن الخليفة المتوكل بالله العباسى دبر مؤامرة لعزل برقوق ولكنها اكتشفت قبل وضعها موضع التنفيذ. فجمع برقوق الأئمة والمشايخ وناقشهم ، وعلى أثر هذا الاجتماع أمر برقوق بخلع الخليفة



جامع السلطان برقوق

ونصب مكانه الخليفة الواثق بالله. وتوفى هذا الخليفة الجديد فى ١٩ شوال سنة ٧٨٨ هـ فنصب برقوق مكانه أبا يحي زكريا عمر بن الخليفة المستنصر بالله، إلا أن هذا لم يلبث طويلا لأنه أساء إلى السلطان برقوق فخلعه فى جمادى الأولى سنة ٧٩١ هـ وأعاد إلى الخلافة المتوكل بالله . إلا أن المتوكل تمكن هذه المرة من خلع برقوق عن العرش ، ونفاه بمساعدة بعض الأمراء الترك إلى قلعة الكرك ، وأعاد إلى كرسى السلطنة حاجى آخر سلاطين الدولة السابقة ولقبوه بالملك المنصور بدل الصالح . وفى الفترة التى تلت عزل برقوق عمت الفوضى وقام نزاع خطير بين اثنين من الأمراء هما يلبغا أمير حلب

ومنطاش أمير ملطية . واستغل برقوق فترة الاضطراب هذه، فهرب من الأسر وأنشأ جيشاً جديداً أكره به السلطان حاجى على التنازل له مرة أخرى عن العرش . وعاد برقوق إلى عرشه ثانية فاستقبلته القاهرة استقبالا عظيما ، وذلك عام ٧٩٢ هـ .

وما أن استتب له الملك ثانية ، حتى استأنف تيمورلنك زحفه على سوريا ، بعد ان اجتاح فارس والعراق . وفى تلك الاثناء ، وصل إلى برقوق وفد من قبل بايزيد سلطان الترك العثمانيين ، يطلب معاهدتهم على السلم وإقرارهم رسمياً على سلطنة الأناضول ، فأجابهم برقوق إلى ما طلبوا. فلما أحس تيمورلنك باتفاق العثمانيين مع سلطان مصر ، أرسل من قبله وفداً لمقابلة برقوق وحمله على الغاء اتفاقه السابق ، الا أن هذا الوفد لم يحسن مخاطبة برقوق، فأغلظوا له القول وازدادوا فجوراً كلما عمـد برقوق إلى ملاينتهم ، فأمر بقتلهم .. فشق ذلك على تيمورلنك وعزم على الانتقام ، فتقدم حتى حلب ونكل بأهلها وسبي نساءها ورجالها ، ثم توقف فجأة عن الزحف .

أهم مراتب الدولة فى عهده :

وكان لبرقوق ولع خاص باقتداء الشراكسة أبناء جلدته ، واستجلابهم إلى مصر . وجعل فى مصالح الدولة مراتب هذه أهمها :

(١) أتابك العساكر (أى قائد الجيوش)

(٢) رأس نوبة الأمراء

(٣) أمير السلاح

(٤) أمير المجلس

(٥) أمير الياخور

(٦) رأس النوبة الثانى

(٧) حاجب الحجاب

(٨) النائب

وهؤلاء كانوا بمثابة « مجلس وزراء » ، بيدهم مقاليد الحل والربط ، وتصريف الشؤون .

آثاره :

توفى برقوق على فراشه يوم الجمعة ١٥ شوال سنة ٨٠١ هـ عن نحو ستين سنة ، وقد بكاه الناس لعدله ورفقه برعيته .

ومن أعماله الجليلة أنه أبطل كثيراً من المكوس وألغى العوائد التى كانت تجبى على الثمار والفاكهة الواردة عن طريق بولاق . وقد بنى مدرسة عالية دعاها « المدرسة الظاهرية » نسبة اليه قال عنها صاحب شذرات الذهب « إنه لم يتقدم بناء مثلها »[١] كما ابتنى جامعاً لايزال إلى اليوم معروفا باسمه . وأنشأ جسراً فوق نهر الشريعة (الأردن) كان ذا فائدة كبيرة للمسافرين فى ذلك العصر . وفى ذلك يقول شمس الدين محمد المزين[٢] :

---

(١) شذرات جزء ٦ ص ٧

(٢) نفس المصدر والجزء والصفحة .

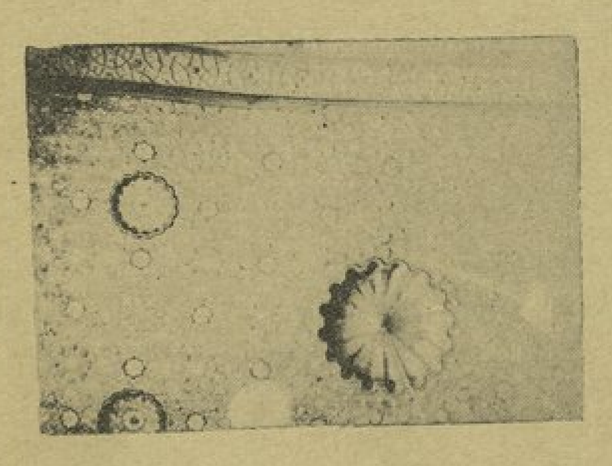
بنى سلطاننا للناس جسراً ... بأمر والوجوه له مطيعة
مجازاً فى الحقيقة للبرايا ... وأمراً بالسلوك على الشريعة

وقد ضربت النقود فى عهده باسمه ، وخطب له على منابر ماردين والموصل وسنجار وغير ذلك . ويصفه صاحب « شذرات الذهب » بأنه « كان أعظم ملوك الشراكسة بلا مدافع ، بل المتعصب يقول إنه أعظم ملوك الترك قاطبة » .

الملك الناصر فرج بن برقوق

(٨٠١ — ٨١٥ ﻫ أو ١٣٩٦ — ١٤١٢ م)

تولى العرش بعد وفاة أبيه ولقبه العساكر بالملك الناصر . وكان عمره إذ ذاك عشر سنين وستة أشهر .



سقف جامع برقوق . لاحظ النقوش الدقيقة التى رصع بها .

ولد فرج عام ٧٩١ هـ ، وسماه أبوه « بلغاق » ، ثم أسماه « فرجا » وقد عرف منذ طفولته بالشجاعة المتناهية المقرونة بشيء من التهور والطيش .

وكان أول شيء عمله فرج بعد اعتلائه العرش ، أن أمر بالاستعداد لصد زحف تيمورلنك التترى ، فجمع جيشاً كثيفاً وسار على رأسه . وكان تيمورلنك قد استأنف زحفه من حلب وأخذ فى طرق أبواب دمشق . وقبل أن تصل جيوش الناصر فرج كانت جيوش تيمورلنك قد احتلت المدينة وذبحت من سكانها الكثير وهتكت أعراض نسائها ، وسبت عدداً ضخماً من علمائها وشيوخها وأعيانها ، وفعلوا بهم أشنع مما فعلوا بمدينة حلب .

إلا أن تيمورلنك أراد أن يتلافى التحام جنوده بجيوش فرج الزاحفة ، فرحل عن الشام بعد أن أحرقها وتركها خراباً .

وفى عام ٨٠٤ هـ تمكن تيمورلنك من هزيمة جيوش العثمانيين بقيادة بايزيد فى موقعة بالقرب من أنقرة ، فجزع فرج لهذا النصر ، واقترن ذلك ببعض الفتن الداخلية ، فرأى فرج أن يعتزل الحكم تحت ضغط هذه الظروف ، وفى ١٦ ربيع أول سنة ٨٠٨ هـ أجبر على ترك العرش لأخيه عبد العزيز بن برقوق ، وعمره سبعة عشر عاماً .

إلا أنه لم يكد يمض شهران على تولية عبد العزيز ، حتى خاب أمل الناس فيه . وطلب رجال الدولة من فرج أن يعود إلى العرش ، فعاد فى جمادى الآخرة من نفس السنة ، وعول هذه المرة على أن يكون

عند حسن ظن الناس فيه . فسير جيشاً قوياً لاسترجاع سوريا ، وكان تيمورلنك قد أدركته منيته ، وتقاسم أبناؤه الملك ، فتمكن فرج من قهرهم واسترجع سوريا كلها . واهتم فى راحة الرعيـة ، فساد الأمن وسكنت القلوب ، وعم الاطمئنان . (١)

إلا أن الخليفة العباسى المستعين بالله(وكان قد ولى الخلافة بدلا من الخليفة المتوكل بالله سنة ٨١٣ هـ) كان يطمع باستعادة السلطة السياسية إلى جانب السلطة الدينية للخلفاء (٢) ، فتآمر على ذلك مع شيخ المحمودى الظاهرى ، وكان فرج إذ ذاك فى دمشق يقاتل ، فبعثا اليه يطلبان منه التنازل ، فأجاب فرج إن جوابه الوحيد هو السيف ، فأصدر الخليفة المنشور التالى ووزعه على الشعب والجند :

« من الإمام أبى الفضل العباسى المستعين بالله أمير المؤمنين إلى أهل مصر .

« اننا نصرح بخلع فرج بن برقوق عن سلطنة مصر وسوريا لأن السلطان الحقيقى عليها انما هو الخليفة سلالة النبى (صلعم) ونائبـه . فطوبى لمن أذعن له ، وويل لمن أعرض عنه ، والسلام » .

---

(١) الاستاذ جورجى زيدان فى كتابه تاريخ مصر الحديث جزء ٢

(٢) كان الخلفاء العباسيون منذ استئصال شوكتهم من بغداد وإقامتهم فى مصر لا يزيدون عن كونهم أئمة فى نظر الأهالى ، ولم تكن لهم أية سلطة زمنية ، بل انحصر نفوذهم فى شؤون الدين .

وقد أحدث هذا المنشور السياسى المغطى بستار من الدين فعله فى نفوس الشعب والجند ، فثاروا على سلطانهم وأحضروه إلى الخليفة مقيداً . فأمر الخليفة بقتله ، فقتلوه خارج أسوار دمشق فى ٢٥ محرم سنة ٨١٥ هـ ، وتركوا جثته ملقاة على دمنة هناك .

ويعتبر الناصر فرج من أعظم سلاطين الشراكسة لشجاعته وبطولته ، وما جدده من المبانى ، ولامتلاء عصره بكثيرمن العلماء والادباء[١] . وقد نسب إليه بعض المؤرخين أنه كان يشرب الخمر ، قليل الحرص على الدين ، إلا إن هذا الادعاء كان يذيعه خصومه من أنصار الخليفة العباسى للقضاء عليه ، وتنفير الناس منه ، بدليل الحوادث والمؤامرات التى حاكها الخليفة المذكور ، والتى انتهت بقتل السلطان كما تقدم .

وحكم الخليفة العباسى بعد مقتل فرج مدة ستة شهور ، ثم لم يعد يقوى على مواجهة الدسائس التى كان يحيكها له شيخ المحمودى ، فولاه نيابة الملك فى ٨ ربيع أول سنة ٨١٥ هـ إرضاء له ، ثم عينه شريكا فى الملك ولقبه بالملك المؤيد . وبعد وقت يسير استطاع المحمودى أن ينفرد بالسلطة، وحبس الخليفة فى بعض غرف القصر.

---

(١) عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبي للأستاذ محمود رزق سليم — القاهرة ١٩٤٧

سلطنة المؤيد أبو النصر شيخ المحمودى

(٨١٥ — ٨٢٤ هـ أو ١٤١٢ — ١٤٢١ م)

نشأته :

قدم شيخ عبد الرحمن المحمودى القاهرة وعمره حوالى ١٢ سنة ، وكان جميل الصورة ، حلو الحديث ، ذكيا فدعاه برقوق وقربه إليه ، ثم عينه فى الحرس السلطانى ، ثم جعله من السقاة ، ثم أميراً للحج ، ثم نائباً للشام .

صفاته :

قال فى المنهل : «وكان ملكا شجاعاً مقداماً مهاباً عارفاً بالحروب والوقائع جواداً على من يستحق الإنعام ، بخيلا على من لا يستحقه ، طويلا ، بطيناً ، واسع العينين أشهلهما ، كث اللحية ، جهورى الصوت ، سبابا ذا خلق سيء وسطوة وجبروت وهيبة زائدة ، يرجف القلب عند مخاطبته ، محباً لأهل العلم ، مبجلا للشرع ، مذعنا له غير مائل إلى شيء من البدع » .

ومما أثر عنه أيضاً أنه كان موسيقياً بارعاً ، خطيباً ، بسيط الملبس والمعيشة ، يختلط بالشعب كأنه منهم . (١)

---

(١) تاريخ القاهرة للبكباشى عبد الرحمن زكى .

حكمه :

لم يسكت الخليفة المستعين بالله العباسي على سجنه بالقصر ، فكتب سراً إلى نوروز أحد أصدقائه القدماء وكان قد ولاه سوريا يستنجده . فتقدم نوروز مسرعاً إلى القاهرة ، إلا أنه وجد أنه أضعف من أن يقاوم السلطان ، فأوعز إلى الخليفة أن يستعمل الطرق الدينية كما فى المرة السابقة ، وكان المحمودى فى دمشق ، فأصدر الخليفة منشوراً بحرمانه وخلعه . الا أن المحمودى تمكن من الوصول إلى القاهرة فى الوقت المناسب ، وقبض على المستعين بالله ونفاه إلى الاسكندرية عام ٨١٨ هـ ، وعين أخاه داود خليفة مكانه .

وقد حكم المحمودى مدة ثمانى سنوات وخمسة أشهر ، وكانت وفاته فى ٩ محرم سنة ٨٢٤ هـ . وكان خلال هذه السنوات يعمل جاهداً لكسب ثقة الرعية ، فقرب اليه العلماء وأقام المبانى الجميلة ، وابتنى الجوامع وأشهرها «جامع المؤيد» بالقرب من باب زويله ، وهذا الجامع كثير النقوش ، وسقفه يعتبر من آيات الفن الهندسي البديع ويقصده اليوم الكثير من علماء الآثار والسواح لمشاهدته ودراسة نواحيه الفنية والهندسية [1] كما أمر ببناء البيمارستان المؤيدى (عام ١٤١٨ م) بالقرب من القلعة.

---

(١) قال صاحب « شذرات الذهب » فى جزء ٧ ص ١٦٥ عن هذا الجامع أنه « ما عمر فى الإسلام أكثر زخرفة وأحسن ترخيما منه بعد جامع دمشق ».



جامع المؤيد

وبعد وفاته بويع ابنه أحمد ولقب بالمظفر وكان رضيعاً لم يفطم، فقام بتدبير الملك أمير المجلس الأمير ططر، وتزوج أم السلطان الطفل.

سلطنة الملك الظاهر أبو الفتح ططر وولده محمد

(٨٢٤ هـ — ١٤٢١ م)

نشأته :

نشأ ططر فى عهد السلطان برقوق وكان مقرباً إليه . ترقى حتى صار أمير مائة مقدم ألف بالمملكة المصرية ، ثم أميراً للسلاح ، ثم أميراً للمجلس ، (عام ٨١٥ هـ) .

صفاته :

كان ملكاً فطناً عفيفاً عن المنكرات مائلا إلى العدل يحب الفقهاء وأهل العلم ، بارعاً فى حفظ الشعر عارفاً باللغة التركية . وكان قصيراً جداً أسود اللحيـة كبيرهـا ، مليح الشكل ، يتكلم بأعلى صوته وفى صوته بحة . ونسب إليه أنه كان كثير التعصب لمذهب الحنفية ، حتى قيل أنه كان يضع مشروعاً لإعفاء جميع فقهاء المذاهب الأخرى من مناصب الشرع والقضاء .

أعماله :

بعـد وفاة السلطان السابق ، خرج ططر إلى الشـام بالسلطان والخليفة والقضاة والجند وعزل وولى ، ثم توجه إلى حلب ، فوطد فيها الأمور ، وعاد إلى دمشق واستمال الخواطر وتحبب إلى الأمراء . وفى ١٩ شعبـان سـنة ٨٢٤ هـ أعلن ططر خلع الملك الطفل واعتلى هو العرش ملقباً بالملك الظاهر .

وفى ١٧ رمضان عاد ططر بحاشيته إلى القاهرة فدخلها يوم الخميس ٤ شوال . إلا أنه لم يهنأ طويلا بالحكم إذ هاجمه المرض فلزم بيته وبقى مريضـاً إلى أول ذى الحجة فجمع الخليفـة المعتضد بالله داود القضاة والأمراء ، وعهد لولده محمد بالسلطنة (وعمره إذ ذاك ١١ عاما) وعين الأمير جانبك وصياً عليه . وفى ضحى يوم الأحد ٤ ذى الحجة

توفى السلطان عن خمسين عاماً ودفن بالقرافة بجوار الإمام الليثى بن سعد . وكانت مدة سلطنته ٩٤ يوماً . (١)

إلا أن الأمراء عادوا وقرروا فى إجتماعهم يوم ٨ ربيع الآخر سنة ٨٢٥ هـ مبايعة برسباى الدوادار بالسلطنة نظراً لاقتداره وقوة شكيمته ، ولحاجة المملكة الشديدة إلى رجل قوى يحسن تدبيرها وإدارتها .

الملك الأشرف برسباى

(٨٢٥ — ٨٤١ هـ أو ١٤٢٢ — ١٤٣٧ م)

نشأته :

هو الملك الأشرف برسباى بن عبدالله أبو النصر الدقماق (نسبة للأمير دقماق المحمدى) ، من رجال السلطان برقوق ، كان ساقياً فى عهد الناصر فرج بن برقوق ، وما زال يصعد سلالم الرقى إلى أن صار أمير مائة مقدم ألف ، وفى سنة ٨٢١ هـ تولى إمارة طرابلس الشام فأحسن تدبيرها ، ثم نقل إلى دمشق برتبة أمير مائة مقدم ألف .

---

(١) راجع شذرات الذهب جزء ٧ ص ١٦٥ .
وقد قيل فى رواية اخرى ان الملك ططر مات مسموما بيد مطلقته ، وأن الذي تعين وصياً على ولده الحدث هو برسباى الدوادار (راجع تاريخ مصر الحديث جزء ٢ للمرحوم جورجى زيدان).

وفى سنة ٨٢٤ هـ عاد إلى مصر بصحبة الملك الظاهر ططر ، وبقى بالقاهرة حيث ظهرت كوامن صفاته التى أهلته للعرش ، فتولاه كما بينا فى شهر ربيع الآخر سنة ٨٢٥ هـ .

صفاته:

كان برسباى ملكا جليلا مهيباً عارفا سيوساً متواضعاً حسن الخلق شهماً شجاعاً ذا شيبة نيرة وهيئة حسنة ، متجملا فى حركاته حريصاً على ناموس الملك ، لايتعاطى المسكرات أبداً ، وكانت أيامه فى غاية الحسن . (١)

ويعد بعض المؤرخين الملك برسباى أجدر ملوك الشراكسة بالمدح لأنه كان أرفعهم همـــة وأشدهم عزيمة وأكثرهم تدرباً فى الاحكام (٢). وقد وصلت الحدود المصرية فى عهده إلى بيراموس والفرات .

سياسته وفتوحاته:

كان برسباى من أعظم سياسي عصره وقادته ، إن لم يكن أعظمهم. قال عنه صاحب « شذرات الذهب » : «إنه ساس ملكه أحسن سياسة ونالته السعادة ، فكانت أيامه فى غاية الحسن».

(١) عن كتاب شذرات الذهب جز ٧ ص ٣٣٩ .
(٢) الأستاذ جورجى زيدان فى كتابه تاريخ مصر الحديث جزء ٢ ص ٥٣

وفى عصره تزايد وفاء النيل حتى غمر القطر بالخيرات ، فكثرت الحبوب ، وشبع الفقراء ، كما صك النقود الأشرفية أجود أنواع الدنانير الذهبية .

ومن أعماله الحربية الموفقة ، غزوه لجزيرة قبرس واحتلالها . وتفصيل ذلك ، أنه بعد طرد الصليبيين من البلاد السورية إتخذت بعض شراذمهم المنهزمة جزيرة قبرس قاعدة لها ، وأنشأت فيها دولة صليبية جديدة كما أصبحت تلك الجزيرة ملجأ للقراصنة الذين كانوا يعيثون فساداً فى البحر المتوسط . وفى سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م) جهز ملك قبرس بطرس الأول حملة بحرية لغزو الاسكندرية ، إلا أن قواته لم تبق فيها أكثر من ثلاثة أيام جلت بعدها عن المدينة حاملة معها خمسة آلاف أسير .

وفى سنة ٨٠٦ هـ (١٤٠٣ م) عاود الصليبيون الهجوم على المملكة المصرية ، فاحتلوا مدينة الاسكندرية ونهبوها ، كما هاجمت أساطيلهم فى السنة التالية مدينتى طرابلس وبيروت ، وألحقوا بهما تلفاً بالغاً (١) .

إزاء هذه الهجمات المتكررة ، ومصادرة السفن المصرية فى البحر المتوسط ، قرر برسباى احتلال جزيرة قبرس وتأديب ملكها .

---

(١) تاريخ المماليك للسروليم موير ، ومصر فى العصور الوسطى لمؤلفه لاين بول (LANE — POOLE)

فأنشأ أسطولا قويا فى بولاق مكونا من أربعين سفينة ، وسيره عام ١٤٢٥ م (٨٢٩ هـ) لاحتلال الجزيرة . فاستولت الحملة على ثغر فاماجوستا ومدينة نيماسول (العاصمة) وعادت هذه الحملة ومعها ألف أسير بيعوا فى أسواق القاهرة [١] .

وفى العام التالى أرسل برسباى قوة بحرية أخرى تمكنت هذه المرة من القضاء نهائياً على أسطول الصليبيين ، وأحرقت سفنهم . ونزلت الجنود المصرية إلى البر واشتبكت مع الصليبيين فى معركة شيروكيتيوم التى انتهت بهزيمة الصليبيين ، وأسر ملكهم جيمس لوزيجنان .

ولما عادت هذه الحملة إلى القاهرة ، أحضرت معها عدداً كبيراً من الأسرى ، ومن بينهم ملك الجزيرة المذكور . ولما أدخلوه على برسباى ، كان بلاط السلطان حافلا بممثلى الدولة العثمانية ، وشريف مكة ، وملك تونس ، وبعض الاشراف والعلماء وعظماء الدولة ، فدخل جيمس وسط هذا الجمع مكبلا بالأغلال ، وأمره برسباى بتقبيل الأرض أمامه عقابا له لاجترائه على مهاجمة ملكه وتخريب المدن وأسر بعض رعاياه ، فخر جيمس على الأرض مغشياً عليه ، من هول هذا الطلب .

وبعد تلك الحادثة ، تدخل قنصل البندقية وبعض التجار

---

(١) نفس المصدر

الأجانب ، ودفعوا فديته لفكاكه من الأسر. فقبل برسباى إطلاق سراحه ، بشرط أن يدفع الجزية لمصر ، وأن يزول عنه لقب الملك ، وأن يعود إلى قبرس والياً معيناً من قبل ملك مصر . فقبلت جميع هذه الشروط ، وظلت قبرس تابعة لمصر منذ ذلك التاريخ حتى عام ١٥١٧ م حينما احتل العثمانيون مصر .

وفى أثناء هذه الحروب ناصرت جزيرة رودس معقل الفرسان الاسبتارية الذين أمعنوا فى قتال المسلمين فى الشام جزيرة قبرس فى حربها ضد برسباى . فسير عليهم برسباى جيشاً لاخضاعهم ، إلا أن ظروف الفريقين المتحاربين كانت تقتضى عقد الصلح ، فعرض الاسبتاريون الصلح على برسباى فقبله ، لانشغاله فى حرب المغول[1]

وقد تمكن برسباى كذلك من بسط نفوذه على مكة وجدة ، واحتكر تجارة الشرق . كما تمكن لحسن سياسته وحزمه من استبقاء السلطنة بيده والبلاد فى سكينة إلا فى عام ٨٢٧ ﻫ إذ ثار عليه الأمير بنيق النجاشى وكان قد ولاه دمشق . غير أن برسباى قضى على هذه الثورة بسهولة ، وعاقب الثائرين . وكانت هذه الحركة أولى القلاقل وآخرها فى عصره .

وقد عقد برسباى مع ملوك الافرنج وسلطان آل عثمان إذ ذاك

---

(١) الدكتور على ابراهيم حسن فى كتابه مصر فى العصور الوسطى .

مراد بن محمد عدة معاهدات سلمية تدل على عظم شوكته . فكانت مصر بذلك سعيدة داخلا وخارجا . ومات يوم السبت فى ١٣ ذى الحجة سنة ٨٤١ هـ (١٤٣٧ م) بعد أن حكم ١٧ سنة و ٨ أشهر و ٦ أيام ، وعمره ستون سنة . وبويع بالسلطنة بعده ابنه يوسف وعمره أربعة عشر عاما .

بعض آثاره :

وقد شاد برسباى فى القاهرة عدة منشآت مازالت ناطقة بجهوده وفضله حتى يومنا هذا ، كما رمم مدناً عدة . ومن أبنيته فى القاهرة الجامع الكبير المعروف بجامع الأشرفية تجاه سوق العطارين بالقرب من الموسكى عند منعطف الغورية ، وقد ابتدأ فى بنائه عام ٨٢٦ هـ . ومنها : مدرسة بسوق الوراقين ومدرسة بخانقاه سرياقوس . وغير ذلك من المنشآت .

ومما يحمد له أنه أبطل جميع التذللات التى كانت تقدم للملوك قبله ، واكتفى بتقبيل اليد .

يوسف بن برسباى :

لم يكن يوسف بن برسباى ، السلطان الحدث ، أحسن حظاً ممن سبقوه من السلاطين الأحداث ، إذ لم تدم سلطنته أكثر من ثلاثة أشهر ، أجمع الأمراء بعدها على مبايعة قائد الجيوش جقمق ، فبويع بالسلطنة فى ١٩ ربيع أول عام ٨٤٢ هـ (١٤٣٨ م) .

الملك الظاهر أبو سعيد جقمق بن عبد الله

(٨٤٢ — ٨٥٧ هـ أو ١٤٣٨ — ١٤٥٣ م)

اعتلى العرش وعمره ٦٩ سنة . وقد واجه أول حكمه عدة ثورات منها ثورة حلب لإرجاع يوسف بن برسباى إلى العرش، وثورة منافسه قرقميش ، إلا أنه تمكن من القضاء على كل هذه الثورات وشتت شمل القائمين بها . وبذلك استتب له الأمر ، وأخذ فى تصريف أمور الدولة بهدوء وحزم .

صفاته :

كان جقمق كريماً مولعاً بمجالس العلماء والأدباء ، عاشت البلاد فى كنفه فى راحة واطمئنان . وكان مغرماً بحب الأيتام والإحسان إليهم وإلى غيرهم ، متواضعاً ، يقوم لمن يدخل عليه من أهل العلم والشرف والصلاح ، جواداً ، براً طاهر الفم ، فقيهاً فاضلا شجاعاً عارفاً بأنواع الفروسية . لم يزن ولم يسكر . لم يذكر أحد من ملوك مصر فى الدولة الأيوبية أو التركية على عفته وعبادته . [١]

سياسته وفتوحاته :

تمكن جقمق بحسن سياسته من توطيد العلاقات الحسنة مع فارس وأمراء آسيا الصغرى .

---

(١) شذرات الذهب جزء ٧ ص ٢٩١ .

وقد رأى جقمق أنه لابد من القضاء على حصن رودس الذى امتنع فيه الاسبتاريون ، لكى يستتب له الأمر فى البحر المتوسط وبذلك ينفذ الخطة التى كان وضعها الملك الأشرف برسباى . فسير على الجزيرة ثلاث حملات لغزوها : الأولى سنة ٨٤٤ هـ (١٤٤٠ م) وكانت مكونة من خمس عشرة سفينة ، إلا أن هذه الحملة فشلت بعد أن تكبدت خسائر فادحة . وأرسل جقمق الحملة الثانية عام ٨٤٧ هـ (١٤٤٣م) ، إلا أن اشتداد الأعاصير وهيجان البحر اضطرا الحملة للعودة ثانية إلى مصر قبل وصولها الجزيرة . وفى العام التالى أرسل جقمق حملة ثالثة ، فوصلت جزيرة رودس وخربتها ، ولكن الاسبتاريون استبسلوا بالدفاع عن آخر حصونهم فى الشرق ، ووقعت بين الفريقين خسائر كبيرة فى الأرواح . ولما طلب الاسبتاريون الصلح ، قبله جقمق ، وعادت جيوشه إلى مصر . وبقيت هذه الجزيرة فى يد الاسبتاريين حتى عام ١٥٢٢ م عندما احتلتها الجيوش العثمانية .

وقد عمل جقمق على تحسين علاقاته بالدولة العثمانية ، فتزوج من شاه زاده إحدى أميرات آل عثمان ، وتبودلت بينه وبين السلطان رسائل ودية . وفى عهده احتل العثمانيون القسطنطينية ، فاحتفل جقمق بهذا النصر (عام ٨٥٧ هـ — ١٤٥٣ م) .

وفى هذا العام اشتد المرض على جقمق . وكان قد تجاوز الثمانين من عمره . فتنازل عن العرش لابنه فخر الدين عثمان ، وتوفى فى ليلة الثلاثاء ثالث صفر عام ٨٥٧ هـ بعد تنازله باثنى عشر يوماً . ومدة حكمه ١٤ عاماً وعشرة أشهر .

وبعد مبايعة عثمان بن جقمق، لقب بالملك المنصور. إلا أن الخليفة القائم بأمر الله حرض على خلعه ، طمعاً بالسلطنة . فقامت ثورة بين العلماء انتهت بخلع المنصور عثمان بعد أن دامت سلطنته ثلاثة وأربعين يوما لاغير . أما الخليفة ، فقد حبطت مساعيه لاعتلاء كرسى السلطنة ، إذ اجتمع الأمراء وبايعوا أبا النصر ينال ولقبوه بالملك الأشرف وذلك فى صبيحة يوم الاثنين ٨ ربيع الأول سنة ٨٥٧ هـ .

الملك الأشرف ينال

(٨٥٧ — ٨٦٥ هـ أو ١٤٥٣ — ١٤٦٠ م)

نشأته وصفاته :

هو الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر ينال العلائى ، نشأ فى عصر الملك برقوق وكان من رجاله المقربين . وفى عهد الملك الناصر فرج بن برقوق ترقى إلى رتبة أمير طبلخانة ، ولما ولى الأشرف برسباى السلطنة رقاه إلى رتبة أمير مائة مقدم ألف . وفى عهد الظاهر جقمق تولى وظيفة الدوادارية الكبرى ، ثم عينه أتابكا ، ثم قائداً للأسطول .

وكان ينال طويل القامة ، خفيف اللحية ، قليل الظلم ، متجاوزاً عن الخطأ (١) . كما اشتهر بالكرم وهدوء النفس . وقد أغدق الهبات

(١) شذرات الذهب جزء ٧ ص ٣٠٥

على الأمراء والعلماء والأئمة ، ولعله قصد بذلك إرضاءهم وضمان تأييدهم (١) .

أعماله وغزواته :

كان أول شيء عمله السلطان الجديد أن أمر بخلع القائم بأمر الله عن الخلافة . فقال له الخليفة : « من أين لك أن تخلع الخلفاء ولهم وحدهم أن يولوا ويعزلوا ؟ » فكان جواب ينال أن قبض عليه ونفاه الى الاسكندرية ، حيث مات .

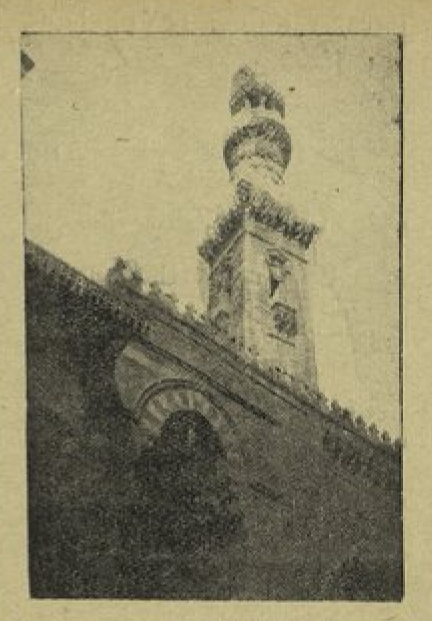
وفى أثناء حكمه حاول الافرنج استعادة سلطتهم على جزيرة قبرس ، فأنشأ ينال أسطولا بحرياً لتأديب المغيرين . كما أرسل حملة لتأديب المغيرين على أطراف مملكته الشمالية . فحاصرت قونيـة وقيسارية وخربتهما ، وسلمت لها كرمان دون قتال .

وفاته وما تبع ذلك :

توفى ينال يوم الخميس ١٥ جمادى الأولى سنة ٨٦٥ هـ (١٤٦٠ م) بعد أن حكم ٨ سنوات وشهرين و١٦ يوما ، وبويع بالسلطنة من بعده ابنه شهاب الدين أحمد الملقب بأبى الفتح ، وبعد مبايعته لقب بالملك المؤيد وعمره إذ ذاك سبع وثلاثون سنة إلا أنه لم يستطع كبح جماح الأمراء ، فخلعوه يوم ١٨ رمضان سنة ٨٦٥ هـ ، ولم يمض على توليته سوى أربعة أشهر تقريبا .

---

(١) تاريخ مصر الحديث للمرحوم جورجى زيدان — جزء ٢



جامع السلطان الأشرف برسباى

وكانت نية الأمراء الشراكسة متجهة إلى مبايعة نائب الشام الأمير جانم ، فكاتبوه بذلك ، وملكوا عليهم الاتابكى «خوش قدم» مؤقتاً ريثما يحضر الأمير جانم ويتسلم زمام السلطنة .

إلا أن خوش قدم (وهو من أصل يونانى وليس شركسيا) تمكن من الاحتفاظ بالعرش وأرضى الأمراء والجند بحسن سياسته وأغدق لهم الهبات . ثم رتب خطة للتخلص من منافسه الأمير جانم ، فأرسل اليه من قتله فى دمشق . وبذلك خلا له الجو .

إلا أنه ما إن اكتشف أمراء الشراكسة مقتل «جانم» حتى ثاروا ،

وتأكدوا من أن هذا الدخيل ينوى الاحتفاظ بالعرش لنفسه . إلا أن خوش قدم تمكن بدهائه وسعة حيلته من الإيقاع بين صفوف الأمراء ، فانقسموا على بعضهم ، وبذلك تربع على العرش بكل اطمئنان ، ولم يعد ينافسه فيه أحد .

وتوفى خوش قدم فى ١٠ ربيع أول سنة ٨٧٣ هـ بعد أن حكم مدة ست سنوات ونصف .

وبعد موته ، بويع بالسلطنة أبو سعيد بلباى ، ملقباً بالملك الظاهر . وكان مستبداً فكرهته الناس . وبعد ٦٦ يوماً من توليته خلعوه وولوا مكانه الأمير سعيد تمار بوغا ولقبوه بالملك الظاهر أيضاً ، إلا أن الملك الجديد لم يكن أفضل من سلفه ، فخلعوه بعد شهرين من توليته وبايعوا الأمير قايتباى ، ولقبوه بالملك الأشرف . (١)

الملك الأشرف قايتباى

(٨٧٣ — ٩٠١ هـ أو ١٤٦٧ — ١٤٩٥ م)

نشأته وصفاته :

لقبه الكامل : الملك الأشرف أبو النصر سيف الدين قايتباى .

كان أمير عشرة تحت إمرة ينال ، ثم رقاه السلطان خوش قدم إلى أمير طبلخانة (أي أمير ٤٠ وله الحق بدق الطبول أمام منزله) ، ثم

(١) كان قايتباى أميراً للجيش ، وهو من الذين افتداهم الملك الأشرف برسباى .

عينه مفتشاً للبيوت والمرطبات ، ثم مقدم ألف . وفى سنة ٨٧٢ ﻫ (١٤٦٧ م) ترق إلى رأس نوبة النواب (أى رئيس قواد الفرق) .

وصفه صاحب « شذرات الذهب » (١) بقوله : « لم يكن له فى زمنه منازع ولا مدافع . وسار فى الناس السيرة الحميدة ، واجتهد فى بناء المشاعر العظام . وكان قايتباى محتاطاً فى الوظائف الدينية كالقضاء والمشيخة والتدريس لا يولى شيئاً من ذلك الا الأصلح بعد التروى والتفحص » .

وقال عنه السخاوى : « وبالجملة لم يجتمع لملك ممن أدركناه ما اجتمع له ، ولا حوى من الحذق والذكاء والمحاسن بمجمل ما اشتمل عليه ولا مفصله . وربما مدحه الشعراء ولا يلتفت إلى ذلك ويقول : لو اشتغل (أى الشاعر) بالمديح النبوى كان أعظم . وترجمته تحتمل مجلدات وله تهجد وتعبد وأوراد وأذكار وتعفف وبكاء من خشية الله تعالى ، وميل لذوى الهيئات الحسنة ، ومطالعة فى كتب العلم والرقائق وسير الخلفاء والملوك ، والاعتقاد فيمن يثبت عنده صلاحه من العلماء والصلحاء . » اﻫ .

سياسته وفتوحاته :

وعندما اعتلى قايتباى العرش ، وكان فى الستين من عمره ،كانت البلاد فى أشد حالات الفوضى والارتباك ، وخزائن الدولة خاوية

(١) شذرات الذهب جزء ٨ صفحات ٧ر٨

من الأموال . فعمل على إصلاح الحال ، وقبض على أزمة الأحزاب والأمراء ، فاطمأنت البلاد ، وهدأت النفوس .

وإلى جانب حزمه ، كان كريم النفس إلى أقصى حـــد . فترك السلطان السابق تمار بوغا يسافر إلى دمياط بكامل حريته ومعه أصدقاؤه ، ولم يحاول القبض عليه أو الحد من حريته . وكان قايتباى يعامل أعداءه والسلاطين المخلوعين بكل احترام . فكان يدعوهم إلى حفلات السمر والرياضة بقصره ويسمح لهم بالحج إلى مكة ، بل إنه كان يبيح لهم زيارة العاصمة فى غيابه عنها بدون أى خوف أو شك من ناحيته (١).

وفى أوائل حكمه ، انقض « سوار » ملك الأبلستين (وهم من التركمان) على أملاك الدولة المصرية ، فجرد عليه قايتباى عدة حملات باءت بالفشل . إلا أن الحملة الأخيرة التى قادها الأمير يشبك الدوادار عام ٨٧٥ ﻫ تمكنت من دحر العدو ، ووصلت فى زحفها إلى نهر جيحون ، وأثناء الزحف وقع الملك « سوار » أسيراً بيد الشراكسة فحملوه إلى القاهرة مصفداً بالأغلال ، وولوا أخاه على بلاده مكانه .

وما لبثت الأخبار أن جاءت بانتصار محمد الثانى العثمانى على أوزون ملك الفرس ، وخشى قايتباى أن يكون ذلك النصر مقدمة للزحف على سوريا ، فسير اليها جيشاً قوياً ، ورابط عند الحدود

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الانجليزية) جزء ٢ ص ٦٦١

(عام ٨٨٥ هـ) . وفى تلك السنة ، توفى السلطان العثمانى ، وتخاصم ابناه بايزيد وجم على الملك ، وتمكن بايزيد من الانتصار على أخيه فحضر جم إلى مصر لاجئا إلى قايتباى ، فأكرم وفادته وكان بايزيد ينتظر من قايتباى أن يسلمه اليه ، فغضب ، وهكذا استحكم العداء بين الطرفين ، وأخذ كل منهما يستعد للقتال .

فلما رأى قايتباى أنه لامفر له من مقاتلة العثمانيين إذا أراد ضمان استقلال ملكه ، عول على الهجوم بدل الانتظار والدفاع . فجعل يناوىء الأتراك ، وقطع عليهم السبيل إلى مكة ، واستولى على أطنة وطرسوس (وكانتا فى حوزة العثمانيين) . فأرسل بايزيد إلى قايتباى يطلب تعويضاً عما سببته الجنود المصرية من الخسائر . فرد قايتباى على هذا الطلب بتشديد الهجوم على العثمانيين ، وعزز جيشه بخمسة آلاف مقاتل ، فدحروا العثمانيين . وشق ذلك على بايزيد ، فأنفذ جيشاً لجبا تحت قيادة صهره أحمد ، إلا أن رجاله لم يستطيعوا الثبات فى وجه الجيش المصرى ، ووقع أحمد أسيراً وكان يقود الجيوش المصرية فى هذه الحروب الأمير الشركسى إزبك (أو الازبكى) فعاد بأسيره إلى مصر ظافراً ، وبنى جامعه المعروف بجامع الأزبكية ، وهو الذى أنشأ كذلك حديقة الأزبكية وكانت فى أيامه بركة تتجمع فيها المياه فى أيام الفيضان .

وعاد بايزيد إلى الهجوم مرة أخرى ، وجعل إمرة جيوشه هذه المرة بيد على باشا . واستطاع على باشا استرجاع مدينتى طرسوس

وأطنة ، فبعث قايتباى إزبك مرة أخرى لمحاربة العثمانيين ، فسار اليهم على رأس جيش كثيف وتمكن من قهرهم مرة أخرى ، وعاد إلى القاهرة ظافراً . وهنا لم يجد العثمانيون بداً من مصالحة قايتباى ، فعقدت الهدنة بين الطرفين ، وذلك عام ٨٩٦ هـ

آثاره ومنشآته :

وعاش قايتباى بعد هذا الصلح خمس سنوات قضاها فى تعمير البلاد والسهر على رفاهية شعبه . وقد اشتهر بآثاره الخالدة فى جميع أنحاء مصر والبلاد السورية . ومن أهم تلك الآثار جامعان أحدهما ضمن مقابر الخلفاء والآخر بالقرب من جامع ابن طولون . وتعتبر وكالاته أو خاناته من أجمل الأمثلة لفن الزخرفة والعمارة الاسلامية . وقد طاف قايتباى بأرجاء مملكته [1] فرحل إلى سوريا والعراق وزار مكة وبيت المقدس وطاف أنحاء مصر ، وتجده أينما رحل يترك خلفه آثاراً تتحدث على عظمته . فمن طرق إلى قناطر إلى مساجد إلى مدارس إلى قلاع إلى أسبلة متعددة [2] .

وفى عصر قايتباى أدخلت على فن المعمار تعديلات جديدة . فقد

---

(١) مما يؤثر عن قايتباى انه بالرغم من تقدمه فى السن ، كان وافر النشاط جم الارادة فكان يخرج يوميا من القلعة للتريض على ظهر جواده . وكان دائم الحركة ، كثير التجوال فى أرجاء مملكته .

(٢) تاريخ القاهرة فى ألف عام للبكباشى عبد الرحمن زكى .

توسعوا فى استعمال الحجر المنحوت وبناية الجدران الداخلية وزخرفوها بالنقوش الجميلة ، كما شيدت القصور العظيمة . وشاع فى عصره عمل الزخرفة نقشاً على الحجارة نفسها بدلا من عملها بواسطة الجص أو الملاط . والمنبر الحجرى ذو النقش البديع الذى أقامه قايتباى عام ١٤٨٤م فى مقام برقوق يعد فى طليعة الأمثلة الفنية الرائعة التى تفخر بها القاهرة (١) .

وكان قايتباى موفقاً فى أعماله ، وقد فاق على جميع زملائه ذوقاً وهندسة . كما اشتهر بشدة عنايته بالدقائق كاهتمامه بالتفصيلات . ودرس آثاره كلها يدعو إلى الإعجاب والدهشة . ولا تزال آثاره تجذب إليها المعماريين والزائرين من نواحى العالم . فضخامة مبانيها الباهرة والمآذن الدقيقة ، والقباب المزركشة ، والكرانيش المصطفة ، والفسقيات الرخامية ، والنقوش الدقيقة التى كأنها من صنع يد آنسة رشيقة ، كل ذلك كمال فى الذوق والوضع . (٢)

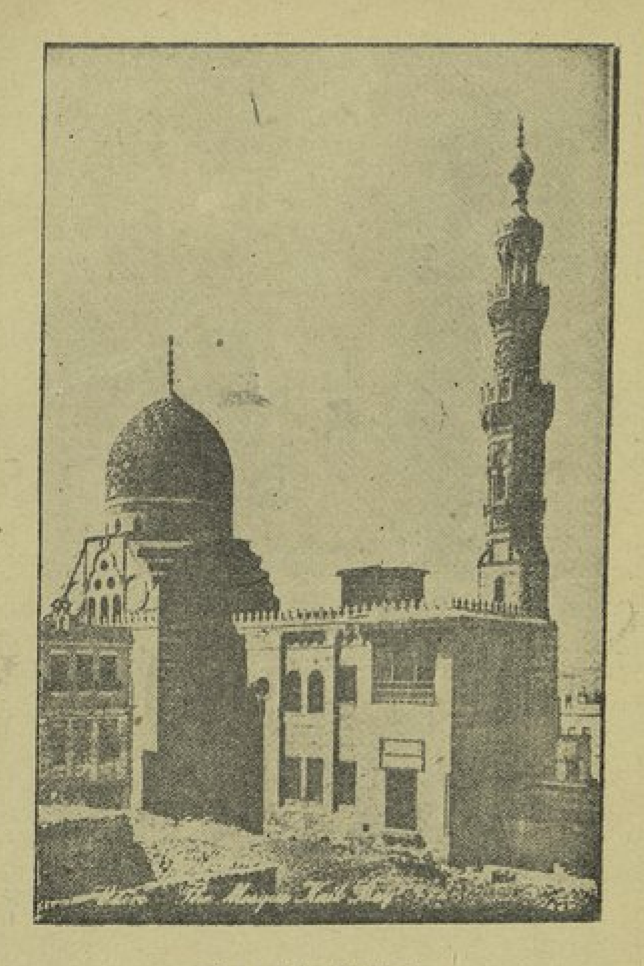
سياسته المالية :

جاء فى دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الإنجليزية) عن هذا الملك العظيم ما ترجمته : « لقد كان قايتباى أهم سلاطين الدولة البرجية (أى الشركسية) بمراحل . فى عهده وصلت عظمة مصر الخارجية

---

(١) نفس المصدر السابق ، ص ٩٨

(٢) نفس المصدر ص ٩٩



جامع السلطان قايتباى بمدافنه

أوجها . وكان يحتاج للقيام بحملاته الحربية وإنشاآته المدنية إلى المبالغ الجسيمة. وكان لا يستطيع جمع هذه الأموال بغير استعمال شيء من العنف لعدم وجود نظام ثابت متبع للضرائب وجبايتها فى تلك العصور . وقد كان جمعه للمال سبباً لهجوم عنيف عليه من بعض معاصريه ، إلا أننا لو نظرنا إلى الأمر نظرة عصرية ، لوجدنا أنه لم يكن يستطيع أن يفعل غير ذلك لحاجته الشديدة للمال لسد نفقات الجيش .

« وكان السلاطين ، لعدم وجود نظام معين للضرائب فى ذلك العصر ، يجمعون الأموال إما من رؤساء الخزينة الذين أثروا بوسائط غير مشروعة ، أو بأن (يزود) — أى السلطان — شيوخ المقاطعات ، فيقدمون إليه ما يحتاجه من (هدايا) كان بعضها لا يقدم عن طيب خاطر . ولكن السلطان قايتباى — لدهشة الناس واستغرابهم — كان يعيد كل المبالغ المجموعة لأصحابها الأصليين فى حالة عدم تنفيذ الحملة أو المشروع الذى يكون قد جمع المال من أجله . . .

« وقد أنفق قايتباى خلال السنوات ٨٧٢ — ٨٩٤ هـ حوالى ٧٠٠٠٠٠٠ دينار (٧٠ مليون فرنك) على الجيش . كما إن مبانيه ومنشآته كانت تتكلف المبالغ الطائلة » . ا . هـ

من مآثره :

قال عنه صاحب شذرات الذهب [1] : « ومن مآثره : مسجد

(١) الشذرات ، جزء ٨ صفحات ٧ و ٨

الخيف بمنى ، وحفر بنمرة صهريجاً ذرعه عشرون ذراعاً ، وعمر بركة خليص ، وأجرى العين الطيبة اليها ، وأصلح المسجد الذى هناك ، وأجرى عين عرفة بعد انقطاعها أزيد من قرن ، وعمر سقاية سيدنا العباس ، وأصلح بئر زمزم والمقام ، وجهز فى سنة ٨٧٩ ﻫ للمسجد منبراً عظيما . وكان يرسل للكعبة الشريفة كسوة فائقة جداً فى كل سنة . وأنشأ بجانب المسجد الحرام مدرسة عظيمة وبجانبها رباطاً مع إجراء الخيرات لأهلها كل يوم ، وسبيلا عظيما للخاص والعام ، ومكتباً للأيتام ، وكذا أنشأ بالمدينة النبوية مدرسة بديعة ، بل بنى المسجد الشريف بعد الحريق (١) وعمل ببيت المقدس مدرسة كبيرة . وعمر حصناً بالأسكندرية (٢) ومدرسة بالقرب منه ، وحصن ثغر دمياط ، وحصوناً برشيد ، ورم الجامع الأموى بدمشق ، وعمر بغزة مدرسة وجامعاً بالصالحية المعزية ، وجامع الروضة ، وجامع الكبش ، وتربة بصحراء مصر ، وقبة الإمام » .

قال السخاوى « وتكرر توجهه للقدس وثغور دمياط والأسكندرية ورشيد ، وأزال كثيراً من الظلامات ، وحج فى طائفة قليلة سنة ٨٨٤ ﻫ ، ووهب وتصدق وأظهر من التواضع والخشوع

---

(١) سنة ٨٨٦ ﻫ — (المؤلف) .

(٢) سنة ٨٨٢ ﻫ — (المؤلف) .

فى الطواف ما عد من حسناته. وأنفق أموالا كثيرة فى غزو الكفار ورباط الثغور وحفظ الأمصار » اه .

معاملته لأهل الذمة :

أحسن قايتباى معاملة أهل الذمة ، فمنع عنهم الظلم ، وأعطاهم كافة الحقوق التى منحها إياهم الإسلام .

من ذلك : أنه لما بلغه نبأ هدم كنيسة اليهود بالقدس الشريف بأمر قاضى القدس الشهاب بن عبية وتحريض البرهان الأنصارى ، أمر قايتباى بإعادة بناء الكنيسة المهدومة ، واستدعاء القاضى وكل من اشترك فى عملية الهدم . فلما اجتمعوا لديه عنفهم على جرمهم ، ثم أمر بضربهم ، فضربوا ضرباً شديداً (١)

وفاته :

وكانت وفاة هذا الملك العظيم آخر نهار الأحـــد سابع عشر ذى القعدة سنة ٩٠١ هـ ودفن يوم الاثنين بقبة بناها بتربة الصحراء شرق القاهرة ، (٢) بعد أن دام حكمه أكثر من تسعة وعشرين عاماً وكان حزن الناس عظيما لفقده .

***

وبعد وفاته بويع ابنه أبو السعادة محمد ولقب بالملك الناصر .

---

(١) الشذرات ، جزء ٨ ص ٨

(٢) فى « تاريخ مصر الحديث » الجزء ٢ للمرحوم جورجي زيدان أن وفاته كانت فى ٢٢ ذى القعدة ، ومدة حكمه ٢٩ سنة و ٤ أشهر و ٢٠ يوماً .

وتميز عصره بالفتن الكثيرة . وكان محمد لصغر سنه أحمق فلم يستطع أن يكبح جماح شهواته، ولذلك لم تمض ستة شهور على توليته العرش حتى اجتمع الأمراء وعزلوه ، مبايعين بالسلطنة الأمير قانصوه بن قانصوه ولقبوه بالملك الظاهر .

الملك الظاهر قانصوه بن قانصوه

(٩٠٤ — ٩٠٥هـ أو ١٤٩٦ — ١٤٩٧ م)

لم يقبل قانصوه هذا المنصب الخطير إلا مرغماً ، فقد كانت البلاد فى حالة قحط شديد،وأمور الدولة مضطربة ، وقد علا نجمه بسرعة ، وتمكن من القيام ببعض الإصلاحات .

وهو من الذين افتداهم السلطان قايتباى ، وتثقف ثقافة حربية تامة فى طباق القلعة المشهورة ، حيث كان يتخرج قادة الشراكسة وأمراؤهم. وكان نبيها حازماً ، فاستطاع بعد ست سنوات من تخرجه أن يقفز الى كرسى الملك .

ومن أعماله الحربية : إرساله حملة تأديبية الى حلب ، وبلاد التركمان ، حيث انتشر فيها نفوذ غريمه «أقبردى» الدوادار وأعوانه، فعادت تلك الحملة ومعها عدد كبير من أسراهم . (١)

وفى عهده قام البدو بغارات متعددة على المدن المصرية ، وحاميات الشراكسة، فبعث اليهم قانصوه بحملة تحت إمرة طومان باى

---

(١) عصر سلاطين المماليك صفحة ٧١

الدوادار ، فهزمهم ، وشتت شملهم ، وقبض على الكثير منهم ، واستاقهم إلى القاهرة مكبلين بالأغلال . وبعد هذا النصر المبين ، تآمر طومان باى مع الأمير جان بلاط على خلع قانصوه ، وتمكنا من ذلك عام ٩٠٥ هـ ، وبويع جان بلاط (أو جانبولاد) بالسلطنة ، ملقبا بالملك الأشرف .فقبض على قانصوه وسجنه بالاسكندرية . ولكن حكمه لم يدم أكثر من ستة أشهر ، اذ تآمر عليه شريكه طومان باى ، وتمكن بمساعدة بعض الجند من حصار السلطان بالقلعة ، والقبض عليه ، فنفاه الى الاسكندرية ، ثم قتله عام ٩٠٦ هـ ، واعتلى طومانباى كرسى السلطنة مكانه . إلا أن طومانباى كان مكروها لدسائسه الكثيرة ، ولاغتصابه العرش بدون مبايعة ، فلم تكد تمضى ثلاثة شهور على اعتلائه العرش حتى أجمع الأمراء أمرهم على التخلص منه ، فقبضوا عليه ، وأعدموه .

بعد ذلك اجتمع الأمراء والأعيان وتشاوروا فيما بينهم فيمن يجب أن يختاروا للعرش ، وقد عزموا هذه المرة أن يولوا رجلا لائقاً يستطيع اصلاح ما فسد ، فاجتمع رأيهم على مبايعة قانصوه الرابع الملقب بالغورى ، فلما بلغ الغورى أمر مبايعته رفض قائلا : « انى لا أخالف لكم أمراً انما أرانى غير لا ثق بهذا المنصب لأنى لم اعتد معاطاة الأحكام والأمر والنهى » . فأصروا عليه القبول ، فقبل بعد تردد قائلا « أكون فى غاية السرور إذا جئتمونى يوماً تنبئونى بالإقالة من هذا المنصب ، فأرجع الى ما اعتدته من معيشة السكينة » .

فولوه فى غرة شوال سنة ٩٠٦ هـ ودمعه يجـــرى ، ولقبوه بالملك الأشرف . (١)

الملك الأشرف قانصوه الغورى

(٩٠٦ — ٩٢٢ هـ أو ١٥٠١ — ١٥١٦ م)

نشأته :

ابتدأ الغورى حياته الرسمية بتعيينه خاصكياً (أى عضواً فى

---

(١) وصف ابن اياس فى تاريخه مبايعة الغورى بقوله : « فلما رأوا المجلس مانع (أى لم يستطع الاتفاق على أمر) تعصب الأمير قيت الرجبي أمير سلاح والأمير مصر باى ، إلى قانصوه الغورى ، وقالوا ما نسلطن الا هذا . فسحبوه وأجلسوه وهو يمتنع من ذلك ويبكى ،وربما كلمه مصر باى ومزق طوق ملوطته ، وهو يمتنع غاية الامتناع . فحضر الخليفة المستمسك بالله يعقوب ، وقاضى القضاة عبد الغنى ابن تقى المالكى ، والشهاب الشيشيني الحنبلى ، وتأخر قاضى القضاة الشافعى زين الدين زكريا ، وبرهان الدين الكركى الحنفى حتى يقع رأى الأمراء فيمن يولوه السلطنة . فكتب القاضى الحنبلى صورة محضر فى خلع العادل من السلطنة ، وشهد فيه جماعة كثيرة من الناس بأنه سفاك للدماء . ثم حضر القاضى الشافعي والقاضى الحنفى وعقدت البيعة لقانصوه الغورى . وبايعه الخليفة . وكانت سلطنته فى يوم الاثنين مستهل شوال سنة ست وتسعمائة .

ثم أحضر إليه شعار السلطنة ، وهى الجبة والعمامة السوداء ، فأفيض عليه ذلك . كل هذا وهو يمتنع ويبكى ، فلقبوه بالملك الأشرف ، وسما فى علوه وأشرف ، وكنوه بأبى النصر قانصوه الغورى ، وبه صارت مصر مشرقة بالنورى .

ثم قدمت له فرس النوبة بالسرج الذهب والكنبوش ، فركب من على سلم الحراقة التى بباب السلسلة ، فتقدم قيت الرجبى وحمل القبة والطير على رأسه ، وقد ترشح أمره إلى الأتابكية . فركب الخليفة عن يمين السلطان ، ومشت بين يديه الأمراء وهم بالشاش والقماش حتى طلع من باب سر القصر الكبير وجلس على سرير الملك . ثم دقت له البشائر بالقلعة ، ونودى باسمه فى القاهرة الخ ... »

الحرس السلطانى) فى عهد الملك جانبلاط . ثم عين حاجبا للحجاب (أى رئيسا للمحكمة العسكرية) فى حلب حيث برزت مواهبه . فرقى إلى رتبة أمير مائة مقدم ألف ، وبعد عامين عينه السلطان رأس نوبة النواب . وفى عصر طومانباى ولى الغورى الدوادارية الكبرى والوزارة والاستادارية . فكان له بذلك إلمام تام بمناصب الدولة الرئيسية .

صفاته :

وصفه ابن أياس بقوله : « كان طويل القامة ، غليظ الجسد ، ذا كرش كبير ، أبيض اللون ، مدور الوجه ، مشحم العينين ، جهورى الصوت ، مستدير اللحية ، ولم يظهر بلحيته شيب إلا قليلا .

« وكان ملكا مهيباً جليلا مبجلا فى المواكب ، ملء العيون فى المنظر . وكان يميل إلى الأبهة فى ملابسه ومواكبه ، كما كان ميالا للتنعم ، مولعاً بالفنون الجميلة . وكان يلبس فى أصابعه الخواتم الياقوت الأحمر والفيروز والزمرد والماس وعين الهر . وكان مولعاً بشم الرائحة الطيبة من المسك والعود والبخور ، وكان ترفا فى مأكله ومشربه وملبسه ، ويحب رؤية الأزهار والفواكه .

« وكان مولعاً بغرس الأشجار ، وحب الرياضات ، وسماع الأطيار المغردة ، ونشق الأزهار العطرة والبخور .

« وكان يستعمل الطاسات الذهب يشرب فيها الماء . وكان

يستعمل الأشياء المفرحة ، وكان نهماً فى الأكل ، وكان يغوى طيور المسموع » .

قال الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام بك: «هذه صفات تدل على رقة الطبع ، ودقة الإحساس ، والولوع بالجمال ، والاستمتاع بالعيش . ومن كانت هذه صفاته يبعد أن يكون ظالماً جباراً سفاكا للدماء ، قاسياً على الضعفاء » . (١)

وكان الغورى إذا أراد الاستراحة من عناء الملك خرج إلى مقياس الروضة أو قبة الأمير يشبك ، وأحضر خواصه وبعض المغنين والعازفين . وقد بلغ من شغفه بالغناء أنه ألف بعض الموشحات ولحن بعض القصائد .

اسمه :

قال صاحب شذرات الذهب :(٢) «سماه ابن طولون «جندب» ، وجعل قانصوه لقباً له . والغورى نسبة إلى طبقة « الغورى » ، إحدى الطبقات التى كانت بمصر معدة لتعليم المؤدبين » .

وقال الدكتور عبد الوهاب عزام بك فى كتابه «مجالس السلطان الغورى » : « إن الضبط الصحيح لهذا الاسم هو الغورى بفتح الغين لاضمها ، وحجتى فى هذا أن الاسم كتب بهذا الضبط على مصحف للسلطان فى « دار الكتب المصرية » .

وقد ورد مثل هذا الكلام فى كتاب « المزارات الإسلامية » الجزء الرابع . وفى رأينا أن هذا النطق هو الصحيح .

---

(١) مجالس السلطان الغورى — ص ١٥

(٢) جزء ٨ ص ١١٣

سياسته وفتوحاته :

وجه الغورى جهوده منذ أن اعتلى العرش إلى توطيد دعائم الأمن فى البلاد ، وجمع الأموال للإنفاق على مشاريعه العمرانية والحربية . وقد تمكن من ذلك بأن فرض ضرائب جديدة على السفن والجمال واليهود .

وكان ذا رأى وفطنة ، كثير الدهاء ، قمع فتنة الأمراء وأذل المعاندين حتى اشتد ملكه وعظمت هيبته ، فهادنه الملوك وأرسلت إليه قصادها . (١)

ويقول ابن اياس فى تاريخه (حوادث ربيع الآخر سنة ٩١٨ ﻫ):

« ومن العجائب أن فى هذا الشهر اجتمع عند السلطان نحو من أربعة عشر قاصداً . وكل قاصد من عند ملك على انفراده . فمن ذلك قاصد شاه اسماعيل الصوفى ، وقاصد ملك الكرج ، وقاصد ابن رمضان أمير التركمان ، وقاصد من عند ابن عثمان ملك الروم ، وقاصد يوسف ابن الصوفى خليل أمير التركمان ، وقاصد تونس ملك المغرب ، وقاصد من مكة ، وقاصد الملك محمود ، وقاصد ابن درغل أمير التركمان ، وقاصد من عند نائب حلب ، وقاصد من عند حسين الذى توجه إلى الهند ، وقاصد ملك الفرنج الفرانسة ، وقاصد البنادقة ، وقاصد على دولات ، وغير ذلك قصاد من عند جماعة من النواب » .

---

(١) شذرات الذهب جزء ٨ ص ١١٣

ومن أشهر أعماله السياسية ، تلك المعاهدة التى عقدها الغورى مع جمهورية فلورنسا بإيطاليا عام ٩١٠ هـ . وفيما يلى طرف منها : —

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا أمر السلطان السامى رفع الله شأنه وأعلى مقامه . إننـــا نعرف جميع الوكلاء والحكام وولاة المسلمين أن المؤدب « لويجى دبلاستوفا » المرسل من قبل السلطان حاكم الفلورنسيين ، تقدم إلى بابنا العالى وبعد أن أسعد بالجلوس فى حضرتنا السنية وعرض علينا باسم رئيسه الأشياء المتعلقة بأمته وتجارها والمعاهدات التجارية السابق عقدها مع السلاطين سلفائنا ، التمس من مراحمنا تجديد المعاهدات المذكورة ، وتثبيتها بأمر سام منـا . فبناء على ذلك أمرنا جميع عمالنا بأن يطيعوا أمرنا هذا ويقوموا بتنفيذ المعاهدات الآتى ذكرها بمزيد العناية والدقة » .

وفى عصره كشف البرتغاليون الطريق البحرى إلى الهند حول القارة الافريقية (عام ١٤٩٨ م) ، فنقصت بذلك تجارة مصر وما كانت تجنيه من الأرباح . ولم يكفهم ذلك ، بل أخذوا يصادرون السفن المصرية ، ويهاجمون الشواطىء المصرية والبلاد التابعة لهـا ، فجهز الغورى حملة بحرية لمحاربة البرتغاليين وعقد لواءها للأمير حسين الكردى (عام ٩٠٩ هـ — ١٥٠٣ م) . الا أن هذه الحملة باءت بالفشل .

وقد تمكن الغورى فى هذه الأثناء من توطيد علاقاته بملك إسبانيا ، فعقد معه معاهدة صداقة وسلام . وقد حاول الغورى

استغلال هذه العلاقة الطيبة فى الحد من عدوان البرتغاليين ، فوسط ملك إسبانيا بينه وبين البابا لحمله على التأثير على البرتغاليين لوقف عدوانهم . فلما لم تفلح وساطة ملك إسبانيا ، أرسل الغورى رئيس أساقفة سينا إلى البابا مع خطاب شكوى ، به بعض التهديد ، ولكن بدون فائدة . وفى سنة ١٥٠٤ م دمر البرتغاليون ١٧ سفينة مصرية وعربية فى الخليج الهندى. فأرسل الغورى قائده الأمير حسين لتحصين ميناء جدة وسائر الشطوط العربية، وجعل جدة قاعدة لأسطوله فى الشرق . وفى سنة ١٥٠٨ م قامت معركة بحرية بين الأسطول المصرى وقائده الأمير حسين ، وأسطول البرتغاليين بقيادة لورنزو . وقد انضم فى هذه المعركة الأمير الهندى المسلم ديو (Diu) إلى المصريين ، فهزموا البرتغاليين ، وقتلوا لورنزو وأغرقوا سفينته . وفى السنة التالية انتقم البرتغاليون لهذه الهزيمة النكراء ، وانسحب حسين بأسطوله إلى البحر الأحمر . فلحقه البرتغاليون وهاجموا ميناء عدن ، ولكنهم ردوا على أعقابهم :

وفى أثناء هذه الحروب ، افتتح الكردى بلاد اليمن من ملوكها بنى طاهر ، وترك بها نائبا اسمه « برسباى الجركسى » . وعاد الأمير حسين إلى مصر لتجهيز حملة جديدة لسحق قوات البرتغاليين نهائيا . وسارت هذه الحملة الجديدة إلى الهند عام ٩١٧ هـ . ولكنها عندما وصلت جدة ، كانت الأحوال السياسية والحربية قد تطورت فى

سوريا ومصر نفسها تطوراً جديداً سريعاً ، إذ وجد الغورى نفسه أمام عدو جديد (١) .

***

فى سنة ٩١٨ ﻫ ، استعد السلطان سليم بن بايزيد العثمانى لافتتاح مصر بعد قهره جيوش الفرس . واقترن ذلك بان تخاصم السلطان العثمانى مع أخيه كركود كما حصل بين بايزيد وجم قبلهما . فالتجأ كركود إلى الغورى فى مصر ، وطلب معونته لاسترجاع عرشه ، على أن يكون حليفاً للغورى بعد ذلك . وقد رأى السلطان الغورى أن يمد له يد المساعدة ، فجهزه بعشرين بارجة حربية ، وسيرها على استانبول لافتتاحها . الا أن الأفرنج اعترضوا هذه السفن فى البحر ، وتمكنوا من تشتيتها . فعمد الغورى إلى مخابرة العثمانيين بالصلح وبعث برسله إلى السلطان سليم ومعهم تعليمات بالحصول على الصلح على أى وجه كان . الا أن السلطان سليم ، الذى أسكرته خمرة الانتصار أكثر من مرة ، قابل هؤلاء الرسل بجفاء ، وخاطبهم قائلا : « لقد فات الأوان . ارجعوا إلى سلطانكم وقولوا له ان القدم لاتعثر بحجر اكثر من مرة . وها انذا ذاهب لافتتاح القاهرة . فليستعد للدفاع إن كان له أهلا » .

---

(١) وأما الكردى ، فقد أصدر السلطان سليم العثمانى أوامره إلى شريف مكة بقتله ، فأخذه شريف مكة غيلة وقيده وأرسله إلى البحر قرب جدة حيث أغرقه . وهكذا كانت نهاية هذا القائد البحرى العظيم .

سار سليم بعد ذلك على رأس جيش كبير ، مجهز بالمدافع الحديثة ، ووجهته سوريا . وكان الغورى قد جمع جيشه وسار على رأسه لمواجهة الترك الزاحفين . فالتقى الجيشان بالقرب من حلب عند مرج دابق فى أغسطس سنة ١٥١٦ م . واستطاع فرسان الشراكسة الشجعان أن يسجلوا انتصاراً جزئياً فى أول المعركة . الا أن الخيانة دبت فى صفوفهم، فانسحب من المعركة كل من خاير بك نائب حلب ، وجان بردى الغزالى نائب حماة ، وتركوا الغورى يقاتل بجيشه الذى خرج به من مصر ، فهزمت جيوشه ، وأوقعت بها المدفعية العثمانية خسائر فادحة ، ولم يكن سلاح الشراكسة غير السيف والحراب والرماح (١) . وسقط الغورى نفسه قتيلا تحت أرجل الخيل فى ٢٥ رجب سنة ٩٢٢ هـ بعد أن حكم مدة ١٥٧ سنة وتسعة أشهر و ٢٥ يوما .

أعماله ومنشآته :

يعود الفضل إلى السلطان الغورى فى تنشيط الزراعة فى مصر ، وخصوصاً زراعة الفواكه . فقد استجلب الأشجار والغرس من البلاد المجاورة ، وخط كثيراً من البساتين ، وشق اليها الترع ، فازدهرت الحالة الزراعية فى البلاد ، وغنى الزراع .

ومن أهم منشآته فى القاهرة ، ميدان القلعة . وعنه يقول ابن اياس فى حوادث جمادى الآخرة سنة ٩١٤ هـ ما يلى :

---

(١) الأستاذ جورجى زيدان فى كتابه تاريخ مصر الحديث جزء ٢

« وفيها كان انتهاء العمل فى المجراة التى أنشأها السلطان كما تقدم ، فدارت هناك الدواليب وجرى المـــاء فى المجراة حتى وصل إلى الميدان الذى تحت القلعة .

« ثم إن السلطان صنع هناك سواقى نقالة . وبنى ثلاثة صهاريج تمتلىء من ماء النيل برسم الأمراء الذين يلعبون الرمح فى الميدان . وشرع فى بناء بحرة فى وسط ذلك البستان الذى أنشأه بالميدان ، فكان طول تلك البحرة نحو من أربعين ذراعاً ، وقيل أكثر من ذلك . وبنى هناك عدة مقاعد ومناظر مطلات على ذلك البستان » .

وقال فى حوادث ذى الحجة سنة ٩١٥ مايلى :

« وفى هذه السنة أينعت الأشجار التى غرسها السلطان بالميـــدان وأخرجت ما شتله بها من الأزهار ما بين ورد وياسمين وبان وزنبق وسوسان وغير ذلك من الأزهار الغريبة . ولقد عاينت به ورداً أبيض ذكى الرائحة وهو غير أنواع الورد التى بمصر وقد نقل من الشام . وكان يطرح فى أوان الصيف والنيل فى قوة الزيادة ، وهو نوع غريب لم يوجد بمصر .

« فكان السلطان يوضع له دكة كبيرة مطعمة بالعاج والأبنوس ويفرش فوقها مقعد مخمل بنطع ويجلس عليه ، وتظله فروع الياسمين ، وتقف حوله المماليك الحسان بأيديهم المذبات ينشون عليه . ويعلق فى الأشجار أقفاص فيها طيور مسموع ما بين هزارات ومطوق وبلابل

وشحارير وقمارى وفواخت وغير ذلك من طيور المسموع . ويطلق بين الأشجار دجاج حبشى وبط صينى وحجل وغير ذلك من الطيور المختلفة » .

وقال صاحب شذرات الذهب : « وكانت فيه (أى السلطان) خصال حسنة . وكان يصرف لمطبخ الجامع الأزهر فى رمضان ٦٧٠ ديناراً و ١٠٠ قنطار عسل و ٥٠٠ أردب قمح . وفى أيامه بنى دائرة الحجر الشريف ، وبعض أروقة المسجد الحرام ، وباب إبراهيم ، وجعل علوه قصراً شاهقاً وتحته ميضأة . وبنى عدة خانات وآبار فى طريق الحج ، منها خان فى العقبة والأزلم . وبنى مدرسة بسوق الجلون بالقاهرة والتربة المقابلة لها والمأذنة المعتبرة بالجامع الأزهر ، والبستان تحت القلعة ، والمنتزه العجيب بالملقة ، وأنشأ مجرى الماء من مصر إلى القلعة، وعمر بعض أبراج الإسكندرية، وغير ذلك من جوامع وقصور ومنتزهات » .

ولعل من أهم آثاره الخالدة الجامع والقبة والسبيل التى فى الغورية ، وجامع القلعة ، وخان الخليلى ، وقصر المقياس فى الروضة ، وقاعة العواميد والدهيشة فى القلعة.

وفى تاريخ ابن إياس عن الغورى وأعماله ما يلى :

« ثم إن السلطان نقل المصحف العثمانى إلى مدرسته أيضاً ، وعد ذلك من النوادر. ثم نقل إلى المدرسة أيضاً الربعة العظيمة المكتوبة

بالذهب التى كانت بالخانقـاه البكتمرية التى بالقرافة . قيل إن مشتراها على الواقف ألف دينار . ولم يكتب نظير هذه الربعـة سوى ربعـة أخرى بخانقاه سرياقوس اشتراها الملك الناصر محمد بن قلاوون بألف دينار أيضاً ، وأخرى بالمدينة الشريفة .

« وقد وقع للأشرف قانصوه الغورى فى مدرسته من المحاسن ما لا وقع لأحد قبله من الملوك ، وحاز فيها أشياء غريبة عزيزة الوجود .

« ولما نقل الآثار الشريف والمصحف العثمانى إلى مدرسة السلطان كان له يوم مشهود ، ونزل قدامه القضاة الاربعة والاتابكى قيت ، وجماعة من الأمراء المقدمين والفقراء أرباب الزوايا والأعلام وهم يذكرون » .

وقد أنشأ الغورى غير ذلك كثيراً من القلاع والجسور والترع والسبل ودور اليتامى ، ولا زالت بعض آ ثاره باقية إلى اليوم تدل على عظمة منشئها ومبلغ التقدم فى عصره .

طرف من سيرته :

كان الغورى براً بالفقراء كثير الصدقات وكان يحب أن يتصدق على الفقراء بيده . ومن ذلك قول ابن إياس فى حوادث المحرم سنة ٩١٢ هـ :

« وفيه يوم عاشوراء أمر السلطان بأن تجمع الفقراء والحرافيش عند سلم المدرج فاجتمع هناك الجم الغفير من الفقراء والحرافيش

ونزل السلطان بنفسه ووقف وهو راكب على فرسه تحت سلم المدرج وصار يعطى لكل إنسان من الفقراء من رجل وامرأة وكبير وصغير أشرفى ذهب ، فوقع الازدحام بين الفقراء حتى قتل منهم ثلاثة أنفار من شدة ازدحامهم . وقيل أنه فرق فى ذلك اليوم نحواً من ثلاثة آلاف دينار » .

وكان الغورى شديد المحافظة على الدين والأخلاق ، وقد أمر الناس بالابتعاد عن المعاصى ، ومنع حمل السلاح بعد المغرب ، كما أمر بالمواظبة على الصلوات الخمس فى الجوامع (١) .

وقد أجمل ابن اياس صفاته الخلقية فى تاريخه بقوله : (٢)

« فأما ماعد من محاسنه : فإنه كان رضى الخلق يملك نفسه عند الغضب ، وليس له بادرة بحدة عند قوة خلقه . ومنها أنه كان له اعتقاد زايد فى الصالحين والفقراء . ومنها أنه كان يعرف مقادير الناس على قدر طبقاتهم . ومنها أنه كان ماسك اللسان عن السب للناس فى شدة غضبه . ومنها إنه كان يفهم الشعر ويحب سماع الآلات والغناء ، وله نظم على اللغة التركية . وكان مغرما بقراءة التواريخ والسير ودواوين الأشعار . وكان قريباً من الناس يحب المزاح والمجون فى مجلسه . غير كثيف الطبع فى ذاته . وكان عنده لين جانب ورياضة بخلاف طبع الأتراك . ولم يكن عنده شمم ولا تكبر نفس » .

---

(١) تاريخ ابن اياس — حوادث رجب سنة ٩١٥ هـ

(٢) » » » — حوادث رمضان سنة ٩٢٢ هـ

علمه ومعارفه :

كان الغورى ذا حظ كبير من المعارف العامة والعلوم الدينية حتى إنه كان يبذ فى هذا الميدان كثيراً من الفقهاء. وكان خبيراً فى النحو والبلاغة، مولعاً بقراءة كتب التاريخ والسير والقصص، وكان له نظم وألحان يتغنى بها، ويعرف لغات عديدة منها : العربية والشركسية والتركية والفارسية والأرمنية والكردية .(١)

وفى أواخر القرن التاسع الهجرى قدم القاهرة رجل عربى الأصل شريف النسب إسمه حسين بن حسن بن محمد الحسينى الآمدى، وقد اتصل بالسلطان الغورى، فأمره السلطان بترجمة الشاهنامة إلى اللغة التركية، فامتثل بأمره، وأتمه فى عشر سنين آخرها سنة ٩١٦ هـ.
وكان للسلطان الغورى مجالس تجمع العلماء والقضاة وأكابر الدولة وتطرح فيها للبحث مسائل شتى. وقد سجل الشريف المذكور كثيراً من مسائل هذه المجالس فى كتابين يصوران تصويراً حسنا كثيراً من أحوال مصر فى عهد السلطان الغورى هما : كتاب نفائس المجالس السلطانية فى حقائق الأسرار القرآنية، والثانى اسمه الكوكب الدرى فى مسائل الغورى .(٢)

ألقاب الغورى :

وفيما يلى ألقاب الغورى كما جاءت فى كتاب « نفائس المجالس السلطانية » :—

(١) النفائس ص ١٣٣

(٢) تجد مختارات من هذين الكتابين فى كتاب « مجالس السلطان الغورى » للدكتور عبد الوهاب عزام بك .

« ظل الله فى الأرضين ، ناظر حرم رب العالمين ، سلطان العرب والعجم ، صاحب البند والعلم ، حافظ بلاد الله ، ناصر عباد الله ، أمير المؤمنين ، وخليفة المسلمين . الملك الأشرف عزيز مصر ، أبو النصر ، قانصوه الغورى أعز الله أنصاره ، وضاعف اقتداره » .

رأى الغورى فى أصل الشراكسة :

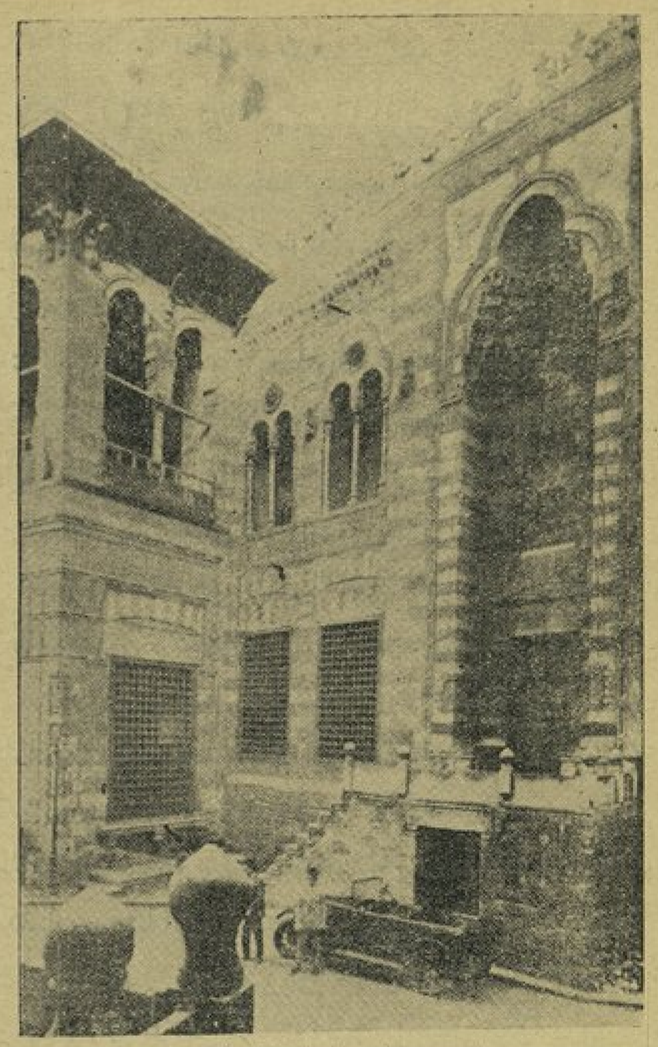
سئل الغورى مرة : ما معنى الجركس ؟ فأجاب : أصل الجركس هو صاركس . جاء بنى غسان فى خلافة عمر بن الفاروق رضى الله عنه وأسلموا وحجوا . وكان سلطانهم فى الطواف وقدم فقير عليه فدفعه فوقع ومات الفقير . فجاء جماعة الفقير وطلبوا من القاتل الدم فحكم عمر بقتل القاتل أو يرضيهم وما رضوا منه إلا بقتله .

قال السلطان : أمهلونى ثلاثة أيام . وفى ذلك الليل هرب وجاء عند هرقل القيصر وتنصر فبعثهم هرقل الى بلاد الدشت ، والجركس من نسلهم» (١).

والظاهر من ذلك ، أن الغورى كان يريد أن ينسب الشراكسة للعرب ، وكان ذلك لغرض سياسى محض . والحكاية التى ذكرها الغورى هى حكاية جبلة بن الأيهم مع عمر بن الخطاب ، مع بعض التحريف .

---

(١) نفائس المجالس السلطانية . راجع «مجالس السلطان الغورى» للدكتور عبد الوهاب عزام بك .



إحدى وجهات جامع السلطان الغورى

الملك الأشرف طومان باى

(٩٢٢ — ٩٢٣ هـ أو ١٥١٦ — ١٥١٧ م)

بويع طومان باى بالسلطنة بعد وصول نبأ مقتل الغورى القاهرة، ولقب بالملك الأشرف أيضاً. وطومان باى هو ابن أخى السلطان السابق، وفى شجاعته ، وغزارة علمه ، واستقامته . وقد وجد نفسه عند اعتلائه العرش أمام مشاكل جسام أهمها معالجة الغزو العثمانى لبلاده. فكان أول شىء عمله أن أمر بإعداد حملة جديدة لمحاربة العثمانيين ، واستعد للخروج على رأسها . وبينما هو كذلك ، إذ وصله خطاب من السلطان سليم جاء فيه ما يلى : —

« من السلطان سليم خان بن السلطان بايزيد خان سلطان البرين وخاقان البحرين ، السلطان الخ ... الى طومان باى الشركسى .

« الحمد لله . أما بعد ، فقد تمت إرادتنا الشاهانية وباد اسماعيل شاه الهرطوقى. أما قنصوه الكافر الذى حملته القحة على مناوأة الحجاج فقد نال جزاءه منا ، ولم يعد لدينا إلا أن نتخلص منك ، فإنك جار معاد ، والله سبحانه وتعالى يساعدنا على معاقبتك . فإذا أردت اكتساب رحمتنا الملوكية اخطب لنا واضرب النقود باسمنا وتعال إلى أعتابنا وأقسم على طاعتنا والإخلاص لنا وإلا ... »

فلما قرأ طومان باى هـذا الخطاب استشاط غضباً وصمم على القتال ، فإما أن يهلك أو ينقذ بلده وملكه .

سقوط القاهرة :

أما السلطان سليم ، فاستأنف زحفه على مصر ، واحتل غزة والعريش ، متجهاً نحو القاهرة . فخرج إليه طومان باى ، والتحم الجيشان فى سهل قرب بركة الحج يوم الجمعة فى ٢٩ ذى الحجة سنة ٩٢٢ ﻫ ، واقتتلا طويلا . وقد أظهر الشراكسة وقائدهم طومان باى فى هذه المعركة بسالة متناهية ، ولكن مدافع العثمانيين غلبت شجاعتهم ، ففروا عائدين إلى القاهرة ، وزحف العثمانيون حتى احتلوا الروضة . فعاود طومان باى الهجوم بمساعدة بعض العربان الذين أغراهم بالمال ، ولكن هجومه فشل هذه المرة أيضاً لنفس السبب . فعاد إلى القاهرة وتحصن بها ، وأقام في كل شارع وكل بيت طابية ، وحمل السلاح كل من يستطيع حمله للمدافعة عن الوطن . إلا أن العثمانيين تمكنوا — بالرغم من كل ذلك الاستعداد — من التغلب على جنود طومان باى ، واحتلوها عنوة ، وأمعنوا فيها قتلا وحرقاً وتخريباً .

إلا أن احتلال القاهرة قد كلف العثمانيين خسائر فادحة ، وفقد السلطان سليم وزيره الأول سنان باشا فى المعركة . وقد تمكن طومان باى من إحراز عدة انتصارات جزئية ، الا أن استعمال العثمانيين للبارود (ولم يكن معروفا بعد فى مصر) غير وجه التاريخ ، وقلب الميزان لصالح الغزاة .

وبعد استيلاء العثمانيين على القاهرة ، التجأ طومان باى إلى الدلتا ، واختبأ عند العربان ، فخانوه وسلموه للسلطان سليم ، مغلول

الأيدى ، وقد علا وجهه القنوط لما حل ببلاده من الذل والدمار . وبعد عشرة أيام أمر السلطان سليم بقتله ، فشنقوه فى ١٩ ربيع أول سنة ٩٢٣ (١٥١٧ م) على باب زويلة ، وعلقوا جثته بكلاب من حديد ، وبقيت معلقة عدة أيام ، إلى أن أمر السلطان سليم بإنزالها وصرح بالدفن .

* * *

هكذا انتهت دولة الشراكسة فى مصر ، وأصبحت مصر منذ ذلك التاريخ إيالة عثمانية .

أهم الآثار التى شيدت فى عهد دولة الشراكسة من سنة ٧٨٤ الى ٩٢٣ ﻫ (١٣٨٢ — ١٥١٧ م)

أسمـــاء الآثار	تاريخها الهجرى	تاريخها الميلادى	موقعهـــا
خانقاه الظاهر برقوق (جامع)	٧٨٦ — ٧٨٨	١٣٨٤ — ١٣٨٦	شارع النحاسين
« وتربة الظاهر برقوق (جامع) ...	٨٠٣ — ٨١٣	١٤٠٠ — ١٤١١	« قايتباى بمدافن الخلفاء
مدرسة جمال الدين الاستادار (جامع) ...	٨١٠ — ٨١١	١٤٠٧ — ١٤٠٩	« التمبكشية بالجمالية
الجامع المؤيدى	٨١٨ — ٨٢٣	١٤١٥ — ١٤٢٠	« السكرية
البيمارستان المؤيدى	٨٢١	١٤١٨	سكة السكوى بالمحجر
جامع الأشرف برسباى	٨٢٦ — ٨٢٧	١٤٢٤ — ١٤٥٣	شارع الأشرفية
جامع جانى بك	٨٣٠	١٤٢٧	« المغربلين
خانقاه الأشرف برسباى (جامع)	٨٣٥	١٤٣١	صحراء قايتباى (مقابر الخلفاء)
تربة السلطان ينال (جامع)	٨٥٥ — ٨٦٠	١٤٥١ — ١٤٥٦	شارع السلطان أحمد بقرافة قايتباى
رباط زوجة السلطان ينال	٨٥٥ — ٨٦٠	١٤٥١ — ١٤٥٦	« الخرنفش
آثار السلطان قايتباى	٨٧٧ — ٨٧٩	١٤٧٢ — ١٤٧٥	« قايتباى
مدرسة ابن بردبك (جامع محمد بن بردبك)	حوالى ٨٩٥	حوالى ١٤٨٩	« أم الغلام
مسجد السلطان قايتباى	٨٨٠	١٤٧٥	« قلعة الكبش

(تابع) أهم الآثار التى شيدت فى عهد دولة الشراكسة من سنة ٧٨٤ الى ٩٢٣ ﻫ (١٣٨٢—١٥١٧ م)

أسماء الآثار	تاريخها الهجرى	تاريخها الميلادى	موقعها
وكالة السلطان قايتباى	٨٨٢	١٤٧٧	شارع الأزهر
وكالة قايتباى	٨٨٥	١٤٨٠	» باب النصر
سبيل وكتاب قايتباى	٨٨٤	١٤٧٩	» شيخون
قبة الفداوية	٨٨٤—٨٨٦	١٤٧٩—١٤٨١	» العباسية
بيت السلطان قايتباى	٨٩٧—٨٩٨	١٤٩٢—١٤٩٣	سكة الماردانى
مقعد ماماى (مقعد بيت القاضى)	٩٠١	١٤٩٦	ميدان بيت القاضى
جامع وسراى خايربك	٩٠٨	١٥٠٢—١٥٠٣	شارع باب الوزير
مدرسة قانباى أمير آخور (جامع)	٩٠٨	١٥٠٢—١٥٠٣	ميدان صلاح الدين بأول درب اللبان
مدرسة قانباى أمير آخور (الرماح) (مسجد)	٩١١	١٥٠٥	شارع الناصرية
مدرسة وتربة وسبيل ومقعد السلطان الغورى	٩٠٩—٩١٠	١٥٠٣—١٥٠٤	» الغورية
وكالة السلطان الغورى	٩١٧	١٥١١—١٥١٢	» التبليطة
أبواب خان الخليلى	٩١٧	١٥١١—١٥١٢	خان الخليلى
تربة قرقماس أمير كبير	٩١١—٩١٣	١٥٠٥—١٥٠٧	شارع السلطان أحمد بقرافة قايتباى

الفصل الثانى

الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية

فى عصر الدولة الشركسية

مع تراجم مختصرة لأشهر رجال هذا العصر

السلطان :

كان مقر إقامة السلطان وأسرته فى القلعة. وكان المسؤول الأول عن الدولة، والمهيمن على شؤونها. ويساعد السلطان فى الحكم مجلس مكون من تسعة أشخاص ، وردت ألقابهم فى صفحة سابقة من هذا الكتاب . وكان بيد هذا المجلس إعلان الحرب وإبرام الصلح . إلا أن السلطان متى كان قوياً مرهوباً ، كان يفرض إرادته على سائر الأمراء ، ويستأثر بالسلطة المطلقة .

ولم يكن للسلطنة نظام قائم . وكان كل أمير أو زعيم أو قائد أهلا للعرش ، متى توفرت فيه الصفات المطلوبة . فإذا اجتمع رأى الأمراء والزعماء على واحد ، بايعوه بالسلطنة مدى الحياة ، ولقبوه بألقاب منها : الناصر ، الأشرف ، المنصور ، الظاهر ، المؤيد وغيرها من ألقاب الملك .

وكما كان الامراء هم أصحاب الأمر فى تولية السلطان ، كانوا هم كذلك أصحاب الأمر فى خلعه . وكان الخلع يتم لاكثر من سبب واحد ، أهمها عدم صلاحية السلطان للحكم والتنافس على العرش .

وكان الأمراء ينقسمون أحياناً فيما بينهم عند المبايعة ، وفى هذه الحالة يتولى العرش السلطان الذى تسنده أقوى الاحزاب . ولما كان الأمراء فى الغالب ذوى نفوذ على الجند ، لذلك كان للجيش أثر كبير فى تولية السلطان أو عزله .

ولكى تصبح بيعة السلطان تامة ، كان يبايعه الخليفة والقضاة الأربعة . ولكن حدث أن تمكن السلاطين من خلع الخلفاء بل وسجنهم أيضاً ، كما حدث الواثق بالله ، وكانت بيعة الخليفة فى الغالب صورية ، إذ كانوا يبايعون من اتفق الأمراء على توليته .

الوزراء :

ألغيت الوزارة فى عهد برقوق مؤسس الدولة الشركسية ، وأنشأ ـ كما تقدم ـ مجلس السلطنة من تسعة أمراء .

وقد أعيد تشكيل هذا المجلس على أوجه أخرى فى عصور من خلفه من السلاطين .

الولاة والحكام :

كان سلاطين الشراكسة يقيمون الولاة على الأقاليم المصرية ، و « الأمراء » على الولايات الخارجية (السورية وغيرها). وهؤلاء الولاة والأمراء يقسمون يمين الطاعة للسلطان ، ولكنهم كثيراً ما كانوا يشتركون فى الثورات ضد العرش ، ويرجحون كفة على أخرى ، ولذلك كان يصيبهم من العزل والتولية الشىء الكثير .

القضاة :

كان يتولى الإدارة القضائية فى السلطنة أربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربعة ، وهؤلاء يختارون نوابهم فى أنحاء السلطنة المصرية. إلا أن سلطة هؤلاء القضاة لم تكن تتعدى المدنيين، إذ كان للجيش قضاته ، وكان كل منهم يعرف باسم « قاضى العسكر » .

ويلى القضاة فى الأهمية ، مفتو دار العدل ، وعددهم أربعة أيضا يمثلون المذاهب الأربعة .

وقد بلغ راتب القاضى فى ذلك العصر خمسين ديناراً ، بخلاف ما كان يحصل عليه من الأوقاف المتنظر عليها ، وما كان يجرى عليه من طعام وكساء .

وقد اشتهر قضاة هذا العصر بأنهم ما كانوا يقبلون الرشوة أو الهدية ، كما عرفوا بطهارة الذمة والمحافظة على هيبة القضاء واستقلاله .

الجيش :

كان يقود الجيش أمير يسمى «أتابك». وكثيراً ما كان الأتابك يقفز الى كرسى السلطنة بسبب نفوذه على العسكر .

وكان يتألف الجيش من فرسان الشراكسة ، ولم يسمح لغيرهم بالانخراط فى صفوف الجيش العامل ، فقصروا بذلك الجندية على أنفسهم .

وكان جميع الأمراء بلا استثناء يعتبرون أعضاء عاملين فى الجيش.

وكان لكل خمسة جنود عريف ، وكذا لكل عشرة . ولكل أربعين فارساً «أمير» يدعى «أمير طبلخانة» . وقائد المائة كان يسمى أمير مائة مقدم ألف (أى يتقدم على ألف أمير) . وهذه الرتبة تلى الأتابكية فى الأهمية . وبلغ عدد أمراء المائة فى عهد السلطان الغورى ستة وعشرين أميراً .

وكانت تمنح الرتب العسكرية فى احتفالات عظيمة ويمنح الأمير الجديد خيلا وقماشاً ومالا ويفرد له إقطاع جديد يناسب لقبه .

وأما أسلحتهم فكانت السيف والرمح والخنجر والقوس والبلطة والفأس والمنجنيق والنار اليونانية . وكانوا يلبسون الزرد والخوذ فى المعارك ، ويصنعونها فى مصر .

وكان قواد الجيش وأمراؤه يتلقون دروسهم الحربية فى « طباق القلعة » ، وكانت الفروسية فى أيامهم فنا عظيم الشأن ويقضون أوقات فراغهم بالتدرب عليها ، أو تنظيم حلقات المبارزة ، والمصارعة ، فكانت فنون الحرب أحب الهوايات إلى نفوسهم .

وكانت تصاحب الجيش فرق الموسيقى ، كما كان لكل فرقة علمها الخاص ، تتميز به ، وتلتف حوله ، وتقاتل من أجل الرمز الذى يهدف إليه ، وهو : الوطن .

وقد عنى سلاطين الشراكسة بالبحرية أيما عناية ، وقاموا بكثير من الغزوات البحرية الموفقة ، كما تقدم ذكره .

أشهر القادة (الأتابكة) :

ولما للأتابكة من الأهمية فى إدارة شؤون الدولة وتوطيد سلطانها، نورد فيما يلى تراجم مختصرة لأهمهم :

١ — ينال اليوسفى — أتابك السلطان برقوق ، وكان فى يوم ما من الثائرين عليه ، ثم اختلف مع برقوق على أمرما ، فعزله ، وعين مكانه الأمير كمشبغا الحموى .

٢ — كمشبغا الحموى — قام بعدة غزوات موفقة ضد منطاش عدو السلطان ، وأخمد ثورة بعض قبائل العربان، وكان قبل تعيينه فى منصب الأتابكية أميراً لحلب فى سوريا .

٣ — بيبرس الركنى — كان دواداراً فى عهد السلطان برقوق، وهو قريبه . وكانت له يد طولى فى إخماد بعض الفتن الداخلية ، ولما توفى برقوق ، ثبته ابنه فرج على الدوادارية ، ثم رقاه إلى رتبة الأتابكية بعد فرار الأتابكى السابق إيتمش إلى دمشق .

وقد اشترك بيبرس الركنى فى حملات السلطان لصد زحف التتار بقيادة تيمورلنك . وأبلى فى هذه الحروب بلاء حسنا .

٤ — جرباش الشركسى المحمدى — كان أميراً للبواخير فى عهد

السلطان ينال العلائى ، ثم رقاه السلطان إلى وظيفة «أمير المجلس» .
وفى عهد السلطان احمد بن ينال ترقى إلى رتبة أمير سلاح عوضاً عن
الأمير خوش قدم الذى رقى إلى رتبة الاتابكية . ولما آلت السلطة إلى
خوش قدم رقاه إلى رتبة الاتابكية مكانه (عام ٨٦٥ هـ) .

وكان محبوباً من الأمراء ، مهيباً محترما حتى أن الامراء أجمعوا
أمرهم على تعيينه سلطانا بدل خوشقدم (وهو كما من أصل يونانى) .
فلما علم جرباش برغبة الامراء اختفى عن عيونهم فى تربة الظاهر
برقوق ، ولكنهم لحقوا به ، ولما وجدوه استلوا سيوفهم وأكرهوه
على الركوب معهم ، ونشروا فوقه أعلاما سلطانية ودخلوا بهذا
الموكب مدينة القاهرة من باب النصر ، ولذلك لقبوه بالملك الناصر .
إلا أن هذه الخطة لم يحكم وضعها ولا تنفيذها ، ففتك خوشقدم
بالموكب ، وقبض على جرباش ، وكان السلطان يقدره فأكرمه ،
وأمره بأن يبقى فى القاهرة ، فقضى بقية حياته متعطلا حتى وافته
منيته فى رمضان سنة ٨٧٧ هـ عن واحد وتسعين عاما .

وزوجته بنت السلطان فرج بن برقوق . وكانت شقراء ، عرفت
بالملاحة والجمال المتناهى .

٥ — الأمير يشبك بن مهدى — وكان من أشجع رجال هذا
العصر وأبعدهم همة ، أبيض ، مستدير الوجه ، أشقر الشعر ، حلو
الملامح . عينه السلطان قايتباى أتابكا فى ربيع الأول سنة ٨٧٣ هـ ،

وأسند إليه بالإضافة إلى ذلك منصب الوزارة . وإليه يعود الفضل فى إطفاء ثورة العربان فى الوجه القبلى ، وعربان الوجه البحرى من بعدهم .

وقد بلغ من ثقة السلطان به أن زوده عند خروجه على رأس الحملة لمحاربة ملك الأبلستين (١) بخمسمائة علامة بيضاء موقعة بإمضاء السلطان ليكتب فيها ما يشاء من الأوامر والتعيينات . وأضاف إلى منصبيه منصب الدواداريه . وقد تمكن يشبك من سحق جيوش عدوه وأكره ملكهم سيوار على التسليم بعد محاصرته فى القلعة ، وأحضره أسيراً إلى القاهرة بعد أن ولى أخاه مكانه مع خضوعه لسلطان مصر . وبعد عودة يشبك إلى القاهرة مع أسراه ، لقيه الناس أحسن لقاء ، وزينوا المدينة ، وفرشوا له الأرض .

وبعد شهرين من انتهاء هذه الحملة ، أرسله السلطان فى حملة جديدة لمحاربة ملك العراق ، وكان يغير من حين لآخر على أملاك السلطان فى سوريا ويغزو مدنها ، فسار يشبك على رأس هذه الحملة الجديدة ، وعددها لايزيد على ألفى جندى . فبلغ بهم مدينة حلب ، وحارب ملك العراق المدعو حسن الطويل ، وأجلاه عن الأقطار السورية كلها . ثم قفل عائداً إلى مصر ، فبلغ القاهرة فى رمضان سنة ٨٧٨ هـ .

---

(١) وهم من التركمان . وقد بلغت حدود مملكتهم أطراف العراق الشمالية .

وقد صحب يشبك السلطان قايتباى فى رحلته إلى بيت المقدس عام ٨٨٠ هـ .

وفى عام ٨٨٢ هـ ، تفرغ الامير يشبك لبعض المشاريع العمرانية . فوضع مشروعا اصلاحياً استغرق تنفيذه زمناً طويلا ، وتضمن انشاء طرق جديدة ، وتوسيع القديم منها ، وإقامة الاسواق وبناء المدارس ، ونزع لهذا السبب ملكية بعض الاراضى ، فتألم بعض الناس وتذمروا ، على مافيه من مصلحة عامة تعود على الجميع .

ومما يؤخذ على يشبك أنه كان جباراً لايرحم ، ويأخذ المعتدين بالقصاص الشديد . من ذلك تعذيبه لأمين بيت المال إثر اكتشاف سرقته لأموال الدولة ، فقد قيل أنه ضربه نحو ٢٦٠ عصا ، وخلع أضراسه ، حتى مات الرجل من شدة التعذيب .

وقد ثار فى عهده الهوارة ـ وهم من قبائل الصعيد ـ فخرج إليهم ، وعاد سنة ٨٨٣ هـ ومعه زعماء الفتنة مصفدين بالأغلال ، فحوكموا وحكم بإعدامهم .

وقد قدر لهذا الأمير العظيم بأن يموت قتلا بيد أعداء الدولة . إذ سافر فى سنة ٨٨٥ هـ على رأس حملة جديدة لافتتاح العراق ، وكان الملك يعقوب بن حسن الطويل قد استأنف الهجوم على الأراضى السورية ، ولكن الحظ خانه هذه المرة ، إذ توغل فى الأراضى

العراقية حتى مدينة الرها ، وابتعد عن قواعده ، فدارت عليه الدائرة ، ووقع أسيراً بيد أعدائه ، الذين سلموه إلى ملكهم ، فأمر بقطع رأسه ، وعمره إذ ذاك ستة وخمسون عاما .

وقد أحضرت جثته بعد ذلك إلى مصر ، ودفنت فى تربته عند زاوية كهنبوش .

وقد وصفه ابن اياس فى « بدائع الزهور » بأنه من الامراء الذين أغرموا بالبناء والتشييد ، وله مبرات عديدة ، ومعاونات جمة للحجاج وغير الحجاج . وهو مع قساوته على أعداء النظام والمخلين بالأمن ، كان كريم النفس ، كريم اليد . ومما يؤثر عنه أن رأى مرة فلاحاً ومعه قفة بها بيض . فسأله يشبك : كم بيضة معك ؟ فأجاب الفلاح : عشرون . وتبسط معه يشبك ، ففهم أن عنده ثلاث بنات ، وزوجة . فأخذ منه يشبك البيضات العشرين ونقده عشرين ديناراً ذهباً .

٦ — الأمير أقبردى الدوادار — كان من أقطاب الحرب والسياسة فى عصره . تولى الوزارة ، والدوادارية ، وإمرة السلاح ، وعينه الملك الاشرف قايتباى « مدبراً للدولة » لما لمس من نشاطه وحسن تدبيره وحنكته ، وزوجه أخته ، عام ٨٨٧ هـ .

وقد اختاره السلطان قايتباى للقضاء على فتنة جبل نابلس ، فأخمدها . ثم أرسله السلطان عام ٨٩٢ هـ لإخماد ثورة عربان الأحامدة

فقتل منهم ما لا يحصى ، وأسر منهم عدداً كبيراً . كما اشترك بعد ذلك فى إخماد ثورة داخلية حاول القيام بها جماعة من الامراء . وفى عام ٩٠٤ هـ عينه السلطان نائباً فى طرابلس ، غير أنه توفى بعد قليل ، وعمره أقل من ٥٠ سنة .

ومما يذكر أن إبنة أقبردى تزوجها طومان باى الذى أصبح سلطاناً بعد مقتل الغورى .

٧ — جانى بك قلقسيز — كان حاجب الحجاب فى أوائل عهد السلطان خوش قدم . ثم أرسله السلطان إلى العقبة لتأديب عربانها الثائرين (أوائل سنة ٨٧٢ هـ) .

ولما ولى قايتباى السلطنة ، عينه أتابكا للجيش ، وأرسله فى حملة إلى سوريا لتأديب ملك الفرس . ولكن هذه الحملة باءت بالفشل . ووقع جانى بك أسيراً . ثم أطلقه ملك الفرس ليكون واسطة بينه وبين سلطان مصر . وبعد عودته إلى القاهرة عينه قايتباى أمير سلاح ، وأكرمه . وفى سنة ٨٧٧ هـ أرسله قايتباى على رأس حملة تأديبية إلى حسن الطويل ملك ما بين النهرين (العراق) ، فأفلح هذه المرة ، وأخذ كثيراً من الغنائم . فخلع عليه السلطان ، وعينه أميراً للشام .

وقد ظل جانى بك فى امارته هذه زمناً طويلا ، أبرز خلاله ضروب الجدارة والكفاءة وحسن السياسة . وفى ربيع الاول سنة

٨٨١ هـ أرسل هدية إلى السلطان قايتباى مكونة من عشرة آلاف دينار من الذهب وأنواع شتى من المنسوجات الثمينة . وتوفى جانى بك فى ذى الحجة عام ٨٨٣ هـ . فأسف السلطان كثيراً لوفاته وبكاه .

٨ — ازبك بن ططخ — وقد وردت ترجمته فى مكان آخر من هذا الكتاب ، لأنه كان مصلحاً منشئاً إلى جانب كونه من عظام القادة فى هذا العصر . فإليه يعود الفضل فى كثير من المنشآت والتعمير ، كما إنه يعتبر من الأبطال الذين نشروا لواء مصر فى ربوع البلاد الأخرى . وقد خاض كثيراً من الحروب ، أشهرها حروبه ضد السلطان سليم العثمانى ، واستطاع قهره أكثر من مرة . بل انه الوحيد الذى استطاع أن يغلب العثمانيين ويردهم على أعقابهم أكثر من مرة (أنظر ترجمة السلطان قايتباى) .

٩ — قيت الرجبى — كان واليا على القاهرة فى عهد السلطان قايتباى (سنة ٨٩٧ هـ) . وفى سنة ٩٠٥ هـ عينه السلطان الظاهر قانصوه الغورى نائبا على طرابلس . وفى سنة ٩٠٨ هـ أسند إليه الغورى إمارة المحمل ، وأمره بالقضاء على فتنة أمير مكة ، فأبلى فى ذلك بلاء حسناً ، وقبض على أمير مكة ، وأحضره معه إلى القاهرة .

١٠ — قرقماس بن ولى الدين — كان أمير ألف فى عهد السلطان الناصر محمد بن قايتباى ، ثم عينه السلطان الغورى أميراً على حلب ، ثم أمير سلاح ، ثم أتابكا للجيش . وكان محباً للرعية ، ميالا

للاصلاح ، لين الجانب جم التواضع كثير التنقل لتفقد شؤون الدولة نيابة عن السلطان . وقد توفى فى ٢٣ رمضان سنة ٩١٦ هـ فرجت القاهرة لموته ، وكانت جنازته حافلة ، سار فيها القضاة الأربعة وسائر الأمراء والمباشرون والأعيان . وقبل السلطان نعشه وهو فى المصلى وبكاه بكاء كثيراً ، وحمل بنفسه نعشه ومشى به خطوات تكريماً له ، ثم تلقفه منه الأمراء (١) .

١١ — سودون بن جانى بك — عينه السلطان الغورى اتابكا فى ٢٧ ربيع الأول سنة ٩١٧هـ . وناب عن السلطان أكثر من مرة، فأحسن ادارة البلاد وتصريف الأمور . وكان يسافر لتفقد أحوال البلاد ، مثل سفرته إلى الفيوم عام ٩٢٢ هـ ، وسفرته مع السلطان فى السنة التالية لتفقد الأحوال فى الأقطار الشامية .

ولما نشبت معركة مرج دابق مع العثمانيين ، كان سودون أول من هجم للقتال، فاستطاع بشجاعته وحسن قيادته هزيمة الجنود العثمانيين فى الجولة الأولى ، وأسر منهم عدداً كبيراً كما غنم غنائم لا تحصى . إلا أن الخيانة التى دبت فى صفوف السلطان الغورى (كما تقدم فى ترجمته) ، أدت إلى انهزام الشراكسة فى الجولة الثانية ، وقتل أميرهم الشجاع سودون ، ثم السلطان الغورى نفسه .

---

(١) تاريخ ابن اياس ، وعصر سلاطين المماليك للاستاذ محمود رزق سليم .

وقد وصفه ابن إياس بأنه كان أميراً دينا لين الجانب ، شجاعا باسلا ، مات فى الدفاع عن مصر وعن حريتها . ولما بلغ خبره مصر حزن عليه الناس كثيراً ، وترحموا عليه .

١٢ — سودون الشهابى — تمييزاً له عن سودون بن جانى بك السابق ترجمته . وقد عينه السلطان الأشرف طومان باى أتابكا بعد مقتل سابقه ، واصطحبه لقتال العثمانيين . فأصابه جرح بليغ فى فخذه فى معركة الريدانية ، فسقط من شدة الاعياء إلى أن قبض عليه بعض العربان وسلموه للسلطان سليم العثمانى . ورغم حالته ، أمر به سليم ، فأركبوه حماراً طافوا به الأسواق ، ومات وهو على هذ الحال ، فى أول المحرم سنة ٩٢٣ هـ . فيكون بذلك آخر أتابكة هذا العهد .

المالية :

كانت مالية الدولة تجبي من الضرائب ، ومن أهمها :

(١) ضريبة الأرض ، وتدفع عيناً من المحصول .

(٢) ضريبة السفن ، وتدفع نقداً .

(٣) الزكاة ، ويدفعها أصحاب الأموال والتجار .

(٤) المكوس ، وكانت تؤخذ عن البضائع الواردة إلى الموانىء .

(٥) أسلاب الحرب والغنائم .

وكان للضرائب جباة ، أكثرهم من الأقباط . ويشرف على

مالية الدولة رئيس ديوان الحسابات ، أو أمير الخزينة .

أهم مناصب الدولة :

(١) نيابة السلطنة ، ويدعى شاغلها « نائب السلطان » . ويعينه السلطان الفعلى عندما يكون غائباً عن القاهرة ، أو قاصراً لم يبلغ الثامنة عشرة من عمره ، وهى السن القانونية المحددة لتولى مقاليد الحكم .

(٢) أمير المجلس ، ويوكل اليه أمر الأطباء ومن اليهم .

(٣) أمير السلاح ، واليه يوكل حمل سـلاح السلطان فى الاحتفالات الرسمية، وفيما عدا ذلك يكون مسؤولا عن أسلحة الجيش .

(٤) الاستادار، ويشرف على قصر السلطان وخدمه، ومطبخه، ويدبر للسلطان شؤونه المالية .

(٥) الدوادار ، وهو الذى يقوم بتبليغ الرسائل للسلطان ، ويتلقى منه الأوامر ليبلغها إلى أصحاب الشأن .

(٦) أمير جاندار — وهو كبير الأمناء . ويقوم بتنظيم المواكب السلطانية .

(٧) نقيب الجيش ، وهو المسؤول عن الاستعراضات العسكرية ، وملابس الجيش .

(٨) المحتسب ، وهو حاكم مدينة القاهرة .

(٩) ناظر ديوان الإنشاء — وهو المسؤول عن مبانى السلطان

وعمائره . ويشرف على تنفيذ المنشآت والمبانى التى يأمر السلطان بتشييدها .

(١٠) والى الشرطة ، وهو المسؤول عن قوات « البوليس » والأمن الداخلى .

(١١) ولاة الاقاليم والامراء . وكانت أهم الولايات الخارجية : ولاية حلب ، ولاية طرابلس ، ولاية حماة ، ولاية صفد ، ولاية غزة ، ولاية القدس ، ولاية الكرك ، ولاية الشام . ومن الولاة من شغل منصب أكثر من ولاية .

أشهر رجال الإدارة :

برز خلال هذا العصر — خلاف من ذكرنا من القادة العسكريين — رجال إدارة محنكون ، وماليون حازمون . وفيما يلى تراجم لأهم هؤلاء نوردها باختصار :

١ — إزبك اليوسفى : وقد تولى منصب الخازندارية الكبرى فى عهد قايتباى ، فأحكم إدارة الشؤون المالية ، وتولى بعد ذلك كثيراً من الوظائف العالية ، أثبت خلالها جدارته وعلو همته .

٢ — خاير بك الخازندار : وكان أحد الامراء المقدمين ، وصهر السلطان قانصوه الغورى . وقد شغل منصب الخازندارية الكبرى ، ثم عينه السلطان أميناً على خزائن الاموال ، وأصبح ذا أثر كبير فى تدبير شؤون المملكة . ومات وعمره ثمانون عاما .

٣ — قانى باى قرا : وكان كبير أمراء الياخور السلطانى ، جليلا ، ذكيا ، أسمر اللون ، طويل القامة ، محبا للخير والاصلاح . فأنشأ جامعاً تجاه سوق الخيل ، وجامعاً آخر قرب البركة الناصرية ، وعدداً من المنشآت الأخرى . وقد اشتهر فى عصره بالفروسية ، وألعاب الخيل ، وزوجته بنت الامير يشبك المار ذكره .

٤ — جان بردى الغزالى . (١) كان كاشفاً للشرقيـــة فى عصر الأشرف قايتباى . وعند اعتلاء الغورى العرش ، عينه فى الحسبة . وكان من الأمراء الكبار الذين أثروا بسياستهم وأعمالهم فى سير الحوادث بمصر . وقد اشترك فى قتال العثمانيين مع الغورى ، ولما اعتلى طومان باى العرش عينه والياً على الشام ، وأطلق عليه لقب « ملك الأمراء » . ولكن جان اتفق سراً مع العثمانيين ، وخان سلطانه ، وانسحب بجيشه من القتال ، فعينه السلطان سليم نائباً عنه على الشام . وحاول بعد ذلك الزحف على مصر واحتلالها ، واستقل بإدارة سوريا عن العثمانيين ، وصك النقود باسمه ، وخطبوا له فى الجوامع ، فلما علم السلطان سليمان العثمانى بذلك جرد عليه جيشاً لإخضاعه ، فهزم جان وأسره العثمانيون ، وأخذوه إلى استانبول حيث قتل (عام ٩٢٧ هـ) .

(١) نسبة الى ضيعة منية الغزال وهى ضيعة الاستادار تغرى بردى .

٥ — الأمير يشبك الجمالى : كان محتسباً (أى حاكما) لمدينة القاهرة فى عهد السلطان الغورى (عام ٩١٤ هـ) ثم عينه السلطان وزيراً ، فظل فى هذا المنصب طويلا ، وأداره بهمة ونشاط وكفاءة وحسن استعداد .

ومن أعماله أنه أمر النساء بعدم لبس الأكمام التى تظهر منها أصابع اليد ، وأمرهن كذلك بعدم لبس العصابة القصيرة ، وهدد المخالفات منهن بالعقاب الشديد . كما وطد دعائم الأمن وقبض على اللصوص ، فنشطت التجارة والرحلات .

وعند ما اعتلى طومان باى العرش ، عينه وكيلا لبيت المال ، وناظراً للذخيرة .

وعند ما احتل السلطان سليم مصر ، قبض عليه وأرسله منفياً إلى استانبول . إلا أن سفن الفرنجة اعترضت أسطول العثمانيين فى عرض البحر ، وقامت بين الطرفين معركة أصيبت خلالها السفينة المقلة للجمالى ، فغرقت بمن فيها . وهكذا انتهت حياته عام ٩٢٥ هـ.

٦ — محمد بن رجب : كان وزيراً للسلطان برقوق ، محمود السيرة ، فباشر الوزارة بمهابة ، ودبر المملكة بحنكة ودراية . وتوفى عام ٧٩٧ هـ . وكانت جنازته حافلة (١)

(١) عصر سلاطين المماليك ص ٣٢٢ — للأستاذ محمود رزق سليم .

٧ــ قانصوه اليحياوى : تولى عدة وظائف عالية منها : نيابة الإسكندرية ، ونيابة طرابلس ، ونيابة حلب ، ونيابة صفد ، ونيابة الشام ، ونيابة القدس . وكان من أجل الأمراء ، وأعظمهم قدراً ، وأكثرهم دراية فى شؤون الإدارة وتعاطى الأحكام .

٨ــ الأمير طراباى : من رجال الملك الأشرف قايتباى ، وكانت له كلمة نافذة وسطوة زائدة ، ونسب إليه أنه كان يصادر الأرزاق ، فلما توفى أمر السلطان الغورى بمصادرة أملاكه ، ورد ثمنها إلى صندوق الدولة .

٩ــ كرتباى الأحمر : من رجال الأشراف قايتباى أيضاً . اتصف بالعدل ، وبعد تعيينه فى منصب الوزارة (سنة ٩٠١ هـ) أجرى كثيراً من الإصلاحات : فأبطل نظارة الأوقاف لأنها كانت مصدر ظلم وشكاوى كثيرة ، وخفف الضرائب وألغى بعضها ، وحدد رواتب القضاة ، وألزمهم بأن لا يأخذوا من المتخاصمين أكثر من نصف فضة . وتوفى سنة ٩٠٤ هـ .

١٠ ــ الامير جانم : وهو زوج أخت زوجة السلطان قايتباى ، وكان زفافه من أروع الحفلات التى شهدتها القاهرة ، فزينت الشوارع ومشى فى ركابه الأمراء ، وأمسك الأمير يشبك الدوادار والامير ازدمر الطويل حاجب الحجاب بعنان فرسه ـ على عظم مركزيهما . وقد تولى جانم رتبة الوزارة وهو دون العشرين من عمره . وكان

على صغر سنه وافر العقل جليل القدر محبباً من النـاس . فلما مات عام ٨٨٤ هـ (ولما يمض على زواجه أكثر من شهور) حزن عليه السلطان والناس حزناً شديداً ، وأقامو له مأتماً ثلاثة أيام بالقلعة .

١١ — جانى بك الدوادار — ولاه السلطـان جقمق نظر الكنائس ، ثم ولاية جدة ، عام ٨٤٩ هـ ، فأظهر بما وكل إليه كفـاءة محمودة . فرقاه جقمق « إستداراً » ، فعظم مركزه ، وكاتبه الملوك ، ولما تولى ينال العرش عينه « دواداراً » ، فتولى إدارة شؤون الدولة بحزم وكياسة .

ومن محاسنه : أنه ابتنى مدرسة وداراً للأيتام ، وحوضاً عظيما وبركة عامة . فأحبه الناس وأكرموه ، كما أكرمه الملوك والزعماء من قبل .

الحياة الاجتماعية والثقافية

شاع فى عصر دولة الشراكسة لبس الطواق أو « القلابق » ، بغير عمامة ، بعد أن كان نزع العمامة يعد فى العصر السابق عاراً وعيباً . وقد بلغ ارتفاع بعض هذه القلابق نحو ٤٠ سنتيمتراً ، وكان بعضها على ألوان .

وقد أدخل الشراكسة على مصر زيهم القومى ، فاعتنوا بلبسه ، « وكان لسلاطينهم مختصون باختيـار الملابس ، ويسمى الواحد جمداراً » .

وفى عصر السلطان برقوق ، شاع لبس الفراء ، كما أمر النساء بلبس الملابس الواسعة الفضفاضة . وفى عهد السلطان قايتباى ، أمر يشبك الجمالى محتسب القاهرة بأن لا تلبس النساء العصابة القصيرة ، وأن لا يقل طولها عن ثلث ذراع ، وأن تكون مختومة من الجانبين بختم السلطان .

* * *

ولم يتدخل الشراكسة فى حرية العقائد ، فتركوا لكل ملة حرية العبادة التامة ، ولم يتعرضوا لآرائها الدينية . بل إنهم أحسنوا معاملة الأقباط ، وأكثروا من استخدامهم ، ولم يحدث أن اضطهد فى عهدهم أهل الذمة ، كما حدث فى بعض العهود السابقة .

* * *

وكان الشراكسة محافظين على استقلالهم الإجتماعى ، وطابعهم القومى. فلم يكثروا من الإختلاط بأهل البلاد . إلا أن ملوكهم كانوا مع ذلك دائبى الحدب على الرعية ، وتفقد شؤونها بأنفسهم ، فكانوا يطوفون بالبلاد ، ويسألون عن مظالم أهلها ، وحافظوا على الآداب العامة ، وصانوا الفضيلة ، كما نشروا لواء العلم والحضارة ، بكثرة ما استحدثوه من المنشآت ، والمدارس ، والجوامع ، والأبنية العامة ، وما غرسوه فى البلاد من بذور نافعة ، ليس أقلها أهمية حب النظام ، وواجب الطاعة ، والفناء فى سبيل الوطن .

وقد ظهر من بين الشراكسة علماء ومؤرخون وأدباء ، نذكر منهم الأمير بيبرس الدوادار ، وقد ألف كتابا فى أحد عشر مجلداً سماه « زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة » ، تكلم فى بعض أجزائه على ملوك مصر . وتوجد منه أجزاء مخطوطة بمكتبة جامعة فؤاد الأول بالقاهرة .

ومنهم أبو حامد بن خليل بن يوسف المقدسى ، (٨١٩ – ٨٨٨ﻫ) وقد ألف كتابا فى تراجم ملوك الشراكسة وقدمه إلى الأمير يشبك كبير حكومة الملك الأشرف قايتباى . ولهذا المؤلف كتب أخرى منها « المختصر فى تاريخ ملوك مصر » ، و « رحلة الأمير يشبك إلى بلاد الشراكسة بالقوقاز » سنة ٨٧٥ ﻫ .

ومن مؤرخيهم كذلك العالم الأديب محمد بن إياس (من الاباظة) وقد توفى سنة ٩٠٨ ﻫ عن ٨٤ عاما . ومن أهم مؤلفاته « بدائع الزهور فى وقائع العصور » ، وما زال هذا الكتاب من أهم المراجع فى تاريخ الشراكسة وعصورهم .

وكان الملك قانصوه الغورى شاعراً عالماً أديبا ، وله ديوان شعر . وكذلك الملك العادل جان بلاط ، وقد ألف كتابا فى فن الحرب والفروسية .

ومن العلماء : صارم الدين قايماز بن ابراهيم بلباى الشركسى . وقد كان من علماء الحديث والفقه .

ومنهم ابراهيم بن لاشين الشركسى ، وكان عالما بالنحو والتفسير والفقه والطب . وتوفى عام ٧٤٩ هـ .

ومنهم سيف الدين بلبان البيسرى ، وكان فقيها متصوفا ، وتوفى عام ٧٥٦ هـ .

ومنهم الأمير آق بردى ، وكان عالماً ، وتولى الوزارة لابن عمه الملك الأشرف قايتباى . وكان معروفا باطلاعه الواسع ، وتخصص فى الطب والكيمياء .

***

ومن الفقهاء الصوفيين : شاهين بن عبد الله الشركسى ، ظهر فى عصر الملك قايتباى ، وساح بلاد العجم والشام وغيرها . وقد بنى زاوية بالمقطم وكان لاينزل مصر إلا لضرورة شديدة . ثم انقطع عن النزول من الجبل مدة ٤٧ عاماً . واشتهر بالاصلاح والتقوى إلى جانب علمه الغزير واطلاعه الواسع . فكان أمراء مصر وقضاتها وأكابرها يزورونه ويتبركون به . وتوفى فى شوال سنة ٨٥٧ هـ وبنى السلطان عليه قبة ووقف على مكانه أوقافا[١] .

ومنهم جمال الدين يوسف بن يحى الشركسى الحنفى بن الأمير محى الدين بن الأمير إزبك . قرأ شرح الأجرومية على الشيخ خالد ، والقواعد على ابن طولون ، ثم أخذ فى حل الألفية عليه ، وحل

---

(١) شذرات الذهب — جزء ٨ ص ٣٠٢

الكنز على القطب بن سلطان . ثم جاء مصر لاستحقاقه فى وقف جده (الامير إزبك منشىء حديقة الأزبكية) ، فتوفى بها غريقاً ودفن بتربة جده . (١)

***

وفى كتاب « تاريخ الحركة القومية » — الجزء الاول ، يعترف سعادة المؤرخ الفاضل عبد الرحمن الرافعى بك بفضل سلاطين الدولتين التركية والشركسية فى إنقاذ آداب اللغة العربية وحفظها إلى هذا اليوم إذ يقول : « فقد ظلت الآداب العربية إلى عهد السلاطين البحرية والبرجيه (الشراكسة) حافظة مكانتها التى كانت لها من قبل. واليهم يرجع الفضل فى إنقاذ اللغة العربية من غزوات المغول التى كادت تقضى على العلوم والآداب العربية فى الشرق ، فكانت مصر ملجأ للناطقين بالضاد ممن فروا أمام التتار فى العراق وفارس وسوريا وخراسان وبقيت لغة حكومتها عربية فى عهد تينك الدولتين ، واستظلت العلوم والآداب بحماية الملوك والسلاطين فى مصر ، ونبغ فيها طائفة من فطاحل الشعراء والأدباء والعلماء كالبوصيرى صاحب البردة ، والسراج الوراق ، وابن نباته المصرى ، والقلقشندى صاحب صبح الأعشى ، والأبشيهى صاحب المستظرف ، وابن منظور صاحب لسان العرب ، وابن هشام النحوى العظيم الذى يقال فيه انه أنحى من سيبويه ، وابن عبد الظاهر ، والنواجى صاحب حلبة

---

(١) شذرات الذهب — جزء ٨ ص ٢٧٩

الكميت، والقسطلانى المحدث المشهور، وشمس الدين السخاوى صاحب الضوء اللامع، وابن خلكان المؤرخ المشهور صاحب وفيات الأعيان، والصفدى صاحب الوافى، وابن حجر المؤرخ إمام الحفاظ والمحدثين فى زمانه، والعينى المؤرخ والمحدث، وابن وصيف شاه، وابن دقماق، والمقريزى صاحب الخطط، والمكين بن العميد، وأبو الفداء المؤرخ الجغرافى المشهور صاحب تقويم البلدان، والذهبى، والنويرى صاحب نهاية الأرب فى فنون الأدب، وابن فضل الله العمرى صاحب مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، وابن عقيل، وابن تغرى بردى صاحب النجوم الزاهرة، وجلال الدين السيوطى صاحب التآليف الشهيرة فى التفسير والعلوم الشرعية والتاريخ والأدب واللغة، والدميرى صاحب حياة الحيوان، وابن اياس لمؤرخ الذى أدرك الفتح العثمانى.

« وقد استضافت مصر فى ذلك العصر جماعة من أئمة العلم والفلاسفة فى الشرق كالإمام ابن تيمة، وابن قيم الجوزية، وفيلسوف المؤرخين ابن خلدون ». اه.

ويؤكد الأستاذ الرافعى فى صفحة ٣٥ من كتابه المذكور أن عهد الدولتين البحرية (التركية) والبرجية (الشركسية) كان عهد حضارة وعمران. وذكر فى صفحة ٣٣ أن اللغة العربية كانت لسان الحكومة لغاية انتهاء دولة السلاطين البرجية. ويشير فى هذه الصفحة أيضاً إلى المدارس التى « ازدهرت فى عهد دولة الشراكسة والدول السابقة ».

وأقول أنا : إذا لم يكن لدولتى الترك والشراكسة غير هذا الفضل ، فضل حماية اللغة العربية وآدابها ، وتغذيتهما ، فكفاهما ذلك فضلا، خليق بأن يمسح عنهما جميع مساوىء العصرين وعيوبهما، ويرد عنهما هجوم الكتاب وتحاملهم .

الآداب العامة :

وجه سلاطين هذه الدولة انتباههم نحو حماية الآداب العامة ، فسنوا كثيراً من القوانين ، وأصدروا كثيراً من الأوامر ، لتنفيذ هذا الغرض . ومن ذلك أنه « لما انعكف الناس عن اللعب فى القاهرة ، وصاروا يعملون شيئاً من ذلك فى الخلجان والبرك ونحوها من مواضع التنزه، بعد ما كانت أسواق القاهرة تعطل فى يوم النيروز عن البيع والشراء ، ويتعاطى الناس فيه من اللهو واللعب ما يخرجون به عن حد الحياء والحشمة ، إلى الغاية من الفجور ، فما انقضى يوم نيروز إلا وقتل فيه قتيل أو أكثر »(١) ، إزاء كل ذلك ، أمر برقوق بإلغاء الاحتفال بهذا العيد ، وهدد من أحياه بالعقوبات الصارمة .

وقد سار السلطان الأشرف برسباى على هذه السياسة الحميدة ، فقد « أبطل سائر الخمارات من السواحل وغيرها فى بلاد الشام ، وكبست أماكن الريب بالقاهرة ومصر ، وأريقت الخمور ، وتتبع أماكن الفساد وبالغ فى إزالته ، ولم يراع فى ذلك أحد من الكتاب ولا من الأمراء ، فخف المنكر وخفى الفساد » .(٢)

---

(١) خطط المقريزى جزء ٢

(٢) نفس المصدر السابق .

حركة الإنشاء والتعمير

من أشهر رجال هذا العصر الذين هم من أصل شركسى ، إزبك بن ططخ . وكان من القادة المشهود لهم ، قاتل العثمانيين وانتصر عليهم مرتين. وكان نائباً على الشام، ثم عين أتابكاً للجيش بالقاهرة .

وقد قام إزبك فوق قيادته للجيوش ، بالإشراف على حركة العمران فى عصر قايتباى . فكان يباشر بنفسه إقامة المبانى والمنشآت العامة . وفى سنة ٨٨٠ ه بدأ بإنشاء حديقة « الأزبكية » المعروفة فى وسط القاهرة . وكانت إلى ذلك الحين أرضاً خربة ممتلئة بكتب من الرماد . فأجرى إليها الماء من النيل ، وأنشأ بها البساتين والمبانى والحمامات .

ثم حفر بركة وجمل شواطئها ، ونشر حولها المقاعد ، كما أقام بها مسجداً كبيراً ، زوده بمكتبة كبيرة .

وقد أنفق إزبك فى إنشاء تلك الحديقة التى جعلها أحد متنزهات القاهرة ، نحواً من مائتى ألف دينار .

ومن منشآته كذلك ، قناطر الجيزة ، وقد أتم بناءها فى شعبان عام ٨٨٥ ه ، فمنحه السلطان هدايا قيمة . وفى عام ٨٨٩ ه جدد عمارة المدرسة المنصورية ، وضرب على الفسقية التى بها قبة ومنبراً ، وكان ينفق على هذه المنشآت من ماله الخاص .

وقد حاول بعض الأمراء مبايعته بالسلطنة ، فأقسم ألا يكون سلطانا ، وأبى ذلك إباء شديداً .

وقد توفاه الله يوم الاربعاء ٢٠ رمضان سنة ٩٠٤ هـ وبذلك انتهت حياة أحد أفذاذ هذا العصر وأبطاله العظام.

وفى عصر سلاطين الشراكسة، كانت القاهرة مدينة رائعة الجمال فخمة البناء جميلة العمارة متجانسة فى كل شيء. وكانت قصورهم التى لاتزال آثار بعضها لليوم «كبقايا قصر بشتاك وبوابة دار يزبك الفتانة الملاصقة لجامع السلطان حسن، وبعض ممتلكات قايتباى، وقصر الأمير ماماى الذى بقيت منه تلك الشرفة الرائعة التى نعرفها اليوم ببيت القاضى(١). كل هذه المنشآت كانت فى كامـــل مجدها حينذاك، وآثارها الباقية لهذا اليوم تعبر أصدق تعبير عن الحركة الإنشائية والعمرانية التى رعاها وأنفق عليها ملوك الشراكسة وأمراؤهم.

وقد وصف المقريزى فى كتابه «الخطط» كثيراً من هذه المنشآت والدور الخاصة، وكان وصفه لها فيما لا يقل عن أربعين صفحة.

وقد تبارى السلاطين والأمراء كذلك فى اقامة الميادين الفسيحة والحمامات الشعبية، والقناطر والجسور، والبرك الشعبية، وهكذا تمتعت القاهرة وابتهجت تحت حكم سلاطين البحرية والشراكسة كما بهرت العالم بمدنيتها وثقافتها (٢)

---

(١) المذكورون كلهم من الشراكسة والكلام المنشور أعلاه بين قوسين منقول عن كتاب القاهرة للبكباشى عبد الرحمن زكى ص١٠٩.

(٢) نفس المصدر ص ١٢٠

وقد عنى سلاطين الشراكسة وأمراؤهم بغرس الأشجار المثمرة، وإنشاء البساتين، فاستحضروا لهذا الغرض شتل الثمار من بلاد اليونان وسوريا وآسيا الصغرى. كما استجلبوا أشجار الزينة والظلال وزينوا بها الميادين والشوارع. وقد كان أشد سلاطينهم عناية بالزراعة السلطان قايتباى والسلطان الغورى، والأخير هو الذى أنشأ ميدان القلعة وأجرى إليه المياه وغرسه بالأشجار كما تقدم.

كلمة عهد

وقد عاب بعض الكتاب على هذا العصر كثرة ما تخلله من الاضطراب والدسائس، مما جعل الحياة الاجتماعية غير مستقرة، كما عابوا على الشراكسة بطشهم وجبروتهم. ولكننا لو نظرنا بعين النزاهة إلى تاريخ هذا العصر، لما وجدنا هذه الفترة القلقة تتعدى جزءاً صغيراً من مجموع السنوات التى حكم خلالها ملوك عظام مثل برسباى وبرقوق وقايتباى وغيرهم. ومثل هذه الفترات القلقة تحدث فى تاريخ أى عصر، وأية أمة. فماذا نلطخ تاريخ قرن ونصف، ملىء بجلائل الأعمال، من أجل فترات متقطعة من الفوضى، لم يكن للشراكسة أحياناً يد فى إحداثها، مثل تلك الفترة القلقة التى خلقها طمع الخليفة العباسى، وخوش قدم اليونانى، بالعرش؟

لقد أجمع المؤرخون الذين يعتد برأيهم على أن حكم بعض ملوك الشراكسة كان مثلا يحتذى فى النزاهة، والسهر على راحة الرعية، واستتباب الأمن، ونشر العلوم والمعارف، حتى كان الناس

يبكونهم لفجيعتهم فى وفاتهم. ومن هؤلاء الملوك العظام — كما قدمنا — برقوق ، والأشرف برسباى ، والظاهر جقمق ، والأشرف قايتباى ، وقانصوه الغورى ، والأشرف طومان باى . فلو أنك جمعت عدد السنين التى حكم فيها أولئك الملوك ، لوجدتها تربو على المائة عام من مجموع السنوات التى حكم خلالها ملوك الشراكسة وهو ١٣٥ عاما . فأين هى الفوضى إذن فى هذا العصر ، وما نسبة سنيها إلى عدد السنين كلها ؟ هل يصح اتهام عصر بأكمله بالظلمة والفساد من أجل حوادث معدودة ، أسف لها أمراء الشراكسة وسلاطينهم قبل أن يأسف لها أحد آخر ؟

وأين الظلمة والتأخر والفساد ، مما أجملناه فى الفصل السابق ، من أعمال سلاطين الشراكسة ، ومنشآتهم ، وحمايتهم للبلاد ، مستشهدين بأقوال المؤرخين المعروفين ، والكتاب من الأجانب والمصريين ؟

ويعزى الى الشراكسة كونهم اشتطوا بجمع الضرائب ، حتى كانوا يجبونها أحياناً بالسياط . إلا أن هذه الأموال التى كان يجمعها ملوك الشراكسة ، كانت تقتضيها حالة العصر وكثرة الحروب التى تستنزف الأموال والأرواح ، (وكانت أكثر الحروب التى خاضها الشراكسة حروباً دفاعية لصد غزو خارجى) ، كما كانوا ينفقونها على عمران البلد ، وإقامة المبانى ، والميادين ، والقلاع ، ولم ينفقها ملوكهم على شهواتهم ، أو مطالبهم الخاصة . وقد ذكر الدكتور على ابراهيم حسن فى كتابه « مصر فى العصور الوسطى » أن التجار كانوا يخفون

أموالهم وبضائعهم تهرباً من دفع الضريبة. فإذا كان ضرب الشراكسة لمثل هؤلاء بالسياط كي يدفعوا الضرائب المقررة يعد قسوة ووحشية، فماذا نسمى اليوم عقوبة الإعدام التي قررتها بعض الدول الأوروبية على التجار الجشعين والمتلاعبين فى أرزاق الشعب ؟! ولنذكر دائماً أن مصر كانت فى حالة حرب شبه مستمرة ، وكان يهددها دائماً غزو من الخارج ، فكان الجيش يكلف خزينة الدولة أموالا طائلة . فأما الأموال فكان يقدمها الأهالى والتجار ، وأما الشراكسة ، فكانوا يقدمون أرواحهم ، ويبذلون دمهم ، للوطن فداء ...

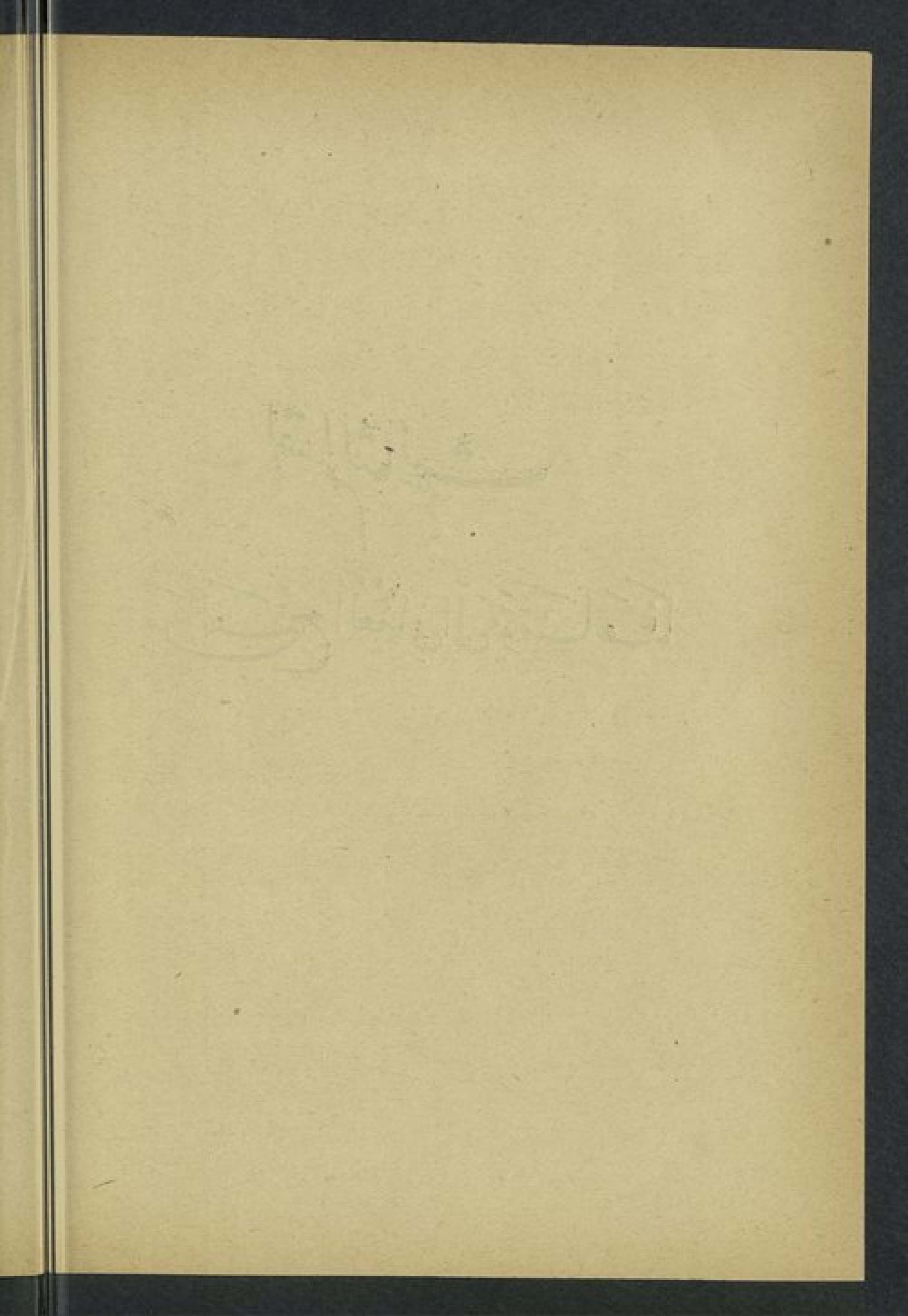
***

ولعلنا لا نجد كلمة نختتم بها هذا الفصل أفضل مما قاله السير وليم موير فى كتابه « تاريخ المماليك » صفحات ٢١٨ و ٢٢٠ ، قال :

« لقد تربوا فى كلا مدارس الحرب والسياسة ، وكانوا حتى وهم صغاراً ، متضلعين بالعلوم ، والفلسفة والدين ، فضلا عن الفروسية واستعمال السلاح . وبذلك كانوا حائزين لجميع الصفات التي تؤهلهم لمراكز القيادة والحكم . لقد ابتنوا المستشفيات ، والمساجد ، والمدارس ، والملاجىء ، ومؤسسات البر والإحسان ، وكثيراً من المنشآت العامة ، تخلفوا وراءهم آثاراً من عصرهم ما زالت قائمة الى يومنا هذا تزين العاصمة ، رغم ما نالها من تخريب وتشويه .

القسم الثالث

من الفتح العثماني إلى يومنا هذا



الفصل الاول

مصر تحت الإحتلال العثمانى

تمهيد :

لما فتح العثمانيون مصر ، رأى السلطان سليم أن انتصاره لا يتم إلا إذا جمع بيديه السلطة الدينية إلى جانب السلطة الزمنية . فقاد الخليفة العباسى محمد المتوكل على الله الثالث إلى الآستانة ، وانتزع منه الخلافة ، فأصبح السلطان العثمانى يلقب منذ ذلك التاريخ بخليفة المسلمين ، وانتهى إلى الأبد عهد الخلافة العباسية .

وكما أخذ معه الخليفة، أخذ كذلك رؤساء الصناعات المتخصصين فى الفن والصناعة معه إلى الآستانة لينشروا فيها صناعاتهم وفنونهم ، ومع هؤلاء وأولئك ألف جمل محملة بالذهب والفضة ، فضلا عن التحف والسلاح وأعمدة الرخام والصينى والنحاس . فأخذ من مصر من كل شىء أحسنه ، وكذلك جنوده ، فانهم غنموا من النهب مالا يحصى ، وبطل من مصر نحو خمسين صنعة (١) .

نظام الحكم الجديد :

وقبل عودته إلى مقر ملكه ، عين السلطان سليم المدعو خاير بك ،

---

(١) تاريخ ابن اياس — الجزء الثالث .

وهو من الشراكسة الذين انحازوا اليه فى معركة مرج دابق ، وكان قبل ذلك من كبار رجال السلطان الغورى ، والياً على مصر ، ولقبه بالباشا . كما ترك قوة من الجند الترك تحت قيادة خير الدين أحد قواد العثمانيين ، عددها ١٥,٠٠٠ مقاتل .

وقد قسم السلطان سليم مصر إلى ٢٤ ولاية أو « سنجقاً » (١) على رأس كل منها « بيكا » تتألف منهم الإدارة المحلية للبلاد ، وهؤلاء من الشراكسة .

وأنشأ غير ذلك الوظائف الكبرى التالية :

الكخيا — أى نائب الوالى .

الدفتردار — للشؤون المالية .

الروزنامجى — لإدارة الخراج وضرائب الأطيان .

أمير الحج — لمراقبة شؤون الحج ومرافقة الحجاج إلى الحجاز وتوزيع الهبات على فقراء المدن المقدسة .

الخازندار — لحمل الخراج سنويا إلى الآستانة .

القبودانات — وعددهم ثلاثة ، لحكم ثغور الاسكندرية ودمياط والسويس .

وكان تعيين الكتخذا وقباطين الثغور يصدر به رأسا مرسوم من السلطان ، أما باقى البكوات والموظفين فيعينهم الباشا .

---

(١) يقول الجبرتى إن السناجق صاروا ٢٤ سنجقا سنة ١٧٢٣ م وكانوا قبل ذلك ٢٢

الباشا :

كان مقره القلعة ، ويعين بمرسوم من السلطان العثمانى لمدة لاتزيد عن السنة ، وذلك حتى لا يطمح أحد الباشوات إلى الاستقلال بالحكم ، بتوطيد نفوذه الشخصى فى مصر . إلا أنه كان يجوز تجديد هذه المدة ، فيصدر بذلك فرمان سلطانى جديد .

وعندما يصل الباشا الجديد إلى القاهرة ، يبلغ الديوان نبأ وصوله ، فيرسل شيخ البلد وفداً من البكوات لاستقباله والحفاوة به . وفى خلال ذلك يستطلعون نياته وأسراره مما يتسقطونه من أقواله وأحاديثه ، فاذا رأوا أنه لا يوافق أهواءهم أنبأوا شيخ البلد وهذا يعمل فى الغالب على خلعه قبل استلامه مقاليد السلطة . وإذا وجدوه مسالماً ، أركبه الوفد سفينة فخمة ، ومعهم الطبول والزمور إلى أن يصلوا بولاق . وهناك ترسو المراكب ، ويكون شيخ البلد ، فى استقبال الباشا الجديد ، ويقدم له أغا الانكشارية مفاتيح القلعة .

وكان على الباشا أن يبلغ أوامره إلى شيخ البلد ويراقب تنفيذها . إلا أن سلطته كانت محدودة ، إذ كان يشاركه الحكم فى الواقع رؤساء الجند ، وهم قواد الفرق العثمانية ، أو الوجاقات ، وعددها خمس كالآتى .

١ — وجاق المتفرقة ، وعدده من ألف إلى ألفى فارس ، وهو مؤلف من حرس الباشا وبعض البكوات .

٢ — وجاق العزب، وهو من المشاة ، وعددهم يتراوح بين ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف مقاتل .

٣ — وجاق الإسباهية ، وهم من الفرسان ، وعددهم نحو ثلاثة آلاف رجل .

٤ — وجاق الشاويشية ، وهم من المشاة ، وعددهم لا يتجاوز الألف .

٥ — وجاق الانكشارية ، ولهم معسكر مستقل بالقلعة ، كما أن قائدهم مستقل عن السلطان ، وله نفوذ كبير .

وعندما اعتلى السلطان سليمان القانونى عرش تركيا ، أنشأ فرقة جديدة من الشراكسة فى مصر سماها « وجاق الشراكسة » فأصبح بذلك عدد الوجاقات ستة .

ومن رؤساء هذه الوجاقات كان يتألف « الديوان » أو مجلس الشورى ، الذى لم يكن للباشا أن يقضى بأمر دون استشارته وموافقته . وكان ينعقد هذا الديوان مرتين كل أسبوع (الأحد والثلاثاء) للنظر فى الشكاوى وأمور الدولة العادية .

وقد توالى عدد من هؤلاء الباشوات على مصر . فكان منهم الصالح والطالح. وكان من بينهم عدد من الشراكسة مثل سنان باشا (٩٧٦هـ) ، واسكندر باشا الشركسى (٩٧٨هـ) ، والأول افتتح اليمن ، والثانى كان حكيما محبا للرعية ، فرفع الضرائب عن الفقراء والعاجزين والقسم الأعظم من طلبة العلم لأنه كان شديد التعلق بالعلم وذويه ،

واهتم بتأييد النظام وحفظ رونق البـــلاد ، وأعاد حفر ترعة الإسكندرية ورمم فيها جامعاً وبنى مدرسة وافتتح شارعاً وعـدة حمامات . وبنى فى بولاق بمصر شارعاً ووكالات وجامعاً لا يزال يعرف باسمه (جامع جركس ويعرف الشارع باسمه أيضاً) . ومازال على مصر إلى ذى الحجة سنة ٩٨٠ هـ .

استئثار البكوات بالسلطة :

إلا أن هذا النظام الذى أنشأه السلطان سليم لم يدم طويلا ، إذ كثر تدخل الجند ورؤسائهم فى أمور الدولة . فاغتنم البـكوات الشراكسة فرصة التنازع هذه وأخذوا يعملون على الانفراد بالسلطة . وانتهى الأمر بأن استقر الحكم لأولئك البكوات ، وجعلوا توقيعات الباشا وأوامره حبراً على ورق .

ومنذ ذلك التاريخ (منتصف القرن السابع عشر) أصبح « شيخ البلد » — وكان ينتخبه بكوات الشراكسة — صاحب النفوذ المطلق والسلطان الفعلى فى مصر . وكان شيخ البلد اذا أراد عزل الباشا ، أمكنه ذلك بمنتهى السهولة . ويصف المرحوم جورجى زيدان طريقة العزل بقوله : « وكيفية ذلك أن شيخ البلد ورجاله إذا رأوا فى تصرف الباشا ما يوجب الشك ، يجتمعون اجتماعاً عمومياً فى الديوان ويقررون عزله ، ويكتبون بذلك أمراً عاليا يسلمونه إلى الأوطه باشي ليوصله إلى الباشا ، فيحمله ويسير منفرداً على حمار (لأن

القانون لا يسمح له بركوب الخيل أو البغال)، وبين يديه فرمان العزل. فاذا مر فى الأسواق على هذه الصورة علم الناس انه ساع إلى أمر مهم فيه عزل ، فيهرولون وراءه . ولا يزال سائراً فى عرض الطريق قائداً لتلك المواكب نحو القلعة . وعندما يصل إلى القلعة يدخل على الباشا ثم يجثو أمامه بكل وقار ولكنه عندما ينهض يطوى السجادة التى كان جاثياً عليها وينادى بأعلى صوته : « إنزل ياباشا » . وعندئذ تسقط حقوق ذلك الباشا ، ولا يسعه إلا الإذعان »[1]

وكان على الباشـــا المعزول أن يغادر القلعة خلال ٢٤ ساعة ويتوجه إلى بولاق ، فى انتظار الأوامر من استانبول .

وكان السلطان العثمانى يوافق دائماً على قرار العزل الذى يصدره البكوات، ويحسب لقوتهم ألف حساب. وبعد أن يعزل الباشا يعين « الديوان » قائمقاماً يتولى هذا المنصب إلى أن يصل الباشا الجديد . . .

سلطة البكوات :

كانت وظيفة البكوات حفظ الأمن ، وحسم المنازعات ، وتحصيل الضرائب وكان لكل بك عدة « كشاف » أو وكلاء ، ينوبون عنهم أثناء تغيبهم فى القــاهرة ، ويرسلونهم مع الجند لتحصيل الضرائب ، وضبط الأمن . وكانت الضرائب على ثلاثة أنواع :

الأولى ـــ ضريبة الخراج ، أو الميرى ، وهى من حق السلطان

(١) تاريخ مصر الحديث جزء ٢ ص ١٣٥

العثمانى ، وترسل له بواسطة الروزنامجى ، يساعده عدد من الكتبة يسمون « الأفندية » .

الثانية ـ الإلتزام أو الكشوفية ، وهى من حق البك ، ويصرف منها على إدارة المقاطعة ودفع رواتب الجند وحفظ الأمن .

الثالثة ـ ضريبة الموانىء ـ أو المكوس ـ وهذه من حق الباشا . فيدفع منها رواتب الجند وسائر مصروفات الدولة .

وكانت الدولة تصادر أموال المتوفى إذ لم يظهر له وريث ، أو تضمها إلى خزينة الدولة .

وقد نسب إلى البكوات تعسفهم فى جباية الضرائب . إلا أن المسئول عن ذلك كان فى الواقع النظام الذى أوجده السلطان سليم فى مصر ، وهو المعروف بنظام الإلتزام ، إذ جعل هذا السلطان جميع أراضى مصر من حقه ، وبهذه النظرية كان صاحب الأرض لا يملك رقبتها بل حق الانتفاع بها ، فإذا مات آلت أملاكه إلى الحكومة . غير أن لورثته حق استرجاعها لقاء مبلغ يعينه الوالى .

ويتلخص نظام الإلتزام بأنه تضمين الضرائب لأشخاص يتولون جمعها عن الحكومة ويشاركونها فيها . وكانت الحكومة تعرض جباية الخراج بالمزايدة ، فمن يقع عليه المزاد سمى « الملتزم » . ويدفع للحكومة سلفاً مال سنة . ويكون للملتزم الحق بعد ذلك بأن يحصل من أصحاب الأرض ماشاء من الضرائب ، فكانت له بذلك سلطة تامة على الفلاحين

وأصحاب الأطيان . فحصلت حوادث كثيرة مؤسفة ، وذاق الفلاحون على أيدى بعض هؤلاء الملتزمين مرارة الذل والبؤس .

وهذا النظام ـ نظام الالتزام ـ كان متبعاً أيضاً فى جميع البلاد الخاضعة للحكم العثمانى . ولم يكن الحال هناك أحسن منه فى مصر .

ولعله يجدر بنا أن نشير هنا إلى أن كثيراً من أولئك الملتزمين ـ بل أكثرهم ـ كانوا من أهل البلاد . وليس للبكوات الشراكسة أى ذنب فى هذا الوضع ـ إذ أن هذا النظام كما ذكرنا آنفاً ـ من اختراع السلطان سليم العثمانى وخلفائه . فلا معنى إذن لتحميلهم مسؤولية الظلم الذى أصاب الفلاحين والملاك من جرائه .

فإذا علمنا بعد ذلك أنه كان على الباشا أن يرسل الى الآستانة خراجاً سنوياً قدره ٦٠٠ ألف ريال ، خلاف الهدايا من السكر والبن والأرز والشاى والغلال بما لا تقل قيمته عن ٦٠٠ ألف ريال أخرى [١] ، أدركنا لماذا كان ينشط الولاة فى فرض الإتاوات وجمع الضرائب .

النظام القضائى :

بقى النظام القضائى كما كان قبل الفتح العثمانى، ولم يغير السلطان سليم شيئاً من هذا النظام ، وإنما عين قاضياً تركياً جعله أميناً على قضاة مصر . ولما تولى السلطان سليمان أبطل نظام القضاة الأربعة وأمر بتنصيب قاض تركى برتبة « قاضى العسكر » ويسمى قاضى مصر ويرسلونه من الآستانة .

(١) تاريخ الحركة القومية — الجزء الأول — للأستاذ عبد الرحمن الرافعى بك .

وقد ترك البكوات الشراكسة عند استئثارهم بالسلطة هذا النظام قائماً بدون تغيير .

ولم يكن للقاضى فى مصر رسوم معلومة ولا مرتب محـــدود . ولذلك عمت الفوضى وكثرت الشكاوى ، بخلاف الحال فى العصر السابق للفتح العثمانى ، حيث كان القضاة موضع إجلال السلاطين واحترامهم .

العلوم والآداب :

وكانت اللغة التركية هى لغة المخاطبات الرسمية . فأثر ذلك فى حالة الآداب العربية ، وركدت حركة التأليف ، وقل عدد المدارس وتبددت المكاتب، إذ أخذ العثمانيون كثيراً من الكتب والمخطوطات إلى الآستانة فتدهورت حالة البلاد وركدت النهضة العظيمة التى كانت مترعرعة فى العهد السابق .

أضف إلى كل ذلك انتشار الأوبئة والأمراض التى كانت تحصد الألوف من الناس ، وعبث الجنود العثمانية، ومخاصمات الوالى المستمرة مع الجند ، كل هذه العوامل كانت وبالا على مصر ، فأضعفتها ، ووقف فيها دولاب الرقى أو كاد .

مسؤولية البكوات:

وفى هذه الأحوال العسيرة ، كان يعمل البكوات . وهم — كما نرى — ليسوا مسؤولين عن هذا الوضع ، بل الواقع أن كثيراً منهم

عملوا جاهدين لإنقاذ ما يمكن إنقاذه ، كما سنرى من سير بعضهم فى فصل آخر من هذا الكتاب .

وتحامل الكتاب على البكوات ذلك التحامل الشنيع ، وتحميلهم كافة المسؤولية لتدهور الحال فى ذلك العصر ، ليس له مبرر . ولا شك أن بعض هؤلاء البكوات لم يكونوا ملائكة ، ولكن فى رأينا أن عوامل كثيرة خارجة عن إرادتهم كانت تسيطر على الموقف ، وتدفعهم إلى ما كانوا فيه . وسنرى فيما بعد كيف استطاع أحدهم — وهو على بك الكبير — الاستقلال بحكم مصر ، فخطت البلاد فى عهده خطوات واسعة ، وتوطد الأمن ، وزالت المظالم . فأثبت بذلك أن مصر تدهورت منذ أن فقدت استقلالها ، واستولى العثمانيون على أموالها ، وأخذوا صناعها وأرباب الحرف فيها الى الآستانة .

الفصل الثاني

قاسم وإسماعيل

تولى قاسم عيواظ بك مشيخة البلد عام ١١٢٠ هـ وعمره ستة عشر عاماً . وهو زعيم الطائفة القاسمية — وهو حزب كبير من أحزاب بكوات الشراكسة . وقد قال عنه الجبرتى : « إن أيامه كانت سعيدة ، وأفعاله حميدة ، والأقليم فى أمن وأمان من قطاع الطرق وأولاد الحرام . وكان صاحب عقل وتدبير وسياسة فى الأحكام ، وفطنة ورئاسة وفراسة فى الأمور » .

ومن أعماله أنه جدد سقف الجامع الأزهر ، وأنشأ مسجد سيدى ابراهيم الدسوقى بدسوق ، ومسجد سيدى المليجى بمليج . ومن مآثره أنه كان يرسل الغلال إلى الحرمين فى أوانها ، ويتصدق على الفقراء ، حتى أحبه الجميع .

وعندما تعين حسن باشا واليا من قبل السلطان ، لم يعجبه تعلق الناس بقاسم بك ومحبتهم له . فأثار عليه منافسيه من الحزب الآخر ، برئاسة ذو الفقار بك . وقامت بين الطرفين مشاحنات ومصادمات دموية ، انتهت بقتل عيواظ بك عام ١١٣٦ هـ ، وعمره ٣٢ عاماً . ولما بلغ نعيه أهل الحجاز حزنوا عليه حزناً شديداً ، وصلوا عليه

صلاة الغائب عند الكعبة ، وكذلك فعل أهل المدينة فصلوا عليه بين المنبر والمقام . (١)

وبعد مقتل قاسم بك ، تولى ابنه اسماعيل مكانه ، ولم يستطع الباشا إلا المصادقة على هذا التعيين . وكان اسماعيل بك كوالده عاقلا حكيما . فسعى إلى الوفاق مع أعدائه ، وتمكن من ذلك . فاتحدت الطائفتان ضد الباشا . وتمكن اسماعيل بك بعد ذلك من خلع الباشا . ثم خلع الباشا الجديد ، واسماعيل بك فى منصبه مكتسباً ثقة الشعب ، حتى أنهم كانوا يحبونه إلى ما يشبه العبادة .

ويروى عن عدله وعلو أخلاقه روايتان ذكرهما الأستاذ المرحوم جورجى زيدان فى كتابه « تاريخ مصر الحديث » ، قال :

« ومما يحكى عنه أن أحد تجار القاهرة فى أيامه ، وكان يدعى عثمان ، باع لأحد القبقجية (لقب يعطى للحرس السلطانى) وكان قد أتى القاهرة بمأمورية مهمة ، ثلاثمائة قنة بن إلى أجل مسمى ، وكتب عليه بذلك كتاباً . ففى أثنا مدة الاستحقاق جاء من الآستانة إعلان بخيانة القبقجى والحكم عليه بالإعدام حالا . فجىء به إلى الباشا

---

(١) تاريخ الجبرتى — الجزء الثالث

وقد جاء عن عيواظ بك فى كتاب « تاريخ مصر الحديث » للمرحوم جورجى زيدان :

« إن الناس أسفوا عليه وبكوه بكاءهم على حاكم عادل وأب حنون وأخ بار ، ولم يبق صديق ولا عدو حتى بكاه لأنه كان فضلا عن حكمته وعدله ودعته شجاعاً باسلا أبى النفس » .

فقتله ووضع يده على تركته وفيها البن كما هو . فعلم عثمان التاجر بذلك فعرض لإسماعيل بك بصفة كونه شيخ البلد ما كان من أمر البن، فأجبر الباشا أن يرجع البن لصاحبه قبل كل شيء ففعل. فأصبح عثمان فى حال من الممنونية لذلك الرجل لايعرف كيف يبينها . فلاح له أن يهديه علبة مرصعة وبعض القناطير من السكر النقى فرفض اسماعيل بك تلك الهدية وخاطب عثمان التاجر قائلا « إذا كان المال الذى حصلت عليه بواسطتى مالك ولك الحق به فأكون قد فعلت واجباتى والله يكافئنى فاذا قبلت هديتك أظلم نفسى. أما اذا كان هذا المال ليس لك وانما حصلت عليه بالحيلة فقبولى هديتك يعد مشاركة لك بالخيانة . لكنى مع ذلك أقبل السكر الذى حملته الى على شرط أن تقبل ثمنه من وكيلى لأنى سآمره أن يدفعه اليك » .

« ويحكى عنه أيضاً أنه كان يأدب فى ليالى رمضان مأدبات ليلية يجتمع إليها العلماء والفقهاء والمشائخ وقراء القرآن ولم يكن يسمح لغير هؤلاء الحضور فيها . فرأى ذات ليلة بين الحضور رجلا عليه ملامح الكآبة واليأس فأوصى بعض الخدم أنهم متى ارفض الاجتماع يأتوا بهذا الرجل إليه ففعلوا فلما حضر بين يديه أعطاه قرآنا وأمره أن يتلو عليه منه سورة .فتوقف الرجل مرتجفاً ثم ترامى على قدمى البك متضرعاً وقال « يعش سيدى البك إنى رجل نجار لا أعرف القراءة وإنما أتيت إلى هذه المأدبة متلبساً بلباس الفقهاء لأملأ جوفى من

الطعام فإنى فى حالة من الفاقة شديدة ». فأنصفه ولم يكتف بالإغضاء عن ذنبه هذا بل جعله فى عداد خدمته وجعل لعائلته راتباً معيناً وصار هذا النجار بعد ذلك من أصدق الخدم وأكثرهم غيرة وهمة » اه .

وبقى إسماعيل بك فى منصبه هذا مدة ست عشرة سنة ، تقلب على مصر أثناءها عدة باشوات لم يكونوا إلا إسماً بلا رسم . إلا أن أحد هؤلاء الباشوات تمكن أخيراً (عام ١١٣٦ ﻫ) من بذر بذور الشقاق مرة أخرى بين الطائفتين الشركسيتين ، وحرض الباشا ذو الفقار على اغتيال اسماعيل بك . فاغتاله فى إجتماع الديوان ، ونقلت جثته إلى باب اللوق حيث دفن بجوار أبيه . وتولى المشيخة مكانه ذو الفقار بك ، وكان شرساً قاسياً ، سفاكا للدماء، فقتلوه عام ١١٤٢ﻫ ، وتعين مكانه عثمان بك .

الفصل الثالث

عثمان بك . إبراهيم بك . رضوان بك

بعد أن تولى عثمان بك ذو الفقار مشيخة البلد ، رقى كثيراً من رجاله الى رتبة البكوية . وكان عثمان بك عادلا حازماً مع شيء من الصرامة ، لايراعى فى تنفيذ العدل جانباً . حكى مرة أن أحد بكواته سعى فى إقليمه ظلماً فاستدعاه إليه وإذ تحقق من فساده قطع رأسه.

وحكى مرة أن حماراً من القاهرة أراد ترميم بيته ، فعثر فى أحد جدرانه على وعاء مملوء ذهباً ، فأخذ الوعاء وسلمه إلى زوجته موصياً إياها بعدم الكلام لئلا تصادر الحكومة الذهب. فطلبت منه زوجته أن يشترى لها مصاغا وثياباً فاخرة ، فأبى زوجها خشية أن يؤدى ذلك إلى كشف أمره . فاغتاظت الزوجة،وذهبت تشكو زوجها إلى عثمان ، فاستدعى الحمار ، وبعد أن سمع حكايته قال له : إحفظ ماوهبك الله ، وطلق امرأتك وعش بسلام !

هذه أمثلة من تصرف هذا الرجل ، تدل على حكمته وعدله وكرهه للظلم والفساد .

وفى عهده حل بمصر وباء الطاعون ، ففتح عثمان بك مخازنه

وخزائنه وفرق الأقوات والأموال فى الناس . فخفف ذلك من شدة البلاء ، وفرج بعض كرب الناس .

إلا أنه مع كل ذلك ، لم يعدم عدواً يكيد له . فتآمر عليه ابراهيم كخيا الانكشارى (وهو تركى) واسماعيل كخيا العزب — وكلاهما من وجاقات الجيش — وتمكنا من إخراجه من القاهرة ، فصفا لهما الجو . وقد اتفق ابراهيم الانكشارى مع كيور أحمد باشا الوالى على إبادة البكوات الشراكسة ، فقتلوا على بك الدمياطى ، ثم اتفقوا على دعوة البكوات إلى القلعة ، ثم تقفل جميع المنافذ على من فيها ويقتلونهم. فنفذوا هذه المؤامرة ، وأول من قتل من البكوات خليل بك ومحمد بك ثم كثيرون غيرهم . وحاول على بك وعمر بك البلاط الفرار فتبعهما الباشا بنفسه ، ثم لاقاهما إبراهيم ورضوان وقتلاهما عند باب القلعة . ولم يدفن من القتلى إلا خليل بك ومحمد بك . (١)

وقد اتبع مثل هذه الطريقة فيما بعد محمد على باشا فى التخلص من الشراكسة ، كما سيجىء ذكره تفصيلا فيما بعد .

بعد هذه المذبحة ، صفا الجو لإبراهيم الانكشارى ، وتعين شيخاً للبلد . وأما شريكه رضوان بك فقد تعين أميراً للحج ، ثم جعلا يتبادلان هاتين الوظيفتين كل سنة . وقد ابتز الاثنان نقوداً

---

(١) تاريخ مصر الحديث للمرحوم جورجى زيدان — جزء ٢ ص ١١٢

كثيرة من الأهلين ، ووضعا اليد على كثير من ممتلكاتهم . وبلغ الظلم فى عهدهما منتهاه .[١]

وبينما هما فى ذلك ورد الى الباشا أمر سلطانى بقطع دابر البكوات وعلى رأسهم شيخ البلد ابراهيم ومن يلوذ به . فلما اجتمع شيخ البلد وبعض البكوات فى مجلسه أمر الحراس بقتلهم ، فقتل منهم ثلاثة . إلا أن شيخ البلد تمكن من الفرار، وعزل السلطان الباشا لافتضاح أمره وعجزه .

وبعد ذلك الحادث بخمس سنوات ، تمكن شركسى اسمه ابراهيم الشركسى من قتل ابراهيم الانكشارى (شيخ البلد) ، ثم قتل رضوان بك ، فأنقذ البلاد من شرهما.

---

(١) يلاحظ أنهما ليسا من بكوات الشراكسة .

الفصل الرابع

على بك الكبير

(١٧٥٥ — ١٧٧٢ م)

من شيخ البلد إلى سلطان مصر :

بعد مقتل شيخ البلد السابق، تولى المشيخة على بك الذى تميز فى التاريخ بعد ذلك باسم على بك الكبير .

وكان استلامه مشيخة البلد فى القاهرة عام ١١٧٧ هـ (١٧٦٣ م) وكان من أشجع الرجال الذين برزوا فى تاريخ مصر وأشدهم حنكة وذكاء . ويمت فى أصله إلى شراكسة الكوبان بالقوقاز (١) .

كان على بك واسع الأفق بعيد المطامع . وقد جعل هدفه قهر

---

(١) فى دائرة المعارف الاسلامية « الطبعة الانجليزية » الجزء الأول ص ٢٩١/٢٩٢ أنه ولد عام ١٧٢٨ بالقوقاز ، وسماه أبوه (يوسف) وكان أبوه قسيسا شركسيا اسمه داود . ولما بلغ يوسف الثالثة عشر من عمره ، اختطفته عصابة باعته إلى أحد التجار واسمه احمد ، فأحضره هذا إلى مصر وباعه إلى ابراهيم كتخدا ، وأمر بختانه وسماه (علياً) ، وجعل له مدرساً يعلمه القرآن واللغة العربية والعلوم بعد أن أعتقه ، وما إن وافى العام ١٧٥٠ م حتى كان قد أصبح كاشفاً . وفى نفس السنة عينه الباشا أميراً للحج . وقد تمكن « على » أثناء رحلته إلى مكة من صد غارات البدو وقهرهم ، فعرف منذ ذلك الحين بعلى الجنى . ثم رقاه الباشا (بيكا) ، وعينه رئيسا لديوانه .

جميع أعدائه داخلا وخارجا ، والاستقلال بحكم مصر ، إذ وجد أنه لا يمكن لمصر أن ترقى وتزدهر فى ظل هذا الحكم العجيب. وقد ساعده فى تنفيذ مآربه صديقه أحمد بك الملقب بالجزار . وسبب تلقيبه بهذا اللقب أن بعض قبائل العربان فى مصر السفلى كانت قد شقت عصا الطاعة على «على بك» فأنفذ اليها قائده أحمد مع قوة من رجاله فغلبهم وشتت شملهم ، فلقبوه بالجزار . وقد لازمه هذا اللقب طيلة حياته . وهو الذى تولى حكم عكا فيما بعد ووقف وقفته المشهورة أمام جحافل نابليون فلم يستطع نابليون احتلال عكا . وسلمت المدينة من غزو الفرنسيين .

وبعد هذه الحملة ، استمر على بك فى حملته ضد اللصوص وأعداء الأمن ، فطهر منهم البلاد ، وسعى جهده لإصلاح شؤون الأمن بعد أن تعرضت البلاد مدة للقلاقل والاضطرابات ، فخافه أعداؤه ، واستتب له الأمر .

وكخطوة أخرى نحو تحقيق مطمحه الأكبر ، وهو الاستقلال بمصر عن حكم العثمانيين كلية ، عزل وأبعد جميع رؤساء قوات الأمن ، وعين مكانهم من الموالين له ، واستند فى عزلهم إلى أسباب مختلفة[١] . ثم سعى إلى تقليل عدد القوات العثمانية فى البلاد ، فأخر

(١) فيما يلى أسماء الذين رقاهم على بك إلى رتبة البكوية وكلهم من أنصاره : رضوان بك ، على بك الطنطاوى ، اسماعيل بك ، خليل بك ، عبد الرحمن بك ، حسن بك ، يوسف بك ، ذو الفقار بك ، عجيب بك ، مصطفى بك . أحمد الجزار بك ، لطيف بك ، عثمان بك ، ابراهيم بك ، مراد بك ، محمد بك الخازندار المعروف بأبي الذهب ، سليم آغا ، سليمان كخيا . وكلهم من الشراكسة ماعدا الاثنين الأخيرين ، إذ كانوا من الانكشارية .

دفع مرتباتهم عمداً ، ثم أخذ يعطيهم بدل ماهياتهم أوراقا تخسر من قيمتها ٩٠ بالمائة عند الدفع ، فكان على بك يربح من هذه الأوراق عند عودتها اليه أرباحا طائلة ، ويعيد صرفها بثمنها الأصلى . فلما رأى الجند أنهم لا يستفيدون من ماهياتهم ، عمدوا إلى الاستقالة من الجيش وانصرفوا إلى تعاطى أشغال أخرى أكثر فائدة لهم.

وقد اعترض الوالى التركى إذ ذاك — واسمه محمد باشا — على هذه الإجراءات ، فلم يكترث على بك لاعتراضه ، واستمر فى تنفيذ خطته سراً وعلانية . وكان لعلى بك صديق اسمه محمد بك أبى الذهب ، وكان يحبه كثيراً حتى أنه زوجه بنته ، وكان يعامله كما يعامل أولاده. فاتصل به الوالى التركى لكى يتوسط له عند على بك ويقنعه بالعدول عن سياسة العداء نحو الحكومة العثمانية ، إلا أن على بك استمر على عدم اكتراثه . أما أبو الذهب ، فقد وقع تحت تأثير الباشا التركى ، الذى أغراه بالمبالغ الوافرة والمناصب العالية لو استطاع التخلص من على بك بقتله أو إبعاده . ولم يستطع أبو الذهب مقاومة هذا الإغراء ، فوعد الباشا بقتل سيده وصهره على بك. إلا أن على بك استطاع أن يعزل الوالى التركى ، وأعاده إلى استانبول . ورغما عما كان ينقل إلى على بك من مساعى أبى الذهب لقتله ، لم يزدد إلا ثقة به ، ولم يصدق ما كانوا يقولونه عنه .

وفى هذه الأثناء حضر الباشا التركى الجديد ، ومعه أمر سلطانى

بقتل على بك وإرسال رأسه إلى استانبول . فاتصل خبر ذلك سراً بعلى بك بواسطة جواسيسه فى استانبول ، فأرسل أحد أتباعه ، على بك الطنطاوى ، فى عشرة من الجند لملاقاة الباشا والقابيجى باشى حامل الفرمان السلطانى ، وتجريدهم من الفرمان . فمكثوا فى الطريق ثلاثة أيام ينتظرون مرورهم ، وفى اليوم الرابع مر القابيجى باشى ومعه ثلاثة من الجند ، ولم يكن الباشا معهم إذ كان سبقهم إلى القاهرة . فاستولى على بك الطنطاوى ومن معه على الفرمان ، وعادوا به إلى على بك . فلما اطلع عليه على بك ، أمر بدعوة الأمراء وسائر البكوات ، وقرأه عليهم ، ثم وجه اليهم الخطاب التالى :

« إن هذا الأمر ليس لقتلى وحدى ، وإنما لقتلكم جميعاً . دافعوا إذن عن حياتكم وحقوقكم ، واعلموا أن مصر مابرحت منذ القدم محكومة بدول من الشراكسة ، وقد كانوا سلاطين أشداء تفاخر بهم الأرض والسماء ، فأعيدوها اليهم . وهذه فرصة ثمينة لاتضيعوها ، فانكم لن تعثروا عمركم على فرصة مثلها . هلم إذاً نسعى إلى الاستقلال ، فإن فيه حياتنا وحريتنا » .

إعلان الإستقلال :

وقد تأثر الحاضرون بهذا الخطاب ، كما سحرتهم بلاغة على بك وفصاحته . فعاهدوه على الدفاع عنه مااستطاعوا . فكتب على بك أمراً إلى الباشا التركى بأن يبارح الأراضى المصرية خلال مدة ٤٨ ساعة ، فإذا لم يفعل قبض عليه وأعدمه ، كما أعلن فى أرجاء

مصر أنها لم تعد تابعة للدولة العثمانية ، فأعلن بذلك استقلالها من جديد ، وذلك عام ١١٨٣ هـ .

أما إستانبول ، فقد هزتها تلك الأنباء . وسيرت على مصر جيشاً من سوريا عدده عشرين ألفاً بقيادة والى دمشق . فلاقاه الشيخ ضاهر أمير عكا بقوة لاتزيد على الستة آلاف ، بينهم أولاده وأحفاده السبعة ، (وكان الشيخ ضاهر قد أعلن تبعيته لعلى بك بمصر). وتمكن الشيخ ضاهر بهذه الآلاف الستة من تشتيت العشرين ألف عثمانى وردهم على أعقابهم ، وذلك فى موقعة بالقرب من طبريا عام ١١٨٣ هـ . وبعد هذه الموقعة أمسك الباب العالى عن إرسال الجند ، وصرف العثمانيون جهدهم لمحاربة روسيا التى كانت قد أعلنت عليهم الحرب.

أعماله وفتوحاته :

أما على بك ، فقد هزه هذا النصر وأطربه . فأقسم ليعملن على رفعة شأن مصر ، ورفاهية شعبها . فخفض الضرائب ، وأعاد تنظيم الحكومة ودواوينها على أساس جديد يكفل حسن السير فيها ، وراحة المحكومين . وعين على المالية مدير الجمارك القديم المعلم ميخائيل فرحات القبطى . كما نظم التجارة الخارجية ، وأبعد العربان إلى الصحراء ، فساد الأمن ، وانتشر الإصلاح بالقطر ، ولقبه الناس «بمبيد اللصوص» . [١]

(١) جورجي زيدان — تاريخ مصر الحديث جزء ٢ ص ١٢٤

وفى سنة ١١٨٣ ﻫ ثار عليه عربان الصعيد ، وأشهرهم قبائل الهوارة (وقد جاءوا من تونس الغرب واستقروا فيما بين جرجا وفرشوط) فأنفذ اليهم على بك صهره وصديقه محمد بك أبى الذهب ، فحاربهم وتغلب عليهم ، وجردهم من كل ثروتهم إبقاء على حياتهم .

وبعد أن استتب الأمر فى الصعيد لعلى بك ، جرد حملة لافتتاح اليمن بقيادة محمد بك أبى الذهب . فسار فى عشرين ألف رجل ، وقطع برزخ السويس ، ومضيق العقبة ، ولم يبق على أحد من القبائل التى حاولت الوقوف فى طريقه ، وما زال حتى بلغ اليمن وافتتحها . وفى طريقه اليها افتتح جدة وسواحل البحر الأحمر . وبعد ستة أشهر من سير الحملة تم احتلال شبه جزيرة العرب بأكلها وفى جملتها مكة المشرفة ، وعاد أبو الذهب إلى مصر بهذا النصر فاحتفلت به القاهرة احتفالا مناسباً .

وبعد افتتاح مكة ، أرسل شريفها الأمير عبد الله إلى على بك الكبير يثبته على ملك مصر ، ويلقبه « بسلطان مصر وخاقان البحرين » . فأعجب هذا اللقب على بك وأمر بأن ينادى به ، وأن يخطب باسمه فى صلوات الجمعة ، وضرب النقود سنة ١١٨٥ ﻫ فى القاهرة باسمه . وبذلك حقق مطامحه كاملة .

خيانة محمد بك أبى الذهب :

بعد افتتاح شبه الجزيرة العربية ، والتوفيق الذى أصابه فى ذلك محمد بك أبو الذهب ، قرر على بك الكبير (السلطان الآن) تحصين حدوده السورية ، وحماية مملكته الجديدة من خطر الغزو العثمانى

فى المستقبل . فسير على بك أبا الذهب على رأس جيش قوامه ثلاثون ألفاً لهذا الغرض ، وأمره باحتلال سوريا وإعادتها إلى حظيرة الممتلكات المصرية . وفى نفس الوقت افتتح المخابرات مع الدول المعادية لتركيا بغية عقد محالفات دفاعية هجومية بينه وبينها فوافقت روسيا على ذلك (وكانت قيصرتها فى ذلك الحين كاترينا الثانية) كما وافقت عليه حكومة فينيسيا (البندقية) بايطاليا. أما جيوش على بك ، فقد احتلت فى زحفها غزة والرملة ونابلس والقدس ويافا وصيدا ، الى أن بلغت دمشق فحاصرتها ، ولم تلبث أن سلمت لعلى بك .

إلا أنه مما يؤسف له أشد الأسف ، أن يقدم هذا الرجل الذى وضع على بك ثقته التامة فيه، وقربه اليه، وزوجه من إحدى بناته، على خيانة سيده ومليكه . فقد أسكرته نشوة تلك الفتوحات، وتخابر مع الآستانة بشأن عزل على بك الكبير وإعادة مصر الى حظيرة الممتلكات العثمانية ، فجاءه الرد من الآستانة بالايجاب ، ووعدوه بالمساعدة ، وأغروه بالألقاب . فما كان من هذا الخائن إلا أن حول جنوده وجهة مصر ، ولكنه لم يجسر على المسير رأساً إلى القاهرة، بل تحول إلى الصعيد ، وعسكر فى أسيوط مدة ، ثم سار على القاهرة على رأس جيش كبير ، فبلغ ضواحيها فى أوائل سنة ١١٨٦ هـ . وعسكر بالقرب من مصر القديمة .

فلما علم على بك الكبير بهذه الأنباء ، حزن حزناً شديداً لخيانة زوج ابنته وصديقه القديم ، ولكنه عزم على المقاومة . وفى هذه

الأثناء وردت الى على بك رسالة من أحد أبناء صديقه الشيخ ضاهر والى عكا بأن يبارح القاهرة حالا ويأتى الى أبيه فى عكا . فبارح على بك القلعة ومعه بعض رجاله (١) ، ونسائه ، وسار الى سوريا عن طريق الصحراء . وفى اليوم التالى دخل أبو الذهب القاهرة (مساء ٩ محرم سنة ١١٨٦ هـ) .

وفى طريقه الى سوريا، هاجمته بعض القبائل البدوية ، ففر جزء من رجاله ، كما نهب البدو بعض الجمال المحملة بالأرزاق والنقود . وقد استطاع على بك أن يبلغ عكا بعد ثمانية أيام من تركه القاهرة ، فرحب به أميرها ، إلا أنه كان يكابد المرض الشديد من جراء ما انتابه من الحزن الشديد ، وما كابده أثناء السفر .

وبعد أن استراح بضعة أيام، استعرض الموقف. وكانت قد جاءته بعض الأسلحة عن طريق بعض السفن الروسية ، فعزم على استرجاع ملكه وقهر أبى الذهب . فأمر أحد قواده المخلصين واسمه على بك الطنطاوى (تمييزاً له عن على بك الكبير) باسترجاع المدن السورية التى دخلت فى حوزة أبى الذهب. فسار واحتل صور وصيدا وحاصر يافا خمسة أشهر واحتلها بعد ذلك ، وفى أثناء الحصار أخذ غزة عنوة ، وسلمت له اللد والرملة بلا قتال . فأعاد يافا الى إمرة الشيخ ضاهر ، وجعل على اللد حسن بك الجداوى (٢) ، وعلى الرملة سليم بك .

---

(١) يقال أن عدد رجاله كان ستة آلاف رجل بينما كانت قوة ابى الذهب تزيد على أربعين ألفاً .

(٢) وهو شركسى ، ولقب بالجداوى لاحتلاله جدة أثناء حملة أبي الذهب على اليمن كما تقدم .

الزحف على القاهرة وخيانات جديدة :

وفى ٩ ذى القعدة سنة ١١٨٦ ﻫ وصلت إلى على بك (وكان فى يافا) رسل من القاهرة تدعوه الى استعادة ملكه ، وتشكو اليه ظلم أبى الذهب ووطأة حكمه . وأغروه بأن القاهرة ستفتح له أبوابها ترحيباً لاستقبال ملكها القديم ، وأن الشعب سيفتك بأبى الذهب فيما لو حاول ان يأتى بما يخالف الإجماع .

وقد هزت هذه الأقوال مشاعر على بك، وعزم على إنقاذ مصر من أبى الذهب وبطشه. فسار على رأس ٨ آلاف رجل ، منهم ٣٥٠٠ من المغاربة استأجرهم للقتال ، وفى ١١ محرم سنة ١١٨٧ وصل على بك الى خان يونس، وفى ١٦ منه التقت قواته بطلائع قوات أبى الذهب ، وعددها ١٢ الف مقاتل . وبعد قتال بضع ساعات غلبهم على بك ، واحتل بلدة الصالحية ، بعد أن أصيب بجروح خلال المعركة ، منعته من امتطاء جواده وقيادة جنوده ، وأصيب على أثرها بحمى شديدة .

وكان أبو الذهب قد جمع جنوده ، وسار على رأسهم لملاقاة على بك . فلما علم «على بك» ذلك ، لم تمنعه الحمى أو الجراح من الاستعداد للقتال ، فنظم قواته القليلة ، وعين على الجناح الواحد على بك الطنطاوى ، وعلى الجناح الآخر إبن الشيخ ضاهر ، وقاد هو جنود القلب . ونشبت المعركة ، ففازت جنود على بك وقاربت النصر

التام . فأرسل أبو الذهب جواسيسه إلى المغاربة يغريهم على الخيانة بالذهب . فلما جاء اليوم التالى ونشب القتال ، انحاز المغاربة إلى جنود أبى الذهب ، ومعهم مراد بك الذى كان أغراه أبو الذهب بأن يعطيه « نفيسة » زوجة على بك التى كان يحبها حباً شديداً لجمالها وذكائها . فلما رأى جنود على بك هذه الخيانة الجديدة هبطت عزائمهم ، وقتل الطنطاوى ، واستطاع بعض الآخرين النجاة ، ففروا إلى خيمة على بك وأنبأوه بما حدث ، طالبين منه أن يسير معهم طلباً للنجاة . فأبت نفسه الكريمة ذلك ، وخاطب الداخلين عليه بقوله : « إنى ملازم هذا الموضع لا أبارحه حتى تبارحنى نفسى ، لأن الموت فيه أفضل عندى من الفرار . أما أنتم ، فإذا شئتم النجاة بأنفسكم فبادروا إلى الفرار قبل أن يغشاكم ما ربما لا تقوون على دفعه » . فودعوه ، واتجهوا نحو خان يونس قاصدين غزة .

نهاية البطل :

وبعد بضع ساعات ، حضر الى خيمته خمسون رجلا تحت قيادة الكخيا نائب محمد أبى الذهب ، فوثبوا على «على بك» فى فراشه ، وكان المرض مشتداً عليه من تأثير الجراح ، لكنه نهض وجرد سيفه فقتل أول مهاجم ، ثم قتل اثنين آخرين ، واستعد للقاء الباقين . ولكن أنى لهؤلاء الرعاديد الاقتراب من ذلك البطل ؟ لقد أخذهم التردد بعد مقتل ثلاثة من رفاقهم ، فما كان منهم الا أن أطلقوا عليه البنادق دفعة واحدة ، فجرحوه جراحاً بليغة جديدة فى ذراعه اليمنى ، وأماكن أخرى من جسمه . ولكن على بك لم يمت ولم يستسلم ، بل أمسك

سيفه بيسراه ، وقتل من مهاجميه عـــدداً آخر ، إلى أن وثب عليه الكخيا بنفسه ، فقاتله على بك قتالا شديداً ، وأصيب فى ذراعه اليسرى وفخذه وخاصرته ، فسقط على الأرض لكثرة ما نزف منه من دماء ، وهو لا ينفك عن الدفاع . فتكاثر عليه الجند ، واستطاعوا القبض عليه ، وما زال قلبه ينبض بالحياة ، فأخذوه إلى أبى الذهب وألقوه عند قدميه . فأمر بحمله إلى القاهرة فحملوه إليها وأنزلوه فى داره بدرب عبد الخالق فى شارع البكرى . فلبث فيها سبعة أيام ، وهو يغالب الموت . وفى اليوم الثامن توفاه الله ، ويقال أن أبا الذهب وضع له السم فى جراحه فقتله ، وهو الذى لم يقو خمسون رجلا على قتله بالسيوف والبنادق !

* * *

وهكذا مات هذا البطل الخالد . ولولا خيانة أبى الذهب ، وخيانة المغاربة ، وطمع بعض الرجال ضعاف القلوب ضعاف الخلق ، لتحول وجه التاريخ ولتمكنت مصر من استعادة حريتها واستقلالها ، ولسارت خطوات واسعة إلى الأمام . وذلك لما اتصف به على بك الكبير من صفات الملك وحبه لرعيته ورغبته الشديدة فى الاصلاح . وكان إلى جانب ذلك صحيح الفراسة شديد الذكاء يقرأ الوثائق والأوراق الرسمية بنفسه ولا يختم ورقة حتى يقرأها ويزن ما جاء فيها . وكان واسع الاطلاع ، عريض الأفق ، عظيم الهيبة ، حتى اتفق لأناس أنهم ماتوا من شدة هيبته ، وكانت تأخذ الرعدة بعضهم بمجرد المثول بين يديه ، فيهون عليهم ويتبسط معهم .

وبوفاة على بك عادت مصر وممتلكاتها مرة أخرى تابعة للدولة العثمانية . وابتدأ عصر جديد من الفوضى . وكان على بك قد وضع حدا أثناء حكمه لكل ذلك فأصلح الشؤون وصان حقوق الناس وأمنهم ، حتى تعلقت به الآمال باعتزاز مصر ورفع شأنها (١) ولكن موته — بيد أخلص أصدقائه — وضع حدا لكل ذلك .

بعض مآثره :

ومن مآثر هذا الرجل — عدا أعماله السياسية والحربية — قيامه بكثير من المشاريع العمرانية والإنشائية . ومنها : المسجد العظيم بطنطا ، والقبة على مقام السيد البدوى ، وقبة الامام الشافعى ، والوكالات التى أنشأها ببولاق ، والسور العظيم الذى أنشأه حول بولاق للدفاع ، وكثير من المدارس والسبل والجسور والمساجد ، هذا بخلاف القلاع والمعاقل والطوابى التى أقامها للدفاع عن مصر . (٢)

(١) المرحوم جورجى زيدان فى كتابه تاريخ مصر الحديث جزء ٢ ص ١٣٤

(٢) من أمثلة التجنى على الرجال والتاريخ ، ما يقوله الأستاذ أحمد حافظ عوض بك فى كتابه (فتح مصر الحديث) — ص ٢٠ — فى معرض الكلام عن على بك الكبير : « وليس غرضنا شرح تاريخ على بك ، فان الغرض من هذه المقدمة هو بيان ما كانت عليه أحوال مصر عند الحملة الفرنسية ، وإنما أردنا من ذكر قيام هذا (المملوك) بمناوأة الدولة العثمانية ، إظهار أن سياسة الدولة فى مصر كانت عقيمة ، وأنها تركتها ألعوبة فى أيدى اولئك المماليك الأفاقين السفاكين للدماء ، الطامعين فى الاستزادة من السلطان » . فهل هذا كلام يقال فى حق رجل أراد العزة والاستقلال لبلده ، وكان عصره من أجل العصور وأزهاها بشهادة كبار المؤرخين الثقات ؟ أم إن طلب الاستقلال أصبح عيباً فى نظر بعض الكتاب ؟ ألسنا على حق حين قلنا إن بعض مؤرخي هذا العصر قد ملكتهم شهوة لا ندرى مصدرها ، ولكنها على كل حال ليست شهوة البحث العلمي المنزه عن الأغراض ؟!

الفصل الخامس

أبو الذهب ، مراد بك ، إبراهيم بك

(١٧٧٣ — ١٧٩٨ م)

أبو الذهب :

بعد وفاة على بك الكبير ، استتب الأمر لأبى الذهب ، الملقب « بالخائن » . وقد ترك له السلطان العثمانى حرية التصرف فى مصر ، وثبته على الولاية مع لقب باشا . فكان أن عمل على تعقب رجال على بك والفتك بهم ، وكان أهمهم فى نظره الشيخ ضاهر والى عكا . فجمع جيشاً سار على رأسه ووجهته فلسطين ، ولم تنته سنة ١١٨٩ هـ حتى كانت فلسطين بأكملها فى يده ، ماعدا ولاية عكا .

وكان أن اعترضت مدينة يافا طريقه ، فحاصرها ، ثم احتلها عنوة ، وأمر بقتل القسم الأعظم من سكانها ، ونهب ممتلكاتهم . وبلغت تلك الفواحش مسامع الشيخ ضاهر فى عكا ، فخشى أن يفتك أبو الذهب بأهالى مدينته كما فتك بأهالى مدينة يافا . ففضل ترك عكا رفقاً بأهلها ، إلا أن أبا الذهب صمم على الإنتقام من السكان المساكين ، فأعمل فيهم القتل وفى مدينتهم السلب والتخريب ، وكذلك فعل بكافة المدن التى اعترضت سبيله .

إلا أن الله سبحانه وتعالى لم يترك هـذا الرجل يتمادى فى غشه وظلمه ، إذ وجد أثناء استعداده للرجوع إلى مصر ميتا فى فراشه ، واختلفت الآراء فى موته . فمن قائل أنه مات بداء النقطـة ، وقال آخرون بل إنه قتل مسموماً بيد أحـد رجاله إنتقاماً لضحاياه الكثيرين . وكان موته عام ١١٨٩ هـ ، فلم يتمتع بنتائج خيانته أكثر من عامين اثنين .

وبعد وفاة أبى الذهب ، تولى مراد بك إمرة الجيـوش ، فعاد بها إلى مصر ومعه جثة رئيسه ، وتولى مشيخة البلد إسماعيل بك الذى كان استخلفه عليها أبو الذهب عند خروجه لافتتاح عكا .

كان اسماعيل بك هذا يدعى أنه من أنصار على بك الكبير ، وأنه اضطر إلى مجاراة أبى الذهب خوفاً من بطشـه . ولذلك فإنه عمد بعد إعلان مشيخته إلى ملاينة أتباع على بك وملاطفتهم . إلا أن مراد بك ، وزميله ابراهيم بك ، وهما من البكوات الشراكسة الذين كانوا قد انحازوا إلى أبى الذهب ، لم يعجبهما ذلك التصرف ، واضطرا اسماعيل بك إلى الفرار ، فخلا لهما الجو ، واقتسما الأحكام ، فتعين مراد أميراً للحج وابراهيم شيخاً للبلد . وأما الإيراد فاقتسماه فيما بينهما بالتساوى .

مراد بك : (١٧٧٥ — ١٧٩٨م)

وصف الجبرتى مراد بك بقوله : « كان أشقر اللون ، مربوع

القامة ، كث اللحية ، غليظ الجسم والصوت ، بوجهه أثر ضربة سيف ، ظالماً غشوماً متهوراً ، مختالا متكبراً ، إلا أنه كان يحب العلماء ويتأدب معهم وينصت لكلامهم ويقبل شفاعتهم . وقيل عنه إنه كان يستطيع أن يقطع رأس الثور بضربة واحدة من حسامه . وهيئته كهيئة الليث الغضنفر ، لم يباره أحد فى ميدان القتال ، وإذا غضب ارتعش الواقف أمامه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه . ومع هذا فقد كان كريماً جواداً ، كريم العفو ، سريع الغضب سريع الرضاء ، يقدر كفاءة الناس حتى أعداءه . مخلصاً لأصدقائه ، باراً بوعده » .

إبراهيم بك : (١٧٧٥ — ١٧٩٨ م)

وأما إبراهيم بك ، فهو زوج أخت محمد بك أبى الذهب . ترقى إلى رتبة البكوية عام ١١٨٢ هـ ، وعين فى عام ١١٨٦ هـ أميراً للحج . وبعد عودته عين دفترداراً . ولما خرج أبو الذهب على رأس الحملة السورية عهد إليه بولاية مدينة القاهرة ، وعهد إلى اسماعيل بك بولاية مصر بصفة « قائمقام » (عام ١١٨٩ هـ) . ولما مات ابو الذهب ورثه إبراهيم بك بصفته أقرب الناس اليه ، كما ورث عنه النفوذ والسطوة .

محاربتهما مع العثمانيين :

بعد اعتلائه العرش ، قرر السلطان عبد الحميد استرجاع النفوذ العثمانى فى مصر ، وقهر البكوات . فأرسل جيشاً جديداً بقيادة حسن باشا ، فوصل ميناء الإسكندرية فى ٢٥ شعبان سنة ١٢٠٠ هـ

ولما وصل نبأ ذلك إلى ابراهيم ومراد ، عبئا جيشاً وسارا على رأسه لملاقاة العثمانيين ومنعهم من الوصول إلى القاهرة . فالتحم الفريقان عند الرحمانية ، فى معركة قصيرة الأجل ، أسفرت عن انتصار العثمانيين بفضل مدافعهم . وفر مراد وابراهيم مع من بقى من رجالهما إلى الصعيد .

وفى طريقها إلى القاهرة نهبت الجنود العثمانية المدن والقرى . وفى ٥ شوال سنة ١٢٠٠ هـ دخلت مدينة القاهرة ، فأمر قائدها حسن باشا بمصادرة أمتعة المنهزمين ، وعرض نسائهم وأطفالهم للبيع . فلم يرق ذلك للمشايخ ورجال الدين لمخالفته لأحكام الشريعة الإسلامية ، وذهبوا لمقابلة حسن باشا . فانتهرهم ، ولكنهم ثبتوا أمام تهديده قائلين : « لقد أرسلت الينا لمعاقبة شخصين مجرمين وليس لهتك شرائعنا والطعن فى عوائدنا ، فاكتب إلى الآستانة ماشئت » . فاستثنى الباشا النساء الحوامل من البيع ، وبيع الباقون ! ! (١)

وكان حسن باشا هذا من أفظع الرجال الذين رأتهم مصر . إذ كان فظاً غليظ القلب ، فبدلا من إصلاح الحال أفسده ، وزاد الطين بلة . وفضلا عن انتهاك حرمات المسلمين ، وبيع أطفالهم ونسائهم ، أمر باضطهاد أهل الذمة من النصارى واليهود وصادر أمتعتهم وباعها بالمزاد العلنى ، وقبض على زوجة المعلم ابراهيم الجوهرى أمين المحاسبة وأمرها بأن تدله على نقود زوجها ، وأهانها ، فدلتهم .

وكان مراد بك وابراهيم بك فى هذه الأثناء ما زالا مختبئين فى الصعيد ، ولم يستطع حسن باشا أن يظفر بهما بالرغم من الحملات المختلفة

(١) تاريخ الجبرتى — الجزء الرابع .

التى سيرها على الصعيد لأسرهما أو قتلهما . فلما رجع حسن باشا إلى استانبول ، ظهرا مرة أخرى ، ودخلا القاهرة فى ٢١ ذى القعدة عام ١٢٠٥ هـ ، فاستلما مرة أخرى زمام الأحكام ، وانتقما من أعدائهما ، وألزما الباشا التركى قلعته لا يبرحها بغير إذنهما . وكان قد تولى السلطنة العثمانية السلطان سليم بعد وفاة السلطان السابق . فلم يعر كل هذه الحوادث إهتماماً ، وهكذا عاد ابراهيم ومراد إلى اقتسام النفوذ فى البلد .

حالة البلاد فى هذا العصر

التجارة والجمارك :

كان التجار أغنى طبقات الشعب ، ووصل بعضهم إلى درجة عظيمة من الثراء . وكان لمصر جمارك فى ثغورها التجارية مثل القاهرة والسويس ودمياط ورشيد والاسكندرية . وكان إيراد هذه الجمارك مقسما بين مراد بك وابراهيم بك . وكان ابراهيم بك يقيم من أتباعه عمالا يحصلون مكوس الجمرك ، بخلاف مراد بك فإنه أعطى جمارك الثغور التى كانت فى قسمته لأربعة « ملتزمين » ، وجعل على كل منهم خراجا معينا يؤدى إليه فى أوقاته ، وينالون هم إيراد الجمارك ويتكفلون بمصاريف إدارتها كمرتبات العمال والكتبة . وكان إيراد جمارك القطر المصرى وقتئذ نحو ثلاثة ملايين فرنك (١٢٠,٠٠٠ جنيه) . (١)

الزراعة والصناعة :

كانت الزراعات المعروفة فى مصر هى الحبوب والقطانى والأرز

---

(١) تاريخ الحركة القومية — الجزء الأول — للاستاذ عبد الرحمن بك الرافعى .

وقصب السكر والبرسيم والسمسم والكتان والبصل . وكان القطن يزرع فى بعض جهات الوجه البحرى والصعيد . كما كان ينسج فى بعض معامل النسيج بمصر .

وقد اقتصرت الأعمال الصناعية على بعض الصناعات الثانوية ، وكان لكل حرفة طائفة يرأسها شيخ يسمى « شيخ طائفة » ، ولهؤلاء وكلاء يعرفون بالنقباء . وكان لهذا النظام بعض المزايا فى ترقية الصناعة وتعليم الصناع المبتدئين .

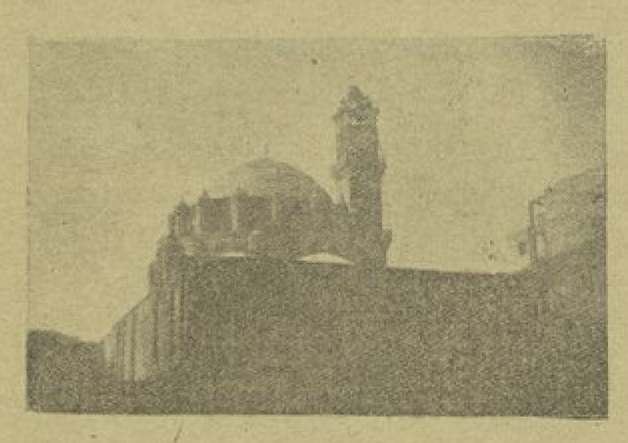
ومن الصناعات المزدهرة فى ذلك العصر : إعتصار الزيت من البذرة ، وضرب الأرز ، واستخراج السكر من القصب ، واستخراج الخل من البلح أو الزبيب ، واستقطار ماء الورد والعرق وبعض أنواع الخمور ، وصناعة المربات وأصناف الحلوى ، وصناعة الجلود ، وحياكة المنسوجات من القطن والكتان والصوف ، والغزل بالمغازل اليدوية ، وصناعة اللباد ، والبسط المعروفة بالأكلمة ، والتطريز ، ودباغة الجلود ، وصناعة الأحذية والسروج والسيور وما إليها ، وصنع الجير ، وضرب الطوب ، والأوانى الخزفية ، وغيرها .

التقسيمات الإدارية :

كانت مصر مقسمة إدارياً فى هذا العصر إلى ستة عشر إقليما هى : البحيرة ، ورشيد ، والغربية ، والمنوفية ، والمنصورة ، ودمياط ، والشرقية ، والقليوبية ، والجيزة ، واطفيح ، وبنى سويف ، والفيوم ، والمنيا ، وأسيوط ، وجرجا ، وقنا .

وبلغ عدد سكان القاهرة فى ذلك العصر حوالى ثلاثمائة ألف نفس ، وبلغ سكان الاسكندرية ٨,٠٠٠ نفس ، والمحلة الكبرى ١٧,٥٠٠ نفس ، والمنصورة ٧,٥٠٠ نفس ، والجيزة ٣,٠٠٠ نفس ، وأسيوط ١٢,٠٠٠ نفس ، ورشيد ١٣,٠٠٠ نفس ودمياط ٢٠,٠٠٠ نفس .

وقد بلغ عدد سكان القطر المصرى بكامله فى ذلك العصر حوالى ثلاثة ملايين نفس ، وكان عدد الشراكسة ومن إليهم حوالى تسعة آلاف شخص .



جامع محمد بك أبى الذهب بجوار الأزهر الشريف

الفصل السادس

حملة نابليون على مصر ونتائجها

كانت فرنسا فى تلك الأثناء فى صراع عنيف مع السياسة الإنجليزية . وكان نابليون يطمع للقضاء على تجارة الإنجليز مع الهند، بأن يحتل مصر ، ويحفر قناة توصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر . وفى الفقرة التالية ، وهى من كلام طويل خاطب به نابليون رجاله عند استعداده للهجوم على مصر ، المعنى الحقيقى الذى رمى إليه نابليون من احتلال مصر . قال :

« ولا يخفاكم أننا إذا ثبتنا قدمنا فى مصر لاتلبث انجلترا طويلا فى الهند . فإننا نجعل على سواحل البحر الأحمر حاميات نقيمها فى معاقل منيعة ، نذخر فيها من نتاج ذلك القطر وتحول التجارة الهندية إليه . على أننا لو فرضنا بقاءها عن طريق رأس الرجاء الصالح كما هى الآن ، لأقمنا بيننا وبينها باباً للمباراة ، وفتحنا ترعة بين السويس والنيل . ولا شك أننا إذا فعلنا ذلك نحبط مساعى انجلترا جملة لأن التجارة تتحول بجملتها إلينا . فإذا فتحنا مصر لا تقتصر منفعتها لنا كمنفعة سائر المستعمرات العظيمة ، ولكننا بها نعرقل مساعى انجلترا ، فنكفى مؤونة مقاومتها ، هذا إذا لم نذهب بها إلى الحضيض » .

فكانت حملة نابليون على مصر . وكان أول ظهورها على الشواطىء المصرية فى يوم الاثنين ١٨ محرم سنة ١٢١٣ هـ. فكتب والى الاسكندرية السيد محمد كريم أحد الأشراف الوطنيين الى مراد بك وابراهيم بك فى القاهرة ينبئهما بذلك . فلما تلا مراد بك الرسالة غضب وركب جواده قاصداً ابراهيم بك وكان قاطناً فى سراى القصر العينى . فلما وصل بعث الى بكير باشا الوالى وسائر الأعيان والأمراء يدعوهم إلى عقد اجتماع مستعجل . وفى أثناء الإجتماع قال مراد بك ناظراً إلى بكير بك شزراً « لا ريب أن الفرنساويين لايجسرون على القدوم الى مصر من تلقاء أنفسهم فلعلهم جاءوا بأمر من الباب العالى . ولكننا لانبالى بمن تحدثه نفسه بمداهمتنا بل ندوسه تحت حوافر خيولنا . والله قادر أن ينصرنا على الإثنين » .

وبعد المجادلة ، تم الإتفاق على اتخاذ خطة للدفاع ، بأن يسير مراد بك فى فرقة من الفرسان على الضفة الغربية لفرع رشيد نحو الاسكندرية لمنع الفرنسيين من التقدم نحو القاهرة ، وأن يعسكر إبراهيم بجنده على الضفة الشرقية عند بولاق لحماية القاهرة .

وأرسل بكير باشا الى الآستانة يلتمس النجدة .

وفى مساء اليوم التالى أنزل نابليون جنوده الى البر ، فاحتلت الاسكندرية بعد قتال عنيف ، وفر السيد محمد كريم وجنوده الى قلعة فرعون ، ثم عاد واستسلم الى الفرنسيين . فاستماله نابليون ،

وأعاد اليه سلاحه ، قائلا : « لقد أخذت سلاحك بالسيف وكان لى أن أعاملك معاملة الأسير ، ولكنى أرداليك سيفك آملا أن تكون مساعداً أميناً للجمهورية الفرنسية كما كنت للحكومة السابقة على عتوها وظلمها».
ثم سأله اذا كان يرغب فى معاضدة مشروعهم الذى هو تأييد سلطة الباب العالى وقمع سلطة «المماليك» فأجاب السيد محمد كريم بالايجاب.
فعينه نابليون حاكما لمدينة الاسكندرية تحت إشراف الجنرال كلايبر

وبعد تلك الحادثة أصدر نابليون للأهالى منشوراً يحرضهم فيه على قتال «المماليك» ، ويوهمهم بأن الفرنسيين مسلمون أحباء سلطان العثمانيين ، وأنهم (أى الفرنسيين) لارغبة لهم إلا إعادة مصر إلى الحكم العثمانى (كذا والله) ... بينما «المماليك» قوم كافرون (كذا).
وختم منشوره بقوله : « وعلى المصريين جميعاً أن يشكروا فضل الله سبحانه وتعالى على انقراض دولة المماليك قائلين بصوت واحد عال: أدام الله إجلال سلطان العثمانيين. أدام الله إجلال العسكر الفرنساوى. ولعن الله المماليك ! » (١)

أما مراد بك ، فإنه جمع فرسانه ، وأخذ معه كثيراً من المؤن التى صادر بعضها من الأهالى بدون ثمن ، كما أخذ معه بعض المدافع والبارود . وقبل مبارحته القاهرة أنشأ سلسلة من الحديد طولها ١٣٠ ذراعا على عرض البوغاز عند برج « مغيزل » من البر إلى البر لمنع مراكب الفرنسيين من المرور ونصب عند هذه السلسلة عدداً

(١) تاريخ الجبرتى — الجزء الرابع .

من المدافع . وما زال مراد بك سائراً بمن معه حتى شارف طلائع الفرنسيين عند قرية شبرايس ، فاشتبك معهم وظهر عليهم حتى أوشك الفرنسيون على الانهزام. إلا أنه لسوء حظ مراد بك ، وقعت قنبلة فى المركب الذى كانت فيه ذخائر جيشه، فاحترقت وتطايرت أجزاؤها فى الفضاء. فانذعر المصريون، وصادف وصول بونابرت بقوة جديدة من الجند ، فأعاد الكرة على جند مراد بك بعد اعادة تنظيم جنده مربعات منتظمة، وبعد الأخذ والرد مدة انهزم المصريون، وعاد مراد بك بمن بقى من جنده الى القاهرة ، وتحصن فى إمبابه ، ومعه أربعون مدفعاً .

فلما شارف نابليون الأهرام ، وجد أن مراد بك قد استعد هذه المرة للقائه جدياً . فخطب فى جنوده خطبة حماسية ، وقال لهم: «أيها الجنود . إعلموا أن خمسين جيلا من الناس تنظر اليكم من قمة هذه الإهرامات وتراقب حركاتكم ناظرة ما سيؤول اليه أمركم مع هؤلاء المماليك » ثم أعطى إشارة الهجوم . فبادرهم مراد بك باطلاق المدافع ، فتوقف الفرنسيون عن الزحف . وهنا أخطأ مراد بك الخطأ الذى قلب سير الحرب ، إذ خرج من تحصنه ، واستخف بالفرنسيين وقائدهم ، وأعطى أمره بالهجوم ، ولم يكن سلاح جيشه غير السيوف . فهجم أيوب بك قائد الفرسان هجمة الأسود الضارية ، وتبعته باقى السناجق ، فلاقاهم الفرنسيون بنيران بنادقهم فحصدتهم حصداً ، إلا أن أيوب بك لم ينفك عن الهجوم مجرداً سيفاً ، وهو

يهدر بصوت كالرعد « ويل لكم أيها الكفار الملاعين ، لقد ساقكم كبرياؤكم إلى أرضنا ، فهلا ! اننا سنملأ القبور بأجسادكم ، ونجعل هذا اليوم عبرة وتذكرة لمن يأتى بعدكم . أما نحن فان مات أحدنا فانه يذهب شهيداً الى النعيم . ومن بقى حياً فله السعادة الى آخر أيامه ! » .

استمرت الحرب سجالا بين الطرفين ، ولكن أنى للسيوف أن تغلب الرصاص والبارود ؟ تساقط جند الشراكسة وفرسانهم بكثرة وكان معهم عدد من المصريين ، وقتل أيوب بك الشجاع فى هذه المعركة ، واحتل نابليون إمبابة .

وأما مراد بك فقد تقهقر برجاله جنوباً ، وثبت ابراهيم بك بجنوده لملاقاة الفرنسيين . ولكنهم غلبوه كما غلبوا زميله من قبل ، وانهزم ابراهيم بك إلى بلبيس ومنها إلى عكا . ودخل نابليون القاهرة . كل ذلك ، والباب العالى لا يحرك ساكنا ولا يرسل نجدة ، ولا يقدم احتجاجاً وكأن هذه الحوادث لا تعنيه فى شىء ! . . .

ولكن الانجليز ، وهم أعداء نابليون الحقيقيون والمقصودون من غزوة مصر ، لم يعجبهم ذلك الانتصار ، فجاؤا إلى الاسكندرية بقوة بحرية كبيرة ، يقودها الأميرال المشهور نلسن . فقام نلسن بحركة حربية بارعة كان من شأنها أن أوقعت الأسطول الفرنسى

بين نارين ، فحطم جزءاً منه ، واستولى على البعض الآخر ، ولم يمض على بدء المعركة أكثر من ساعتين !

إلا أن انجلترا فقدت نلسن فى هذه المعركة . فقد أصابته رصاصة فى رأسه قضت عليه . وكذلك قتل الأميرال برويس قائد الأسطول الفرنسى بأن شطرته قنبلة انجليزية شطرين .

وفى ظهر اليوم التالى ، لم يكن للأسطول الفرنسى أى أثر فى مياه الاسكندرية !

* * *

وأما السيد محمد كريم ، الذى أبقاه نابليون حاكما على الاسكندرية ، فقد أرسل سرا إلى مراد بك كتابا يقول فيه إنه انما تواطأ مع نابليون مؤقتا ريثما يستطيع أن يقوى عليهم ، وانه مستعد لتسليمه الاسكندرية اذا أراد . فاكتشف الفرنسيون نبأ هذا الكتاب ، وبعث نابليون وراء السيد محمد . فلما حضر طلب منه نابليون افتداء نفسه بثلاثمئة ألف فرنك ، وإلا قطع رأسه . فضحك السيد كريم من هذا القول ، وقال لنابليون « إذا قدر لى الموت فلا يدفع الدفع مقدوراً ، وإذا قدرت لى الحياة فأنا حى بغير دفع ! » فأمر نابليون بقطع رأسه ، وطافوا بها فى الأسواق !

* * *

ثورة فى القاهرة :

أصدر نابليون أمراً فى سبتمبر سنة ١٧٩٨ بأن يحمل جميع سكان

مصر شارة الجمهورية الفرنسية ، كما أمر بأن لاتنظر السلطات فى أية شكوى إذا لم يكن مقدمها حاملا لتلك الشارة . وقد حاول نابليون إلباس هذه الشارة للشيخ الشرقاوى رئيس الديوان ، فثار الشيخ ورمى بها إلى الأرض . فغضب نابليون على الشيخ الشرقاوى وقال إنه لايصلح للرئاسة .

وقد أتى الفرنسيون بكثير من المظالم ، كمصادرتهم لكثير من البيوت بحجة الحاجة اليها ، وهدموا أبواب الحارات ، وقطعوا رواتب الأوقاف الخيرية عن الفقراء ، وصادروا الماشية والسلاح ، وفرضوا ضرائب باهظة على أصحاب الحرف والصناعات ، كما أصدر الجنرال (برتييه) أمره بهدم الجامع الأكبر ليلا . وفرضوا — فوق كل ذلك — ضرائب على نساء البكوات . وقد بلغ من شدة وطأة هذه الضرائب أن عجز بعضهن عن الدفع . فالتجأ أكثرهن إلى السيدة نفيسة زوجة مراد بك ، فدفعت فدية عن أولئك النسوة وبعض الكشاف ماقدره مائة وعشرين الف ريال فرنساوى (١) . وقال «ريبو»(٢) أن مجموع مافرضه الفرنسيون على نساء الشراكسة بلغ ٦٠٠ ألف فرنك ، وأن ما أخذوه من السيدة نفيسة وحدها بلغ ٤٩٢،٨٥٧ فرنكا ، وذلك إلى ٢١ سبتمبر سنة ١٧٩٨ م .

---

(١) الجبرتى — الجزء الثالث .

(٢) التاريخ العلمى والحربي للحملة الفرنسية — الجزء الثالث

ويقول « ريبو » أيضا إن السيدة نفيسة زوجة مراد بك اضطرت لدفع حصتها فى الغرامة أن تنزل عن حليها وجواهرها ، ومنها ساعة مرصعة بالجواهر كان أهداها لها القنصل «مجالون» باسم الجمهورية الفرنسية تقديراً لرعايتها للتجار الفرنسيين، فكان اضطرارها للنزول عن هذه الهدية للفرنسيين احتجاجاً شريفا منها .

إزاء كل هذه المظالم ، ثارت القاهرة فى وجه نابليون وجنده يوم الأحد ٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨م (١١ جمادى الاولى سنة ١٢١٣ ﻫ) وكان مقر هذه الثورة الأزهر الشريف ، وفيه تألفت لجنة لإدارتها ونشر دعوتها. وكان الثوار يزحفون جموعاً نحو مقر القيادة الفرنسية وهم يصيحون : إلى بونابرت ! إلى بونابرت ! فقابلهم الجنرال «ديبوى» وحاول تهدئتهم ، ولما لم يفلح أمر رجاله بالهجوم ، فأطبق الناس على الجنرال من كل جانب وقتلوه ، فأذكى قتل هذا الجنرال نار الثورة والكفاح فى نفوس الشعب الهائج ، وزاد عدد الثائرين بمن انضم اليهم . وهنا حضر نابليون إلى القاهرة ، فاذا هى بركان هائج ، فأخذ من فوره ينظم جنده لمواجهة الحال ، وأمر بضرب المدينة بالمدافع فأخذت آلاف القنابل تنهار على الأزهر والأحياء المجاورة . ثم زحفت قوات كبيرة من الفرنسيين فاحتلت الشوارع الموصلة للأزهر ، وأطلقوا بنادقهم على الشعب الهائج . فأحدث ذلك أثره ، وطلب الثوار الهدنة . وانتهت الثورة ثانى يوم من بدئها .

وقد ارتكب الفرنسيون كثيراً من الفظائع الجديدة بعد إخماد

الثورة ، ونهبوا البيوت والحوانيت . وقدر عدد من قتل من المصريين خلال هذين اليومين بثلاثة آلاف شخص .

السيدة نفيسة مراد :

هى زوجة مراد بك أحد زعماء الشراكسة — وقد بقيت فى القاهرة بعد انهزام زوجها ورجاله إلى الصعيد . وهى شركسية ، وكانت زوجة على بك الكبير . وبعد وفاته تزوجها مراد بك .

كانت نفيسة ذات جمال رائع ، وعلى جانب كبير من التثقيف والتهذيب ، تعلمت العربية قراءة وكتابة ، وأقبلت على الكتب العلمية والأدبية تطالعها بشغف ولذة . فارتقت مداركها ، واتسعت معارفها ، فاكتسبت احترام العلماء والأمراء . وكذلك اجتذبت قلوب الشعب بما اشتهرت به من البر والإحسان وحماية الضعفاء ، وكانت تتبرع بإعانات شهرية لكثير من العائلات الفقيرة ، واستمرت تؤدى هذه الأعانات حتى فى أيام محنتها . فكانت أعظم شخصية نسائية ظهرت فى مصر فى ذلك العصر .

وكانت نفيسة ، لحكمتها ونفوذها الواسع ، مقصد الزعماء ورجال الدين أمثال السيد البكرى والشيخ الشرقاوى . وكانوا دائماً يحترمون رأيها ويقرونها عليه .

وقد حاول نابليون أن يتودد اليها عند ما بدأت الأمور تتعقد فى القاهرة ، إذ كان يرجو أن تساعده فى كبح جماح الشعب المصرى الهائج . وكان قد أشيع فى ذلك الوقت أن مراد بك قد وصل متخفياً إلى

الجيزة وأنه صعد قبة الهرم وأخذ يتبادل الإشارات مع زوجته السيدة نفيسة وهى فوق سطح قصرها المطل على بركة الأزبكية بدرب عبد الحق (ميدان الأوبرا الآن) . فانتهز نابليون هذه الفرصة ، ودعاها لمقابلته ، متودداً ، مظهراً كل ضروب الإحترام والإكرام ، ثم قال لها: « إنى لو علمت أنك تريدين الإجتماع بزوجك لما تأخرت فى أن أعلن هدنة بينى وبينه لمدة أربع وعشرين ساعة تلتقيان خلالها .. إذا كان فى هذا ما يسرك ويسره » .

ولكن السيدة نفيسة ، المرأة الجبارة ، لم ترد على كلام نابليون بكلمة شكر ، بل أجابته بقولها : « لو فكر زوجى أن يترك رجاله وعسكره ليلتقى بى لمدة أربع وعشرين ساعة ، فلن يكون زوجى » !! ثم انصرفت .

وحدث بعد هذا أن طلب نابليون أن يزورها فى قصرها . وبعد انتهاء الزيارة ، أرسلت إلى «أوجين» ابن جوزفين زوجة نابليون خاتماً ثميناً من الزمرد هدية له بمناسبة زيارة نابليون لها . وبعد وصول الهدنة بأيام ، فرض الفرنسيون عليها ضريبة فادحة . فلما احتجت أفهموها أنها ما دامت تملك مثل ذلك الخاتم الثمين فلا شك أنها قادرة على دفع الضريبة . فردت السيدة نفيسة قائلة : « ما كان يجب أن أكرمكم من مالى ، بل أدعكم تسرقونه ! » .

***

وبعد جلاء الفرنسيين — كما سيجىء — استهدفت السيدة نفيسة

لكثير من مظالم الولاة الأتراك . فقد ذكر الجبرتى ما وقع من خورشيد باشا من إساءة معاملتها ، فقال ما خلاصته أن الباشا أمر بإحضارها إلى القلعة واتهمها بتحريض الجند على الثورة، وأنها تدفع لهم رواتبهم . فأنكرت نفيسة هذه التهمة ، ووبخت الباشا توبيخاً شديداً قائلة : « طول عمرى عشت بمصر وقدرى معلوم عند الأكابر وخلافهم . والسلطان ورجال الدولة وحريمهم يعرفوننى أكثر من معرفتى بك . ولقد مرت بنا دولة الفرنسيس فما رأيت منهم إلا التكريم . وكذلك محمد باشا خسرو كان يعرفنى ويعرف قدرى ولم نر منه إلا المعروف . وأما أنت فلم يوافق فعلك فعل أهل دولتك ولا غيرهم » . وفى هذه الأثناء حضر بعض العلماء ومنهم الشيخ الشرقاوى واحتجوا لدى الباشا على استجواب هذه السيدة الفاضلة، فاضطر الباشا الى إخلاء سبيلها معتذر .

وقد عاشت السيدة نفيسة حتى عصر محمد على (ومات زوجها قبلها) إلى أن توفيت سنة ١٢٣١هـ (١٨١٦ م) بعد أن فقدت مالها ، وعزها ، ولكنها لم تفقد أبداً كرامتها وحب الناس لها .

قال عنها الجبرتى : « كانت شهيرة الذكر بالخير، ولها على الفقراء بر وإحسان . ولها من المآثر الخان الجديد والصهريج داخل باب زويلة . ودفنت فى القرافة الصغرى بجوار الامام الشافعى » .

وقال عنها « فيلكس مانجن » المؤرخ المعروف :

« لم تكن جميلة جداً ، ولكنها كانت ذكية غاية الذكاء . ولم

يكن فى استطاعتك أن ترى عينيها ولا شفتيها ، لأنها كانت تجبرك على أن تطأطىء رأسك احتراماً لها ».

سير الحوادث :

فى ليلة السبت ٢٤ جمادى الأولى سنة ١٢١٤ هـ وصل القاهرة هجان برسالة من السلطان العثمانى، ومعه رسالة أخرى من أحمد باشا الجزار والى عكا (وقد ورد ذكره فى ترجمة على بك الكبير) موقع عليها من ابراهيم بك، وبكير باشا (والى مصر السابق) ، وفى الرسالتين تحريض على العصيان ، وقتال الفرنسيين ، وتحذير للمصريين من تصديق ما يشيعه الفرنسيون عن حبهم للإسلام والمسلمين . وقد وزع من هاتين الرسالتين عدد على الأهالى ، ووقعت نسخ منه فى أيدى نابليون. فأصدر منشوراً مضاداً وعلقه على الجدران قال فيه :

« نخبركم يا أهل المدائن والأمصار من المؤمنين وياسكان الأرياف من العربان والفلاحين أن ابراهيم بك ومراد بك أرسلوا عدة من المكاتبات والمخاطبات إلى سائر الأقاليم المصرية لأجل تحريك الفتنة وادعوا أنها من حضرة مولانا السلطان . وسبب ذلك أنه حصل لهم الغم الشديد والكرب الزائد فأرادوا أن يوقعوا الفتنة والشر بين الرعية والعسكر الفرنساوى لأجل خراب البلاد . ونخبركم أن الطائفة الفرنساوية بالخصوص عن بقية الطوائف الافرنجية يحبون المسلمين وملتهم ويبغضون المشركين وطبيعتهم وهم أصحاب مولانا السلطان قائمون بنصرته. فننصحكم يا أهل الأقاليم المصرية أن لاتحركوا الفتن

ولا تعارضوا العسكر الفرنساوى بشىء من أنواع الأذية فيحصل لكم الضرر والهلاك والبلية » .

حملة بونابرت على سوريا :

ويظهر أن نابليون قرر بعد هذا الحادث احتلال سوريا وإزالة كل نفوذ فيها للعثمانيين . ولعله أراد عقاب الجزار والى عكا على منشوره . فأعد جنوده وعتاده ، وفى ٢٥ شعبان (أول فبراير سنة ١٨٩٩ م) سار الجنرال كلابر والجنرال رينر فى مقدمة الحملة نحو العريش، وفى ٥ رمضان (أو ١٠ فبراير) سار بونابرت بمن بقى منها . وكان على العريش قاسم بك من قبل الجزار ، وقد عسكر خارج المدينة. فهاجمه نابليون بغتة وشتت جيشه وقتل قاسم بك فى المعركة. إلا أن حامية المدينة أبت التسليم بادىء الأمر ، ثم أذعنت لتهديد نابليون، فسلمت له المدينة يوم ١٤ رمضان سنة ١٢١٣هـ. وفى ١٧ منه بلغ الفرنسيون مدينة يافا ، فسلمت له الحامية المؤلفة من أربعة آلاف رجل أكثرهم من الأرناؤوط بعد أن منحهم نابليون الأمان، ثم عاد فأمر بإعدامهم جميعاً . ولما بلغت جيوش نابليون أسوار مدينة عكا ، كانت أنباء هذه المجزرة قد بلغت أحمد باشا الجزار الوالى ، فصمم على الدفاع . وانفصلت قوة فرنسية متجهة نحو القدس لاحتلالها ، فلم تفلح .

وفى يوم ٢٠ مارس سنة ١٨٩٩ م ابتدأ هجوم نابليون على أسوار عكا ، فامتنعت عليه . فأعاد الهجوم مرة بعد مرة ، وفى كل مرة

يتحطم الهجوم ويفشل . فلما كان اليوم الخمسون من بدء الحصار أمر نابليون بهجوم نهائى على المدينة . فكانت نتيجة هذا الهجوم مثل سابقيه ، وقتل خلاله كثير من الفرنسيين وبعض قوادهم المشهورين مثل الجنرال كافارلى والجنرال بون . وهنا أصاب اليأس نفس نابليون، فأمر بترك عكا والعودة إلى مصر بكامل جيشه ومعهم الجرحى . فقاسوا أثناء الطريق عذاباً مراً من العطش وتفشى فيهم الوباء .وفى ٢ ذى الحجة (٢ يونيو) وصل الجيش المهزوم العريش ، فلم يجدوا فيها ماء . وكان الماء الذى يشربونه ملآناً علقاً يمتص الدم ، فكان يلتصق بحلوقهم عند الشرب فيعذبهم عذاباً أليماً .

وهكذا انتقمت عكا من نابليون ذلك الإنتقام المريع وأذلته . وشهد ابراهيم بك هذ الانتصار فى عكا ، واشترك فيه ، فأزاح عن نفسه بعض ذل الانكسار فى موقعة القاهرة ، وبدأ يجمع رجاله للزحف على مصر من جديد !

وأما مراد بك ، فإنه اغتنم فرصة خروج نابليون من مصر على رأس الحملة السورية ، فجمع بعض رجاله ونظم صفوفهم وابتدأ الزحف لملاقاة ابراهيم بك زميله وشريكه .فلما وصل نابليون القاهرة وعلم بهذه الأنباء ، كان ابراهيم قد عسكر بجنده عند سفح جبل المقطم . فأرسل إليه نابليون فرقة من الجند اشتبكت مع قوات ابراهيم بك واستطاعت تشتيتها .

الحملة العثمانية الانجليزية :

وفى ١١ يوليو سنة ١٧٩٩ م وصلت حملة عثمانية إلى أبى قير ، بعد أن اتضحت نيات الفرنسيين الصريحة للباب العالى . كما إن الحكومة الانجليزية حرضت السلطان العثمانى على مقاومة الغزو الفرنسى ومنته بالمساعدة الحربية . فانزعج نابليون لهذه الأخبار . وأدرك أن حلمه بالسيطرة على مصر والعالم لن يتحقق . . .

أنزل العثمانيون قواتهم ، وتبعهم الانجليز ، وقامت بينهم وبين الفرنسيين معارك عديدة أهمها معركتى أبى قير ورشيد . وقد انتهت هذه الحروب باستسلام نابليون ، ووقعت معاهدة ٢٥ يونيو سنة ١٨٠١ م .

نهاية الحملة الفرنسية ونتائجها :

هكذا انتهت الحملة الفرنسية على مصر ، فعادت مرة أخرى ولاية عثمانية .

وفى هذه الأثناء توفى مراد بك بالطاعون، وظهرزعيمان جديدان للشراكسة هما عثمان بك البرديسى ، ومحمد بك الألفى .

وقد قضت الحملة الفرنسية على نفوذ بكوات الشراكسة، فقللت من عددهم إذ قتل كثيرمنهم فى المعارك التى نشبت مع القوات الفرنسية .

وإلى هؤلاء البكوات يعود الفضل فى مقاومة الفرنسيين وقيادة الحملات الحربية ضدهم . كما يعود إليهم الفضل فى نشر الدعوة ضدهم فى سوريا ولبنان ، فكان لذلك أثره فى فشل الحملة السورية .

الفصل السابع

نهاية الشراكسة ــ مذبحة القلعة

من انسحاب الفرنسيين إلى ولاية محمد على :

انسحبت الجيوش الانجليزية من مصر ، وتركتها للعثمانيين . وتعين والياً عليها يوسف باشا الصدر الأعظم ، يساعده القائد العثمانى حسين باشا قبطان الأسطول (وقدمر ذكره فى عصر على بك الكبير) فعين يوسف باشا ابراهيم بك من جديد شيخاً للبلد . ولكن حسن باشا (وكان يكره الشراكسة كما تقدم) استصدر أمراً من الباب العالى بالقبض على ابراهيم بك وزعماء البكوات (وذلك فى ٢٠ اكتوبر سنة ١٨٠١) فقبض عليهم ، وأحرق بعض بيوتهم فى الجيزة ، وقتل منهم عدداً آخر . ولم ينقذهم من الهلاك التام إلا تدخل الانجليز ، فأطلق سراح المعتقلين ، واستطاع ابراهيم بك الوصول إلى مصر العليا (الصعيد) حيث احتمى مع بعض رجاله .

وفى ١٢ جمادى الأولى سنة ١٢١٦ ﻫ تولى خسرو باشا ولاية مصر ، فناهض الشراكسة من جديد ، وأرسل جيشاً لمحاربتهم ، فانهزم جيشه عند بنى سويف . وتحصن الشراكسة عند دمنهور ، واتصلوا ببعض الإنجليز الذين كانوا فى الاسكندرية . وفى معركة دمنهور

تمكن البرديسى من قهر الجنود العثمانية ، فتم له بذلك أول نصر هام وذلك عام ١٨٠٢ م .

وفى سنة ١٨٠٣ غادر من بقى من الإنجليز مدينة الاسكندرية نهائياً ، وصحبهم زعيم بكوات الشراكسة محمد بك الألفى إلى انجلترة حيث أكرموه وقدموا له الهدايا الفاخرة ، ووعدوه بالتوسط لدى الباب العالى بأن يعود البكوات إلى تسلم مقاليد الحكم كما كان الحال قبل الحملة الفرنسية ، فينتهى بذلك اضطهاد ولاة الترك للشراكسة فى مصر ، بعد أن ظهرت سياسة بعضهم العدائية واضحة نحوهم منذ عودتهم إلى مصر بعد الحملة الفرنسية .

وعاد خسرو — بعد خروج الانجليز — وجهز حملة جديدة لقتال البكوات واستخلاص الصعيد من أيديهم ، فأبى الجند السير حتى يعطيهم الباشا رواتبهم المتأخرة ، ولما لم يجابوا إلى طلبهم ثاروا ، فاضطر خسرو باشا للفرار إلى دمياط ، وعين طاهر باشا قائد الجند والياً مؤقتاً حتى يصدر أمر الآستانة بتوليته . إلا أن الانكشارية — وكانوا فى القاهرة مع قائدهم أحمد باشا والى المدينة الذى كان فى طريقه إلى بلاد العرب — ثاروا هم أيضاً مطالبين برواتبهم ، وقامت الحرب بينهم وبين الأرناؤوط ، فدخل اثنان من الانكشارية على طاهر باشا وقتلاه وتولى احمد باشا الحكم مكانه .

محمد على :

بعد مقتل طاهر باشا — قائد الارناؤوط — تولى القيادة محمد

على . وكان فيما مضى قائد فرقة عددها ٣٠٠ — وكان محمد على ضمن القوة العثمانية التى جاءت مصر مع القبطان حسين باشا بالاشتراك مع الحملة الانجليزية ، ورقى فى مصر إلى رتبة «بكباشى» . وبعد مقتل رئيسه طاهر باشا دعا محمد على زعيمى البكوات عثمان بك البرديسى وابراهيم بك ، واتفق معهما على مناهضة احمد باشا واخراجه من الولاية . فكتب ابراهيم بك إلى احمد باشا يطلب منه الخروج من القاهرة حالا وإذا بقى فيها إلى ما بعد الساعة الحادية عشرة من ذلك اليوم أهدر دمه . فترك احمد باشا المدينة مرغماً ، وأصبح الامر فى يد ابراهيم بك والبرديسى ظاهراً ، إذ كان محمد على يشير عليهما فى كل خطواتهما .

وبعد هرب احمد باشا ، قبض البرديسى على خسرو باشا فى طنطا واعتقله فى القلعة . وبعد هذا الانتصار ، أخذ محمد على والبرديسى يتحببان إلى الناس ، ففتحا مخازن الغلال ، ووزعا الصدقات على الفقراء . ثم عين الباب العالى على باشا الجزائرلى والياً على مصر خلفاً لمحمد خسرو المعتقل . ولكنه لم يلبث طويلا حتى قتل .

وتلا ذلك عودة الألفى من انجلترا . فخشى «محمد على» عاقبة اتفاقه مع الحكومة الانجليزية ، وأثار عليه زميله البرديسى . ومع أن مصلحة البكوات كانت تقضى عليهم إذ ذاك بالاتحاد ، إلا أن البرديسى — لوثوقه التام بمحمد على — عمل على عرقلة مساعى

الألفى وشتت رجاله ، فلم يسعه الا الإختفاء فى الصعيد .

وبعد ذلك قامت ضجة الأرناؤوط — جنود محمد على — مطالبين برواتبهم. فأحالهم «محمد على» على البرديسى (اذ كان تاركا كل شىء فى يده ظاهراً) فاضطر البرديسى الى فرض ضرائب جديدة . فذعر الناس ، واشتدت ثورة الجند . عند ذلك خشى محمد على أن يكيد له البكوات كما يكيد لهم ، فكشف النقاب عن وجهه ،وأرسل فى مارس سنة ١٨٠٤ م جنوده لحصار البرديسى وابراهيم بك فى منزليهما . فما طلع الصبح الا والإثنان — ومعهما بعض رجالهما — قد رحلوا عن القاهرة ، ووجهتهم الصعيد . وبذلك خلا الجو فى القاهرة لمحمد على .

إلا أن محمد على الحذر رأى أن الفرصة ما زالت غير مواتيه لتحقيق مطامحه النهائية ، فعمد إلى فك أسر خسرو باشا ، مظهراً للشعب المصرى والسلطان العثمانى عدم تآمره مع البكوات على الباب العالى . إلا أن حيلة محمد على لم تنجح لأن أقرباء طاهر باشا ثاروا على خسرو وأنزلوه فى قارب إلى رشيد ومنها الى الآستانة . فاستعمل محمد على الدهاء مرة أخرى ، وأشار بتعيين والى الاسكندرية — خورشيد باشا — والياً على مصر . فأيد الباب العالى هذا التعيين ، وتعين محمد على قائمقاماً له (أى نائباً) وذلك فى ذى القعدة سنة ١٢١٨ هـ (مارس ١٨٠٤ م) .

وفى سنة ١٨٠٩ عرض محمد على الصلح على ابراهيم بك —

وكان قد جمع رجاله فى الصعيد وكون منهم قوة جديدة — فرفضه ابراهيم بك محتجاً بكثرة ما سفك بينهما من دماء . (١) فقرر محمد على محاربته ، وسار إليه فى الصعيد ، واشتبك مع الشراكسة فى مواقع متعددة . وفى أثناء ذلك ، بلغه أن خورشيد باشا قد استقدم جنداً من المغاربة لتوطيد سلطانه ، وكان قد بدأ يوجس خيفة من الارناؤوط ونفوذ محمد على ، فأسرع محمد على بالعودة إلى القاهرة بحجة طلب العلف لخيله . وهناك أنبأه خورشيد باشا نبأ تعيينه والياً لجدة ، وألبسه خلعة الولاية وشارات الحكم . ولما خرج يريد الركوب ثار العساكر وطالبوه بالعلوفة ، فقال لهم محمد على : هذا هو الباشا عندكم فطالبوه . وسار قاصداً بيته بالأزبكية ، ناثراً الذهب على الناس طول الطريق .

وبعد ذلك بثلاثة أيام ، حضر العلماء برئاسة السيد عمر مكرم والشيخ عبد الله الشرقاوى الى منزل محمد على ، وشكوا من سوء تصرف الجنود التى استقدمها الوالى ، وطلبوا عزله . فسألهم محمد على عمن يريدون توليته بدله . فقالوا « لانرضى بك بديلا وتكون والياً علينا بشروطنا » . وتقدم السيد عمر والشيخ الشرقاوى وألبساه الكرك والقفطان — وهما شارات الحكم — ثم سار الجميع نحو القلعة ، ومعهم الجند ، فحاصروا القلعة ، وطلبوا من خورشيد النزول ، فأبى قائلا أنه معين من قبل السلطان فلا ينزل عن

(١) دائرة المعارف الاسلامية ص ٥١/٥٣

كرسيه بأمر الفلاحين . واستمر فى القلعة يحاصره الأرناؤوط والمصريون الذين كانوا فى خدمة محمد على ، حتى حضر مرسوم السلطان بتولية محمد على حكم مصر فى يولية سنة ١٨٠٥ م (ربيع آخر سنة ١٢٢٠ هـ) فلم يسع خورشيد باشا إلا الإذعان .

ولاية محمد على باشا:

وهكذا تمكن محمد على باشا من الوصول إلى غرضه الأساسى، إلا أن البكوات لم يعجبهم هذا التعيين. وكان الألفى فى تلك الأثناء مقيماً فى الصعيد ، فلما علم بتولية محمد على باشا نزل بفرسانه طالباً خلعه ، وتخابر فى ذلك مع خورشيد باشا ، كما اتصل بالحكومة الإنجليزية عن طريق ممثلها فى مصر . وقد تمكنت هذه الحكومة من إقناع الباب العالى بإرسال عفو شامل عن البكوات وجميع رجالهم . وصل الألفى بك فى غرة ربيع آخر سنة ١٢٢١ هـ . وفى ١٤ منه وصل أسطول عثمانى وعلى ظهره موسى باشا مرسلا من قبل السلطان والياً على مصر ومعه فرقة جديدة من الجند وأمراً سلطانياً إلى محمد على بنقله إلى ولاية سلانيك ، وإعادة الأمراء المصريين (البكوات الشراكسة) الى مناصبهم فى الإمارات والأحكام.

كان هذا الأمر الجديد مفاجأة لمحمد على باشا، فتظاهر بالقبول، ولكنه استعان بنفس القوة التى نصبته فى الولاية . فحرك المشايخ والعلماء وجعلهم يكتبون التماساً للسلطان ولقبطان الأسطول يطلبون

فيه بقاءه ، ويبدون تخوفهم من البكوات فيما لو عادوا لحكم البلاد . وكان لسفير فرنسا رغبة شديدة فى بقاء محمد على باشا لمناوأة السياسة الانجليزية ، فسعى جهده مع قبطان الأسطول لإقناعه بإبقاء محمد على ، واتفق أن يكون القبطان هذه المرة أيضا حسين باشا السابق ذكره ، فرأى أن يؤيد طلب بقاء محمد على باشا لدى السلطان ، فأرسل محمد على باشا الهدايا إلى السلطان مع ابنه ابراهيم وكتب خطاباً يتعهد فيه بكل ماطلبه الباب العالى من البكوات ، فيدفع ٤٠٠٠ كيس فى كل كيس خمسة جنيهات مجيدية كل سنة زيادة على قيامه بالحج ونفقاته. وفى ٥ شعبان سنة ١٢٢١ هـ بارحت العمارة العثمانية الاسكندرية وعليها موسى باشا وابراهيم بن محمد على باشا . وفى أواخر شعبان (نوفمبر سنة ١٨٠٦ م) وردت الأوامر من الآستانة بتثبيت محمد على باشا على ولاية مصر ، مع الإيعاز اليه بأن لا يتعرض للشراكسة بعد ذلك لصدور العفو عنهم قبلا (١) .

وفى الشهر التالى توفى عثمان بك البرديسى . وفى ١٩ ذى القعدة سنة ١٢٢١ هـ (يناير سنة ١٨٠٧ م) توفى محمد بك الألفى ، فتولى زعامة الشراكسة مكانهما شاهين بك .

حملة فريزر (سنة ١٨٠٧ م) :

اعتبرت الحكومة الانجليزية تثبيت «محمد على» على ولاية مصر إخلالا بالاتفاق ، وعملا عدائيا موجها اليها . فأرسلت فى شهر مارس

(١) تاريخ الجبرتى — الجزء الرابع .

سنة ١٨٠٧ م (محرم سنة ١٢٢٢ ه) حملة قوامها ٧٠٠٠ جندى بقيادة فريزر (FRASER) غرضها معاونة البكوات على استرجاع نفوذهم والقضاء على ولاية محمد على باشا ومنع الفرنسيين من بسط نفوذهم فى البلاد[١]. وقد وصلت هذه الحملة بعد وفاة الألفى . وكان المنتظر أن يساعد البكوات فريزر ، إلا أنهم آثروا المصلحة القومية وساعدوا محمد على فى مقاومته للحملة الانجليزية بعد أن فاوضهم وأجابهم الى كل شروطهم . فتمكن محمد على من قهر الحملة الانجليزية ، وانسحبت جنودها نهائياً من الأراضى المصرية فى سبتمبر سنة ١٨٠٧م . ولو كان الألفى باقياً لتفاقم الخطب ولتعذر على محمد على مواجهة الموقف .

وبعد انسحاب القوات الانجليزية زال أكبر خطر كان يتهدد محمد على باشا ، فاستقر له الأمر فى مصر . وتم الصلح بينه وبين البكوات بقدوم زعيمهم شاهين بك إلى مصر بالهدايا الثمينة ، فأكرمه محمد على وبنى له قصراً نفيساً لسكناه فى الجيزة . وأما ابراهيم بك فإنه لم يثق بنيات محمد على باشا ، فآثر البقاء فى الصعيد مع بعض رجاله .

مذبحة القلعة :

وفى سنة ١٨٠٩ وصل الأمر إلى محمد على باشا باحتلال الحجاز ومحاربة الوهابيين ، فبذل محمد على جهده فى تعبئة الجيش وتجهيز المؤن والذخائر ، وعقد لواءه لابنه طوسون باشا . وقد خشى أن يغتنم

(١) المعروف أن السياسة الفرنسية كانت تؤيد محمد على باشا . وكان ممثل فرنسا بالقاهرة يشير عليه أحياناً بما يفعله . راجع كتاب :
Histoire de la nation Egyptienne-Gabriel Hanotaux vol. 5

البكوات هذه الفرصة ، فيعودون للثورة عليه ، فقرر أن يغدر بهم ، ودبر لهذا الغرض مكيدة القلعة المشهورة .

وقد وصف «الجبرتى» مذبحة القلعة بشىء من التفصيل فى تاريخه . والجبرتى — فوق أنه مؤرخ له مقامه — عاصر المذبحة ودون أنباءها . ولذلك رأينا أن ننقل وصفه هنا كما رواه ، مع شىء من التهذيب فى بعض الألفاظ . قال : (١)

وفيه قلد الباشا ابنه طوسون باشا صارى العسكر المتوجه إلى الحجاز . وأخرجوا جيشهم إلى ناحية قبة العزب ونصبوا الخيام . وأظهر الباشا الاجتهاد الزائد والعجلة وعدم التوانى ، ونوه بتسفير عساكره لناحية الشام لتمليك يوسف باشا عمله ، وأن صارى عسكرهم شاهين بك الألفى ونحو ذلك من الايهامات . وطلب من المنجمين أن يختاروا وقتاً صالحاً لإلباس ابنه خلعة السفر ، فاختاروا له الساعة الرابعة من يوم الجمعة . فلما كان يوم الخميس طاف آلاى جاويش بالأسواق وحوله قابجية ينادون بقولهم (يارن آلاى) ويكررون ذلك فى أخطاط المدينة . وطافوا على كبار العسكر والأمراء المصرية الألفية وغيرهم يطلبونهم للحضور فى باكر النهار إلى القلعة ليركب الجميع بتجملاتهم وزينتهم أمام الموكب . فلما أصبح يوم الجمعة ركب الجميع وطلعوا إلى القلعة وطلع المصرية (أى أمراء الشراكسة) بمماليكهم وأتباعهم وأجنادهم . فدخل الأمراء عند الباشا وصبحوا عليه وجلسوا معه حصة وشربوا القهوة وتضاحك معهم .

(١) تاريخ الجبرتى — الجزء الرابع — ص ١٢٧ وما بعدها

ثم سار الموكب على الوضع الذى رتبوه . فسارت طائفة الدلاة (المغاربة) وأميرهم المسمى « أزون على » ، ومن خلفهم الوالى والمحتسب والأغا والوجاقلية والألداشات المصرية ومن تزيا بزيهم ، ومن خلفهم طوائف العسكر والبيكباشيات وأرباب المناصب ، وابراهيم أغا أغات الباب وسليمان بك البواب يذهب ويجيء ويرتب الموكب. فلما انجر الموكب وفرغ طائفة الدلاة ومن خلفهم الوجاقلية والألداشات المصرية وانفصلوا من باب العزب ، عند ذلك أمر صالح قوج بغلق الباب ، وعرف طائفته بالمراد ، فالتفتوا ضاربين بالمصرية وقد انحصروا بأجمعهم فى المضيق المنحدر . فلما حصل الضرب أراد الأمراء الرجوع القهقرى فلم يتمكنوا من ذلك لانتظام الخيول فى مضيق النقر . وعلم العساكر الواقفون بالأعالى المراد ، فأخذوا هم أيضاً بالضرب . فلما نظروا ما حل بهم أسقط فى أيديهم ، وارتبكوا وتحيروا فى أمرهم ، ووقع منهم أشخاص كثيرون . فنزلوا عن الخيل واقتحم شاهين بك وسليمان بك البواب وآخرون فى عدة من مماليكهم راجعين إلى فوق والرصاص نازل عليهم من كل ناحية ، ونزعوا ما كان عليهم من الفراوى والثياب الثقيلة ولم يزالوا سائرين وشاهرين سيوفهم حتى وصلوا إلى الرحبة الوسطى المواجهة لقاعة الأعمدة وقد سقط أكثرهم . وأصيب شاهين بك ووقع إلى الأرض ، فقطعوا رأسه وأسرعوا بها إلى الباشا ليأخذوا عليها البقشيش . وكان الباشا عندما ساروا بالموكب ، ركب من ديوان السراية وذهب

إلى بيت الحريم وهو بيت اسماعيل أفندى الضربخانة . وأما سليمان بك البواب فهرب من حلاوة الروح ، وصعد إلى حائط البرج الكبير ، فتابعوه بالضرب حتى سقط وقطع رأسه هو أيضاً . وهرب كثيرون إلى بيت طوسون باشا بقصد الالتجاء إليه فقتلوهم وأسرف العسكر فى قتل الأمراء المصريين وسلب ما عليهم من الثياب ، ولم يرحموا أحدا ، وأظهروا كامن حقدهم ، فلم يرقوا لصارخ ولا شاك ولا مستغيث ، وتتبعوا الهاربين فى نواحى القلعة وزواياها وقبضوا على كل من أمسك حيا أو لم يمت من الرصاص أو كان متخلفاً عن عن الموكب أو جالساً مع الكتخدا كأحمد بك الكيلارجى ويحى بك الألفى وعلى كاشف الكبير ، فسلبوا ثيابهم وجمعوهم إلى السجن تحت مجلس كتخدا بك ، ثم أحضروا « المشاعلى » لرمى أعناقهم فى حوش الديوان واحداً بعد الآخر ، من ضحوة النهار إلى أن مضت حصة من الليل ، حتى امتلأ الحوش بالقتلى . وكانوا كلما مات أحد المشاهير المعروفين قطعوا رأسه وسحبوا جثته إلى باقى الجثث ، حتى أنهم ربطوا شاهين بك من رجليه ويديه وسحبوه على الأرض مثل الحمار الميت إلى حوش الديوان . هذا ما حصل بالقلعة . أما أسفل المدينة ، فإنه عند ما أغلق باب القلعة وسمع من بالرميلة صوت الرصاص دب الخوف فى نفوس الناس وهرب من كان واقفاً بالرميلة . وعند ما تحقق العسكر حصول الواقعة وقتل الأمراء انبثوا كالجراد إلى بيوت الأمراء ومن جاورهم

طالبين النهب والغنيمة ، فولجوها بغتة ونهبوها نهباً ذريعا ، وهتكوا الحرائر والحريم ، وسحبوا النساء والجوارى والخوندات والستات وسلبوا ما عليهن من الحلى والجواهر والثياب ، وأظهروا الكامن فى نفوسهم ، ولم يجدوا مانعاً ولا رادعا . وبعضهم قبض على يد امرأة ليأخذ منها السوار فلم يتمكن من نزعه بسرعة فقطع يدالمرأة . وحل بالناس فى بقية ذلك اليوم من الفزع والخوف وتوقع المكروه مالا يوصف . ونهبت دور كثيرة من دور الأعيان الذين ليسوا من الأمراء المقصودين . وأصبح يوم السبت والنهب والقتل والقبض على المتوارين والمختفين مستمر . وركب الباشا فى الضحوة ونزل من القلعة وحوله أمراؤه الكبار مشاة ، وأمامه وخلفه عدة الفرح والسرور بقتل الأمراء المصريين ونهبهم والظفر بهم ، طافح من وجوههم . فأوقف الباشا أعمال النهب وقاصص اثنين ممن ضبطوا فى نهب أحد بيوت المغاربة . ثم عرج على بيت الشيخ الشرقاوى وكان قد التجأ اليه شخصان من الكشاف ، فكلمه بشأنهما وترجى عنده فى أعناقهما ، فمنحهما الباشا الأمان . ثم ركب الباشا إلى القلعة وأرسل ورقة إلى الشيخ يطلبهما . فقال لهما الشيخ : إن الباشا أرسل هذه الورقة يؤمنكما ويطلبكما إليه . فقالا : وما يفعل بنا ؟ إنه لاشك يقتلنا ! فقال الشيخ : لا يصح ذلك ولا يكون ، كيف يأخذكم من بيتى ويقتلكم بعد أن قبل شفاعتى ؟ فذهبا مع الرسول . وعندما وصلا إلى الحوش وجدوه مملوء بالقتلى ، وضرب الرقاب مازال

واقع بالمحبوسين . فقبضوا عليهما ، وأدرجا فى ضمنهم !.. وقد نزل طوسون باشا وقت نزول أبيه وأوقف النهب . أما القبض على الأجناد والمماليك فستمر ، وكذلك كل من كان يشبههم فى الملبس والزى . وأكثر من كان يقبض عليهم كانوا عساكر حسن باشا الأرنؤدى ، فكانوا يكبسون عليهم فى الدور والأماكن ويقبضون عليهم وينهبون بيوتهم . وأما كتخدا بك فانه لم يرحم أحداً . وكلما أحضروا له واحداً من الأمراء أو رجالهم ولو هرماً أو فقيراً أمر بضرب عنقه . وأرسل أوراقا إلى كشاف النواحى بقتل كل من وجدوه بالقرى والبلاد من البكوات والمماليك . فوردت الرؤوس فى ثانى يوم ، فكانوا يضعونها بالرميلة وعلى مصطبة السبيل المواجهة لباب زويلة . والباشا كان يعلم شدة كراهية كتخداه للمماليك ففوض له الأمر فيهم . فقتل فى هذا الحادث أكثر من ألف إنسان من أمراء وأجناد وكشاف ومماليك . ثم صاروا يحملون جثثهم على الأخشاب ويلقونهم عند المغسل بالرميلة ، ثم يرفعونهم ويلقونهم فى حفر فى الأرض بعضهم فوق بعض . وسلخوا عدة رؤوس من رؤوس العظماء ، وألقوا جماجمهم المسلوخة على الجثث فى تلك الحفر ، فكانت هذه الأمور من أشنع الحوادث التى لم يتفق مثلها .

ولم ينج من الألفية إلا أحمد بك زوج عديلة هانم بنت ابراهيم بك الكبير ، فإنه كان غائباً بناحية « بوش » وأمين بك الذى تمكن من الفرار من القلعة بجواده وهرب إلى الشام ، وعمر بك الألفى إذ

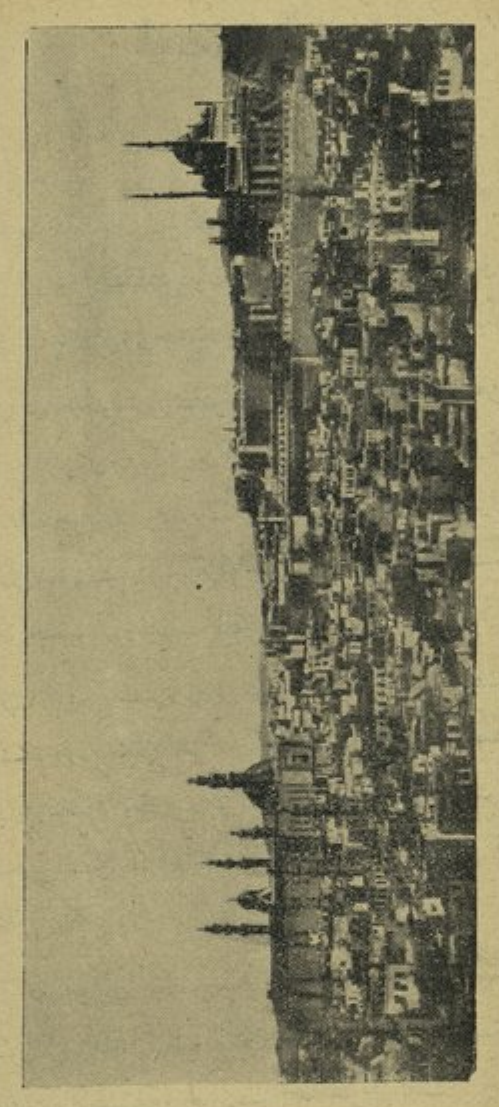
كان مسافراً فى ذلك اليوم إلى الفيوم ، ولكنه قتل هناك فيما بعد وبعثوا برأسه مع ١٥ رأساً أخرى .

وأما من قتل فى ذلك اليوم ممن له ذكر وبلغنى خبره فهم : شاهين بك كبير الألفية ، ويحيى بك ، ونعمان بك ، وحسين بك الصغير ، ومصطفى بك الصغير ، ومراد بك ، وعلى بك وهؤلاء من الألفية . ومن غيرهم : أحمد بك الكيلارجى ، ويوسف بك أبو دياب ، وحسن بك صالح ، ومرزوق بك بن ابراهيم بك الكبير ، وسليمان بك البواب ، واحمد بك تابعه ، ورشوان بك ، وابراهيم بك تابعه ، وقاسم بك تابع مراد بك الكبير ، وسليم بك الدمرجى ، ورستم بك الشرقاوى ، ومصطفى بك أيوب ، ومصطفى بك تابع عثمان بك حسن ، وعثمان بك ابراهيم ، وذو الفقار تابع جوجر بك . ومن الأمراء الكشاف : كاشف الخازندار ، وعثمان كاشف الحبشى ، ويحيى كاشف ، ومرزوق كاشف ، وعبد العزيز كاشف ، ورشوان كاشف ، وسليم كاشف ططر ، وفايد كاشف وجعفر كاشف ، وعثمان كاشف ، ومحمد كاشف أبو قطية ، وأحمد كاشف الفلاح ، وأحمد كاشف ، ومحمد أغا ، وخليل كاشف ، وعلى كاشف قيطاس ، وموسى كاشف ، وغيرهم ممن لم تبلغنى أسماؤهم وهم كثيرون . ختم الله للجميع بالخير ، فانه بلغنى ممن عاينهم بالسجن وأثناء القتل أنهم كانوا يقرأون القرآن وينطقون بالشهادتين والاستغفار ، وبعضهم طلب ماء وتوضى وصلى ركعتين قبل أن يرمى عنقه ، ومن لم يجد ماء تيمم وصلى .

وفى ثامنه نودى على نساء القتلى بالأمان ، وأن يعدن إلى بيوتهن . فعاد البعض، وآثر البعض الآخر الإختفاء ـ خصوصاً اللواتى نهبت منازلهن ولم يبق لهن شىء . وأنعم الباشا على خواصه بالبيوت بمن فيها ، فسكنوها وألبسوا النساء الخواتم (؟) وجددوا الفرش . وأنعم ببيت شاهين بك على حسين أغا أحد أقربائه .

وأما أحمد بك الألفى ، فوصله النذير فانتقل من قرية بوش إلى الجنوب ، وأبلغ إخوانه هناك ما حدث فى القاهرة والأقاليم . وعلم ابراهيم بموت ولده على هذه الصورة . فأقاموا العزاء على إخوانهم ولبسوا عليهم السواد . » . ا . هـ

وقد طارد بعد ذلك ابراهيم باشا ـ بن محمد على باشا ـ هؤلاء فى الجنوب ، فانتقلوا إلى بلدة دنقلة جنوبى السودان ، ومن بينهم إبراهيم بك ، وهناك أخذوا يزرعون الدخن ويقتاتون به ، إلى أن مات ابراهيم بك فى شهر ربيع الأول سنة ١٢٣١ هـ . وفى العام التالى استطاعت زوجته أن تحصل على إذن من محمد على باشا بإحضار رفات زوجها لدفنه بالقاهرة . فوصل جثمانه فى رمضان سنة ١٢٣٢هـ .



منظر عام لمدينة القاهرة، وترى القلعة إلى أقصى اليمين.

الفصل الثامن

الحركات العرابية وما تخللها

بعد مذبحة القلعة ، لم تقم للشراكسة فى مصر قائمة . فقد قتل أكثرهم ، ووزع محمد على باشا نساء القتلى على رجاله ، ومنهم بعض المصريين الذين كانوا فى خدمته. ومن بقى حياً اختفى حرصاً على حياته .

وفى عهد الخديوى إسماعيل وبعده جاء مصر عدد قليل من الشراكسة الذين فروا من وجه الروس (١٨٦٩ — ١٨٧٥ م) . وكان اسماعيل يرحب بالمهاجرين من جميع الأجناس لتنشيط حركة العمران فى مصر ، كما إنه كان شـديد الرغبة فى تحسين المدن المصرية . فسكنوا مصر وانخرط بعضهم فى صفوف الجيش .

وكان الجيش المصرى ، فى عهد الخديوى توفيق ، يضم عدداً من الشراكسة. وقد استطاع هؤلاء ، ابسالتهم وغريزتهم العسكرية ، بلوغ المراتب الرفيعة فى الجيش ، مما أثار عليهم حفيظة إخوانهم المصريين . وكان البعض القليل من هؤلاء من نسل البكوات الذين قتل آباؤهم فى مذبحة القلعة .

وفى عهد وزارة رياض باشا ، كان وزير الحربية ضابط شركسى اسمه عثمان رفقى باشا ، اتهم بأنه كان متعصباً لأبناء جنسه ، فاجتمع بعض الضباط المصريين ومن بينهم احمد عرابى باشا ، واتفقوا على

مناوأه الشراكسة . فحرروا شكوى رفعوها إلى مجلس الوزراء بالنيابة عن جميع الضباط وفيها يطلبون عزل عثمان رفقى وزير الحربية . وكانت اللهجة التى كتبت بها الشكوى شديدة . فحاول رياض باشا إقناعهم بسحبها واعداً بأن يعمل على إنصافهم فلم يفلح . ولما عرض الأمر على الخديوى غضب غضباً شديداً لتدخل الجيش فى شؤون الحكومة التنفيذية ، وقرر محاكمة مقدمى الشكوى .

إلا أنه بعد اعتقال مقدمى الشكوى — وكان عددهم ثلاثة من بينهم احمد عرابى باشا — فى ثكنة قصر النيل ، هجم الآلاى مصرى بقيادة الضابط محمد عبيد على الثكنات وفك أسر الضباط المحجوزين وقصدوا جميعاً فى مظاهرة إلى قصر عابدين طالبين عزل عثمان رفقى، وأصروا على البقاء حتى يجاب طلبهم .

فلم يسع الخديوى إلا القبول ،وصدر الأمر بعزل وزير الحربية! وتعين مكانه محمود سامى البارودى .

وكان لهذا التقهقر السريع أثره فى نشر الدعوة العرابية وإضعاف هيبة الحكومة . ثم مالبث البارودى أن استقال لخلافه مع الخديوى وتعين مكانه داود يكن باشا صهر الخديوى . فقامت ثورة الضباط بقيادة عرابى مرة أخرى وطلبوا عزل الوزارة بأكملها وتشكيل مجلس نواب. وسار عرابى على رأس قوة مكونة من ٢٥٠٠ جندى و١٨ مدفعا وأخذوا مكانهم فى ساحة عابدين ، وخلفهم عدد لا يحصى من الناس . فخرج لهم الخديوى ، وقامت بينه وبين عرابى مناقشة

طلب عرابى خلالها عزل الوزارة وتأليف وزارة جديدة ، ودعوة مجلس النواب للانعقاد ، وزيادة الجيش إلى ١٨٠٠٠ . وبعد أخذ ورد قبل الخديوى إسقاط الوزارة ، واتفق على دعوة شريف باشا لتشكيل الوزارة الجديدة ،فتشكلت وأعيدالبارودي لوزارةالحربية. وقد أودى هذا الحادث بسلطة الخديوى وجعـــل السلطة كلها بيد الجيش .

وفى آخر يناير سنة ١٨٨٢ طلب مجلس النواب من الخديوى إسقاط وزارة شريف باشا للخلاف الناشىء بين الوزارة والمجلس حول الميزانية . فاستقال شريف باشا وتعين مكانه البارودى رئيسا للحكومة ، وجلس أحمد عرابى فى كرسى نظارة الحربية . فكان أن رقى عدداً كبيراً من الضباط المصريين ، وقرر التخلص ممن سماهم « الحزب الشركسى » . فشكل لجنة لفرز الضباط ، وأحال منهم ٦٠٠ ضابط شركسى أو تركى الى المعاش ، ونفى الباقين الى السودان . ثم عاد وقرر التخلص من هؤلاء أيضاً ، فادعى أن بعضهم تكلم بشأنه بما لايليق ، فأمر بالقبض عليهم جميعاً ، وكان عددهم ٤٨ ضابطاً ، من بينهم عثمان رفقى باشا ناظر الحربية السابق ، وأودعهم سجن قشلاق قصر النيل . وعاملهم بالقسوة والغلظة . ثم أمر بتشكيل مجلس حربى لمحاكمتهم ، فصدر الحكم عليهم بالنفى إلىأقاصىالسودان ، بدون أن يسمح للمتهمين بالدفاع عن أنفسهم .

فلما عرض الحكم على الخديوى ، أصدر قراره فى ٩ يناير سنة

١٨٨٢ بتعديله إلى النفى خارج مصر دون تعيين السودان .
وعلى ذلك اشتد الجفاء بين العرابيين والخديوى ، وقرر الوزراء دعوة مجلس النواب للنظر فى أمر الخلاف . وفعلا اجتمع الأعضاء ، وحاولوا التأثير على الخديوى لحمله على النزول عن موقفه ، فرفض . وأخيراً رؤى أن يوافق الخديوى على قرار المحكمة العسكرية بشرط استقالة رئيس الوزارة فقط ويبقى سائر الوزراء مكانهم . فوافق الخديوى على هذا الحل بعد تردد ، إلا أن مصطفى باشا فهمى الذى عرضوا عليه رئاسة الوزارة لم يقبلها ، وبذلك عادت المسألة إلى الأخذ والرد .

وأخيراً وافق الخديوى على بقاء الوزارة إلى أن تسنح الفرصة ، ونفى الضباط المحكوم عليهم إلى سوريا ومنها الى استانبول .

° ° °

وقد تطورت الحوادث بعد ذلك فى مصر تطوراً سريعاً ، واشتد الجفاء بين الخديوى وعرابى باشا . وفى يوم ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ أطلق الأسطول الإنجليزى نيران مدافعه على الإسكندرية ، وفى يوم ١٥ سبتمبر منه دخلت القوات الإنجليزية مدينة القاهرة ، فقبضت على عرابى باشا وبعض الزعماء ، وتقرر نفيهم ، بعد المحاكمة ، من الأراضى المصرية .

الفصل التاسع

ختام

لا يزيد عدد الشراكسة فى مصر — أو المصريين الذين ينتمون إلى أصل شركسى — عن بضعة مئات، قد لا يتعدون الألف عدداً. وقد امتزج هؤلاء بالحياة المصرية امتزاجاً تاما، وأصبحوا مصريين قلباً وقالباً. وهم — مع قلة عددهم — يتميزون بنشاط زاخر، فهم فى طليعة العناصر العاملة المجاهدة فى هذه البلاد. ومنهم الإداريون، والعسكريون، وأصحاب المهن الحرة. ولا شك أن مصر تفخر بانتساب مثل هؤلاء لها، كما يفخرون هم بانتسابهم إلى وطنهم المحبوب : مصر.

ومن العائلات المصرية التى تنتمى إلى أصل شركسى : بيبرس، وقانصوه، وبكتاش وتيمور، والبرديسى، وذو الفقار، ورستم، وشركس، وجانبك، ولاشين، ودمرداش، وشيرين، وقوصون، وغيرها.

وفى القاهرة اليوم، فضلا عن ذلك، عدد كبير من الطلاب الشراكسة الذين قدموا لتلقى العلم فى معاهدها المختلفة من الأقطار المجاورة يربو على المائتين.

° ° °

وفى سنة ١٩٣٢ تأسست بالقاهرة جمعية اسمها « جمعية الإخاء

الجركسية ، لنشر الثقافة والتعاون الأدبي والاجتماعي بين الشراكسة ولمساعدة الضعفاء والمحتاجين منهم . وكان مؤسسها المرحوم عبد الحميد بك غالب من خيرة الرجال ، وقد قام بترجمة كتاب « تاريخ القوقاز » عن اللغة التركية وطبعه على نفقته الخاصة . وقد قامت الجمعية في عهده بخدمات جليلة للطلاب ، وأقامت عدة احتفالات ناجحة . ومن المؤسف أن نشاط هذه الجمعية قد توقف — أو كاد — بعد وفاة مؤسسها . وحبذا لو تدارك القائمون بالأمر هذا الوضع ، وأعادوا للجمعية رونقها ونشاطها القديم .

انتهى

كتب المؤلف

---

١ — الإسلام والحرية الفكرية

١٨٠ صفحة — والثمن ١٥ قرشاً

من أبوابه : الإسلام والحياة العقلية — الإسلام وحرية الفكر — الإسلام وحرية المرأة — الإسلام وحرية القضاء — تعاليم الإسلام فى الفتح — المعاهدات الإسلامية . الخ . . .

THE TRAGEDY OF A NATION

THE STORY OF THE CHERKESS

٦٤ صفحة على ورق ممتاز والثمن ٥ قروش

٣ — هذه أمتى — شركسى يتحدث عن قومه

---

٦٤ صفحة من القطع المتوسط ، مزين بالرسوم ، والثمن ٥ قروش للطبعة العادية ، و ١٠ قروش للطبعة الممتازة .

تطلب هذه الكتب من المؤلف ، بشركة سوكونى فاكوم أويل ، ٦٢ شارع ابراهيم باشا ، القاهرة ، ومن المكتبات الشهيرة .

يصدر للمؤلف

١ – على بك الكبير

وعصره

رواية صادقة لعصر من العصور الخالدة فى تاريخ مصر

٢ – نساء خالدات

تراجم شائقة لأشهر نساء الشرق والغرب

٣ – جان

قصة من صميم القوقاز

استدراك

ورد فى صفحة ٧ من هذا الكتاب أن اللغة الشركسية تدرس فى القوقاز حتى سن العاشرة ، والصواب أنها تدرس عشر سنوات .

